

معالم الفكر العربي المعاصر

مع دراسة من الثقافة العربية المعاصرة في معارك التغريب

بقلم

أنور أجبتي

(مدخل)

من خلال دراسة واسعة مستفيضة للأدب العربي المعاصر ، تكشف أن هناك مجالا واسعا خصبا ما زال بكراً ، في حاجة للدراسة ، ذلك هو مجال «الفكر العربي» ، وهو مجال رحيب ، نابض بالحياة موصول بالحياة والمجتمع والدين والتراث والتاريخ واللغة ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن الأدب قطاع منه ، ومن هنا توسعت النظرة والدراسة ، ولا شك أن دراسة الأدب العربي المعاصر كانت في جذورها دراسة للفكر العربي أساساً ، وبعد أن كانت المهمة التي انتدبت لها نفسى تقف عند دراسة الأدب العربي المعاصر ، فقد توسعت لدراسة الفكر العربي والثقافة العربية في مرحلتين : الأولى مرحلة الاستعمار وقيام النفوذ الغربي ، والثانية مرحلة نهاية الاستعمار وقيام نفوذ التغريب والشعبوية بديلا عنه .

وكان أن فتحت لى دراسة (الفكر^(١) العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية) التي تناولت مرحلة الاستعمار والنفوذ الغربي منذ فجر الاحتلال إلى أوائل الحرب العالمية الثانية (١٨٧١ - ١٩٣٩) فتحت هذه الدراسة بابا واسعا للتعرف على أدواء فكرنا وقضاياها وأزماتها في مواجهة الفكر الغربي بشقيه ، وكيف واجه فكرنا الالتقاء بالنظريات والمذاهب الجديدة التي قدمت له في ظل النفوذ الأجنبي القائم إذ ذاك في قلب الوطن العربي والتي كانت تهدف في الأغلب إلى عمل سياسى عميق الجذور هو القضاء على مقوماته الأصلية بما يمكن للاستعمار من بسط نفوذه ودعمه واستمراره ، ولما كانت مقومات الفكر العربي الإسلامي تعطى أساساً تلك الروح القادرة على المقاومة فقد قامت أزمة صراع بين القوى الفكرية النازية وأسس فكرنا الحى المتفتح القادر على الحركة والتلقى والاستجابة والإذابة في كيانه دون أن يتحول ، أو يصبح تابعا ، فهو قادر دائما على التلقى والأخذ والانتقاس وفق حاجته ، لا بالأرى المفروض .

ومن هنا بدأت تظهر عشرات المسائل التي اختلفت فيها وجهة نظر الفكر العربي عن فكرنا العربي الإسلامي على نحو أصبح من الضروري معه البحث عن جذور هذه القضايا وعرضها عرضاً منصفاً لا ينكر فصل الغرب في تطوره وحضارته ولا يقضى على المقومات الأساسية للفكر العربي .

وقد حاولت في هذه الدراسة تناول التطورات في المرحلة الدقيقة بين الاحتلال والجلاء عن العالم العربي .

ولاشك أن يقظة العالم العربي الجديدة التي بدأت في ظل الثورة ويقظة القومية العربية وبروز فجر نهضة حقيقية للأمة العربية والفكر العربي قد أُناحت وضع أسس جديدة إيجابية بحيث يمكن الفصل بخط واضح معمق بين مرحلة ومرحلة في تاريخ الفكر العربي المعاصر .

وغاية ما يمكن أن يقال أن المرحلة التي تمثل سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية واندلاع دعوة القومية العربية قد أُناحت فرصة واسعة لدراسة المرحلة التي عاشها العالم العربي في مرحلتين مر بهما الفكر العربي الإسلامي في العصر الأخير :

المرحلة الأولى : الفترة من ١٥١٧ إلى حوالي ١٨٣٠ تقريباً وهي ثلاثمائة عام تقريباً من حكم السلطة العثمانية للعالم العربي وقد كانت هذه الفترة مرحلة ضعف عام للفكر العربي الإسلامي ، مصدره أن العالم الإسلامي والأمة العربية جزء منه كان قد جرى شوطاً طويلاً في خلال ألف عام كاملة منذ بزوغ فجر الإسلام ، وشارك مشاركة فعالة في مقاومة الفكر الإنساني والحضارة البشرية وعمل على إثناء الجذور التي قامت عليها الحضارة الحديثة المسماة بالحضارة الغربية نسبة إلى مكان نموها وتوسعها أساساً ، وكذلك كانت الحضارة الإسلامية العربية دورة مستأنفة للتاريخ بعد سقوط الحضارة اليونانية والرومانية ، وكذلك كانت الحضارة الغربية دورة مستأنفة بعد ضعف الحضارة الإسلامية ، غير أن الفكر العربي الإسلامي لم يسقط يوم تلاشت الحضارة الإسلامية العربية وعند ما انطوت الدولة الكبرى المتمثلة في الأباطورية العثمانية ولكنه ظل موجوداً وإن خبأ ضوءه وعلاه الصدا ، وإن لم يعد يتفاعل مع الحياة ، فقد ظل مستمر الحياة حتى إذا انبعثت منه الصيحة مرة أخرى

بالدعوة إلى اليقظة ، تفتحت آفاقه مرة أخرى للنهضة ، وذلك قبل قدوم الحملة الفرنسية بقرن من الزمان حين بدأت اليقظة في الفكر العربي الإسلامي ترسم طريقا جديدا .

٢ - ثم كانت هذه المرحلة الثانية التي يمكن أن تسمى مرحلة الاحتلال العسكري والسياسي للعالم العربي (١٨٣٠ - ١٩٥٢) والتي برزت خلالها أصوات جريئة وقوية من دعاة الإصلاح والتجديد في مجال اللغة والأدب والدين والاجتماع والتاريخ ، هذه المرحلة يمكن أن يطلق عليها مرحلة فجر اليقظة ، فقد قاوم فيها هؤلاء المصلحون قوى ضخمة من النفوذ الأجنبي والتبشير والتغريب والغزو السياسي والاجتماعي والعسكري في ظل مرحلة كان الفكر العربي خلالها يحاول أن يستعيد مكانته ويصحح مفاهيمه وينفض عن نفسه غبار القرون التي جمدته وأصابته بالضعف ومن هنا فتحت أبواب التجديد والاجتهاد ، وبدأت تنكشف صورة هذا الفكر على حقيقته ، ويبدو جوهره النقي ليؤكد حياته وقدرته على الاستمرار والتفاعل مع النهضة والحضارة ، وليثبت أنه كان دائما قادراً على الإيجابية والفاعلية ، وقد كان ولا يزال يحمل لواء التقدمية والعصرية متطاولا مع الأزمان المتتالية والبيئات المختلفة .

ولكن الاستثمار كان يبنض هذه اليقظة التي تعمل أساساً على شجب نفوذه ومن هنا وجدت من النفوذ الأجنبي تحدياً ضخماً ، هو تحدى القادر الممتلك لمختلف عناصر القدرة في السيطرة السياسية والعسكرية ووسائل الثقافة من صحافة ومدرسة وجامعة ، ومن هنا كانت مواجهة التحدى بتلك الروح التي عرفت بها هذه الأمة حين تمر بها الأحداث الكبرى والأزمات العاصفة .

واعتقد أن فترة الاحتلال وسيطرة النفوذ الأجنبي التي بدأت قبل منتصف القرن الماضي والتي أوشكت على الانتهاء خلال العقد الخامس من هذا القرن قد كان لها أثرها البعيد في التسكين العقلي والروحي للأمة العربية والعالم الإسلامي عن طريق نفوذها في المدرسة والصحافة وبت الفلسفات المادية ، ودفع ثقافات الغرائز والجنس ، واتخاذ المفاهيم الغربية أساساً لفهم القيم الإنسانية ، والاعتماد على مصادر الغرب في فهم أنفسنا ومحاولة

خلق جرم مقبل لاعتناق نظريات الغرب في التربية والنفوس والاجتماع والأدب ، وفي هذه محاولة الفصل بين الدين والفكر والقومية والإسلام ، وقد ظل هذا الأثر واضحاً إلى وقت طويل -

ولقد كان أبرز ما في مرحلة ما قبل الاستقلال ظهور مدرسة ذات نفوذ تفصل بين معركة الحرية وبين القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي ، ومن هنا مضت حركة المقاومة منفصلة عن مقومات فكرنا ، كانت السياسة تغلب الوطنية ، وكانت الوطنية ضيقة إقليمية ، وكانت الحركات الأربع العربية والإسلامية والشرقية والإقليمية تتصارع بتوجيه النفوذ الأجنبي .

وكانت معاهد التعليم تحت سيطرة النفوذ الأجنبي تخرج المؤمنين بالغرب المعجبين به ، الساخرين بالفكر العربي الإسلامي وقيمه ، والذين تملأهم نزعات الشكوك والريب ، منصرفين عنه إلى الفكر الغربي ومظاهر الحضارة باعتبارها المثل الأعلى .

وقد تعمقت في العالم العربي خلال فترة ما بين الحربين وما بعدها في ظل الاحتلال مدرسة « لا أخلاقية السياسة » البعيدة عن القيم الفكرية والروحية العربية الإسلامية والتي كانت تنظر إلى الدين نظرة الغرب وتنظر إلى الإسلام على أنه دين ، وتفصل بينه وبين نتاجه الفكري والحضاري والثقافي المتفاعل مع الفكر الإنساني والذي هو عصارة فكر الشرق كله في أديانه وثقافته .

وفي ظل النفوذ الأجنبي قامت مدرسة التغريب ودعوته ، وبرزت دعوة الشعوبية ونعت ، وتعمقت مفاهيم الغرب في مختلف مجالات الصحافة والتربية والتعليم والثقافة وحلت مفاهيم غربية للقيم العربية الإسلامية الإنسانية .

وبذلك تعمقت الحوة التي تفصل بين الأمة العربية ومفاهيمها واضطرب الخط المتصل وبذلك انحرفت الشخصية العربية عن مقوماتها ومفاهيمها واستطاع الاستعمار والنفوذ الغربي خلال مرحلة الاحتلال للعالم العربي أن يعمق خطته الرامية إلى هدم :

(١) مقومات الأمة (٢) شخصيتها (٣) فكرها ، هذه الخطة التي جرت بأعمال

التبشير والتغريب^١ والشعوبية وفي ظل خدمات الاستشراق في مراحل متعددة وفي مخطط دقيق ، وقد عمق النفوذ الأجنبي خطته على مراحل متعددة بوسائل تزييف الحقائق والتشكيك في المفاهيم ، وإحلال مفاهيمه للقيم الإنسانية بدلا من مفاهيم الفكر العربي . ويمكن أن نلخص الشبهات والانتهاكات التي وجهها التغريب ووجهتها الشعوبية للفكر العربي الإسلامي ونوجزها حتى نكشف الطريق بين يدي الباحث :

(أولا) التجزئة بين العروبة والإسلام . على أساس المفهوم الغربي لكلمة الدين . والمعروف أن الغرب فصل القومية عن المسيحية ، لأن المسيحية دخلت على أوروبا من الخارج فكانت أجنبية عن طبيعتها وتاريخها في حين أن الإسلام بالنسبة للعرب في غير مجال العربية : ثقافة وفكر وحضارة وتاريخ .

(ثانيا) فرضية قبول للثقافة والحضارة الغربيين مما « حلوها ومرها ، خيرها وشرها ، ما يحمد منها وما يعاب » وهنا يبدو الخلط بين الثقافة والحضارة ، فالثقافة فكر والحضارة مادة ، والحضارة ملك للإنسانية ولكن الثقافة تستمد جذورها من وجدان الأمة وضميرها وروحها . والمعرفة غير الثقافة ، فالمعرفة كالحضارة ليس شرط أن تكون ثقافة ، ولكن هي ملك إنساني عام تأخذ الثقافات منها وتدع .

(ثالثا) الفلسفة العربية الإسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية وهذا غير الحق ، فقد كان للعرب طابعهم الواضح ، المستمد من روح القرآن والإسلام والتوحيد ، هذا الطابع الذي أخذ ورفض وأضاف وعدل .

(رابعا) الانفصال عن الماضي كلية باعتباره مصدر التأخر ، وهذا القول خطأ على إطلاقه ، فإن الغرب نفسه لم ينفصل في حضارته وثقافته القائمة عن مصادر التراث اليوناني والروماني . بالرغم من انفصاله عن هذا التراث ألبي عام ضياع اللغة اللاتينية . بينما بقى الفكر العربي الإسلامي وما زال متصل بمجذوره ، وما زال مستمر الأثر والفاعلية .

(خامسا) « روحية الثقافة العربية » هذا خطأ محض ، فإن الفكر العربي الإسلامي يتسم بالمزيج التفاعل بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

(سادسا) احتقار آسيا وإتهامنا بأسويون ، على أساس أن ذلك مصدر تخلف عن أوروبا ، والواقع يؤكد والتاريخ يثبت أن آسيا قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العريقة : كالأكاوية والشمرية والبابلية والآشورية والهندية والصينية وقدمت للإنسانية ديانات أرضية كالבודהية والبرهمية وديانات سماوية كاليهودية والنصرانية والإسلام .

(سابعا) المحاكمة إلى فترة الضعف ؛ هذه الفترة التي انتهت بها دورة من دورات الحضارة وبدأت دورة جديدة لا يمكن أن تمثل حقيقة القيم والفاهيم الأساسية للفكر الإسلامي . بعد أن غلبت نزعات الجود والتقليد .

(ثامنا) الرأي الغربي في كلمة « الدين » ، هذا الرأي ينطبق على مفهوم المسيحية الغربية وعلى تاريخها ومراحل تنافسها واختلافها مع النهضة الغربية ، ولا يصلح هذا الرأي بتطبيقه على (الإسلام) أو الفكر العربي الإسلامي بصفة عامة . إن مفهوم المسيحية الغربية يختلف عن مفهوم المسيحية السمحة النابعة من الشرق ، ثم أن مفهوم الإسلام يختلف عن مفهوم الدين ، باعتبار الإسلام دين وفكر ومجتمع وحضارة ، وهو في تطوره وحركته وإيجابيته وتقدميته وقدرته على البناء والإخذ والعطاء تختلف كثيرا عن غيره من الأديان .

(تاسعا) دعوات الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والبربرية وغيرها ، هذه الدعوات التي استغلت للتفرقة بين أجزاء الوطن الواحد ، واتخذت وسيلة لإحياء خلافات مذهبية قديمة مثل الإسلام ومحاولة تغليبها لخلق قوميات ضيقة ودعوات إقليمية مسرفة في التخلص من روح الفكر العربي الإسلامي الذي شغل المنطقة ووحدها بعد الإسلام ، وقد أثبت عديد من الباحثين بدلائل قوية أن الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ما هي إلا موجات عربية متتالية تدفقت من قلب الجزيرة العربية وانساحت في المنطقة كلها حيث لم يكن من الممكن أن تبنى حضارة شائعة في جوارح وعلى رمال ساخنة إلى أطراف الجزيرة ووديان العراق وسهول مصر والشام الخصبية وإلى سواحل البحار والأنهار .

(عاشر) دور الحضارة الإسلامية العربية في الحضارة الإنسانية . وقد تجاهل هذا الدور كثير من الباحثين وتجاهلوا أوليات فكرنا العربي الإسلامي في مختلف العلوم والفنون ، كالفلك والجبر والمهندسة وارتياح البحار ونظرية الضوء والطب وغيرها .

(حادى عشر) العالم العربي أيقظته أوروبا : وخطأ هذا هو أن العالم العربي استيقظ قبل الارساليات وقبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، ويمكن القول بأن الحركة الوهابية (١٧٤٠م تقريبا) تعد أولى علامات اليقظة وتسبق نابليون بمخمين عاما . ولا ننسى الوثيقة التي حصل عليها العلماء من الحكام الماليك قبل الحملة الفرنسية والتي يمكن أن تعد بحق الوثيقة العربية لحقوق الإنسان .

(ثانى عشر) اللغة العربية لغة ميتة كاللغة اللاتينية ، وخطأ هذا أن اللغة اللاتينية كانت لغة دولة ولم تكن لغة أمة ، وكانت لغة أرسقراطية لا يارسها إلا النخبة الممتازة ، ولم تتغلغل في طبقات العوام ، أما اللغة العربية فقد كانت لغة الإسلام والقرآن ، عاشت معهم ونمت في ظلها ، وكانت تامة كاملة قبل الإسلام والقرآن ، وقد استطاعت بحيويتها وقوتها أن تصرع كل لغات العالم الإسلامي وتأخذ المكان الأول وستظل حية لأنها كانت قادرة على التجاوب مع الحضارات والمدنيات دوما .

ولقد استطاع الفسکر العربی فی فترة الاحتلال (١٨٣٠ - ١٩٥٦) تقريبا أن يقاوم هذه النظريات والشبهات وأن يدحضها غير أن النفوذ الغربي المغلف وراء التغريب والشعوبية أجرى محاولات جديدة لبسط هذه الشبهات بأساليب جديدة .

* * *

هذا هو الموقف الذى واجه الفكر العربى فى أوائل مرحلة الاستقلال وإنهاء النفوذ الأجنبى والذى حاول أن يثير الشبهات حول يقظة العالم العربى الجديدة ، وأن يوجه ظلال الشكوك حول الحرية والاشتراكية والوحدة ، هذه الشكوك التى تحاول أن تعوق العالم العربى وقد أوشك على التحرر من النفوذ الأجنبى المسكرى والسياسى حتى تفرض عليه أن يواجه معركة جديدة هى التخلص من التغريب والشعوبية ، وقد وضع الاتجاه نيجو تأصيل النهضة وكشف تأمر التغريب عليها فى كلمات مضئئة :

« نحن في حاجة إلى الوحدة الفكرية حتى ندعم هذا التضامن العربي ، أن التحرر الفكري ضروري لها في هذا المجال ، وهناك واجب أساسي في إقامة أدب عربي مستقل خال من السيطرة الأجنبية أو التوجيه الأجنبي فلا نكون ذبلاً لسكتة من السكت .. فكرنا ينبع من ضميرنا ، مع وعي عميق بالتاريخ وأثره على الإنسان المعاصر من ناحية ومن ناحية أخرى بقدرة الإنسان بدوره على التأثير في التاريخ ومع فكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية يأخذ منها ويعطيها ، ولا يبعدها عنه بالتعصب ولا يعدد نفسه عنها بالعقد مع إيمان لا يتزعزع بالله ورسوله ورسالاته القدسية التي نعيشها بالحق والهدى » .

وعصارة هذه الفترة تتمثل في عناصر محددة :

أولاً : نحن لسنا خصوما للحضارة الغربية أصلاً ، فالحضارة الغربية مدنية إنسانية عالية شاركنا في بنائها وكان لنا دورنا في تكوينها ، وهي حق مشاع لكل الأمم والشعوب ، وقد أخذنا منها أرقى ما وصلت إليه ، واستطعنا في ظل اليقظة التي عرفها العالم العربي كله منذ عام ١٩٥٢ أن نصل منها إلى مرحلة كبرى في مجال الصناعة والتسلح وبناء الطائرات والتكنيك العلمي وما يتصل بالذرة والفضاء بحيث لا يمكن أن نهم اليوم بالتقصير أو التخلف ، وبحيث نكون قد عدونا الطلوع الذي كان يضربه الاستعمار والنفوذ الغربي حول الأمم حتى لا تصل من الحضارة إلى جوانب القوة فيها .

ثانياً : لسنا خصوما للفكر الغربي أصلاً إلا حين يحاول هذا الفكر أن يسيطر علينا لحساب النفوذ الأجنبي ، أما فيما عدا ذلك فالفكر الغربي يحمل عصارات من الإبداع والعبقرية في مجالات الفلسفة والفن والأدب والتاريخ تتجه نحو ترقية الإنسانية ولكننا نقف منه موقفين واضحين :

الأول : لنا أولية في مجال النهضة والحضارة وكان فكرنا العربي الإسلامي له دور وأثر واضح أكيد لا سبيل إلى إنكاره أو غمطه أو تجاوزه^(١) .

(١) اقرأ كتابنا (صفحات من أمجادنا) ، وكتابنا (أضواء على الفكر العربي الإسلامي) .

الثاني : أن الفكر الغربي - عن طريق النفوذ الاستعماري المختفي وراء التغريب والشموعية ، يحاول أن يفرض علينا بعض النظريات والأفكار والمذاهب التي لا تتفق أساساً مع مقومات فكرنا العربي الإسلامي في مجال : الجنس والتربية وعلم النفس والمادية التاريخية وغيرها ، ونحن نرى أن هذه النظريات إنما هي مراحل في تطور الفكر الغربي تتصل بمحضارته وثقافته المستمدة من مصادر اليونان والرومان أساساً ، ونحن بفكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية ننظر في هذه النظريات بروح الاستقلال والرشد الفكري ، ونقف منها موقف القدرة على الأخذ والرد ، والقبول والرفض ، فقاعدتنا أساساً أن لنا مقومات وقيم أصيلة ترسم ثقافتنا وشخصيتنا وفي ضوءها نأخذ وندع ، ولن يتحقق أبداً أن نكون تابعين أو مستوردين ، أو أن نذوب في فكر الغرب .

ولعل أبرز ما أعطينا بقطتنا العربية هي هذه القدرة على مواجهة الفكر الغربي دون استسلام له ، لقد أعطتنا القدرة على إسقاط « عقدة الأجنبي » وذلك ببلوغنا مدهاء الحضارة وللدنية والتقنية « التكنيك » . ومن هنا أصبح في مقدورنا ألا ننظر إليه نظرة الغلوب إلى الغالب ، لقد توارت هذه النظرة ونشأ في عالمنا العربي اليوم تيار ضخم قوى : أننا أمة لها مقوماتها وفكرها وقيمها أساساً ، وأن هذه المقومات قادرة على أن تقوم وتحيا ، وهذا هو سر مفهوم الثورة : « التحرر الفكري من كل سيطرة أجنبية أو توجيه أجنبي » ولكننا في نفس الوقت نعيش « بفكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية » فلا نخشى أن نواجه كل أفكار الأمم وثقافتنا فنحن ندرسها وننتفع بكل الخبرات والتجارب العالمية والبشرية والإنسانية في مجالات الاقتصاد والاجتماع ، ما دمنا ثابتين على قاعدتنا .

(الثالث) أن فكرنا العربي الإسلامي ليس أساساً فكر جامد ولا متخلف ، ولا متوقف عند الماضي ، ولا دافع إلى الارتداد . أو الرفض لمنطق الحياة والتطور ، بل هو متباور حي قادر على الحركة ، مواجه للنهضات والثقافات ، قادر على الانتفاع بكل جديد يأخذ منها ويعطى ، لا يبعدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد ، وفوق ذلك فهو

«مؤمن بأنه فكر تترج فيه الروحية والمادية والعقل والقلب ، والحياة والآخرة ، بإمائه بالله ورسله ورسالاته القدسية لا يتزعزع .

(الرابع) أن وحدة فكرنا العربي الإسلامى هى مصدر الوحدة العربية أساساً ، وأنها فى ظل يقظتنا نحس بأن فكرنا العربى قد أخذ طريقه الحق ، التعمق ، الحى ، على الطريق الذى كان قد عجز عنه فى خلال فترة الاحتلال ، ولذلك فهو قادر اليوم على أن يواجه حملات التغريب والشعوبية التى يقودها النفوذ الاستمارى أساساً عن طريق منظمات وصحف مشبوهة تصدر فى بعض أنحاء العالم العربى ، وتهدف أساساً إلى مقاومة الوحدة العربية ، واليقظة ، والنمو والبناء الذى تقوم به بلادنا من أجل دعم العالم الثالث . ودعم الأمة العربية فى مجال الحضارة والعلم والقوة والصناعة والاقتصاد وبناء الإخاء الإسلامى والرابطة الإنسانية ولذلك فنحن نرى أساساً أن حركة الشعوبية والتغريب هى بديل النفوذ الأجنبى والاستعمار ونحن نحاربها ونقاوم آرائها على هذا النحو .

(الخامس) نحن فى ظل يقظتنا العربية الواعية المصرية التقدمية ، سبق متحررين من كل المذاهب : مذاهب الجود والتعصب أو مذاهب التحلل والإباحة والإلحاد ، وفكرنا هنا هو فكر الأمة الوسط . بأخذوهم على قاعدته الأساسية المستمدة من جوهر الأمة العربية فى مفاهيمها وتراثها وتاريخها وروحها وثقافتها ، فلن تنحرف مفاهيمنا ، ما دامت مستمدة من ميثاقنا ومنهجنا ، فنحن فى مرحلة ما بعد الاحتلال فى العالم العربى نجعل من تجاربنا ومفاهيمنا ضوءاً كاشفاً وهادياً للطريق ، مرتبطاً بقيمنا أساساً ، لا نذهب مذهب الجود والتعصب ، ولا التحلل والإباحة ، نرى فى التغريب والشعوبية بديل النفوذ الأجنبى وأداته ، فقد تكشف أن كل حملات التغريب والشعوبية إنما تستهدف الوحدة العربية والأمة العربية والتاريخ العربى وتحاول النقض من قدر أمة متجددة تنشى الحياة وتبنى فى مجال الحضارة والعلم والصناعة ، ومقاومتنا لهذه الحركة التى تلجأ إلى إذاعة بعض المذاهب الفكرية الغربية الجائحة ، إنما هو مقاومة أساساً لتيار مشبوه ، ولا زلنا نذكر كيف قال أشكول فى إسرائيل

أنهم يحاربون وجود لغة واحدة في الشرق الأوسط هي اللغة العربية أساس الوحدة الفكرية وجوهرها .

وبعد فإن فكرنا العربي المعاصر هو امتداد معمق موسع تقدمي لفكرنا العربي الإسلامي على قاعدة الحركة والقدرة على الأخذ والعطاء دون أن نتحاز أو نستورد أو نكون تابعين ونحن في طريق البناء نحاول أن نصصح الأخطاء ونرسم فلسفة تقدمية لفكرنا العربي من خلال يقظتنا الجديدة البناء .

(السادس) القومية والديمقراطية والاشتراكية نظرات منبعثة أساساً من فكرنا العربي الإسلامي ، ولها جذور أصيلة في مقومات فكرنا ، ونحن اليوم نعاملها باعتبارها قيا إنسانية أساسية للفكر الإنساني كله ، وقد كانت واضحة الدلالة في فكرنا ، ومن هنا فنحن لا نأخذ مفاهيم الفكر الغربي لها ولا نعتنق تفسيراته ، وإنما نحن نستمد مقوماتها من واقعنا وفكرنا وتراثنا أصلاً ، وليس لنا أن نشجبها وإلا كنا متخلفين عن تطور فكرنا أصلاً قبل تطور الفكر الإنساني الذي استمد مفاهيمه للقومية والديمقراطية والاشتراكية من فكرنا العربي الإسلامي أساساً ثم نماه ، وتطور به مع تطور الزمن والحضارات وجريان النهر البشري الذي لا يتوقف عن الحركة والحياة . ومن ناحية أخرى فإن عمق فكرنا ووضوح مقوماته وشمولها يقضي على التعارض الذي يواجهه الفكر الغربي فيما بين هذه المذاهب .

* * *

هذه بعض المعالم التي تكشف عنها دراسة هذه الفترة ، وهي كما قلت فترة لم تبعد بعد عن نظر الباحث المعاصر حتى تكون الأحكام فيها سديدة ومقررة . وليس علمنا إلا إلقاء الضوء على الواقع ورسم صورة له . ولا شك أن الصورة تعطى فكرة واضحة ، قوامها : أن الفكر العربي قد انتقل إلى مرحلة جديدة . وأن المرحلة السابقة قد أوشكت على أن تنتهي ، وأن المرحلة الجديدة واضحة في أنها أكثر اتصالاً بزوح العصر مع الاعتماد على الجذور ، وأكثر تعميقاً لهذه الجذور ، وأكثر استنارة وفهمها والأخذ منها ، وتعميمها ، وأنها تؤمن أساساً بأنها لا تتلقى من الفكر الغربي تلقى التابع أو المستورد أو غير القادر ، وإنما يقودها إيمان .

بحقها في أن تأخذ الحضارة فقد ساهمت في بنائها أصلا وكان لها دورها ، وهي تفرق بين الحضارة والثقافة ، أما في مجال الفكر فهي تؤمن بأن لها فكراً له طابعه ومعاله وشخصيته ، وأنها ليست مستعدة للتفريط فيه « هذا الفكر نفسه وعلى قاعدته نستطيع أن نتقبل بحرية وطلاقة تجارب الفكر الإنساني وندرسها ونأخذ منها ونُدع ، بما يتفق مع مقوماتنا وحاجتنا وظروف الزمان والمكان .

ولا شك أن الفكر العربي المعاصر في عصر التحرر من الاستعمار والتجمع للوحدة قد بدأ يصحح مفاهيمه « ويكشف روح التمريب والشعوبية ويشجبهما ، وهو يحاول أن يشق طريقه حثيثاً « بعيداً عن أخطار التعصب والجمود من ناحية والتجمل والإلحاد من ناحية أخرى ملتزماً بمقومات فكره الأساسية : امتزاج الروح والمادة والعقل والقلب .

وهو بسبيل التقدم خطوة أخرى « هذه هي خطوة العطاء وتقديم عصارة فكره للإنسانية التي تتطلع إلى ضياء جديد ، سيكون مصدره بحق هذا العالم الأوسط المتمثل في الشرق العربي الإسلامي وفكره العربي الإسلامي ، هذا الفكر الإنساني الوسط .

عناصر البحث

- أولا : مقومات الفكر العربي ومعطياته .
- ثانيا : مقومات الفكر العربي ومعطياته .
- ثالثا : التغريب والشعوبية الفكرية الحديثة .
- رابعا : نحن والحضارة الغربية .
- خامسا : نحن والفكر الغربي :
- دراسات مقارنة : للثقافة والدين والتراث والتاريخ واللغة والأدب والقومية والأجناس بين الفكر العربي والفكر الغربي .

الكتاب الأول
الفكر العربي الإسلامي
(مقوماته ومطياته)

مقومات الفكر العربي الإسلامي

يتميز الفكر العربي الإسلامي في مقوماته، ويختلف عن فكرين واضحين في مقوماتهما في العالم الحديث : أولهما « فكر الغرب » . وثانيهما « فكر الشرق » .

فالفكر الغربي الذي قام أساساً في أوروبا وامتد إلى أمريكا له طابعه ومقوماته ومفاهيمه الأساسية التي تتمثل في مزيج من الوثنية الأفريقية والمسيحية النورية المستقاة من المسيحية الأصلية ، ويتمثل جوهر هذا الفكر في « المادية » العلمانية الخالصة . وإلى هذه المنابع ترد كل اتجاهات الفكر الغربي ومفاهيمه .

وفكر « الشرق » الذي قام أساساً في أواسط آسيا وامتد إلى الصين واليابان يقوم على أساس الروحية الخالصة ممثلة في فلسفات وديانات البوذية والهندوكية والسكنفو شيوسية وغيرها . وهو فكر يؤمن بالروحية الخالصة جوهر لكل مقوماته ومفاهيمه الأساسية .

أما « الفكر العربي الإسلامي » فهو فكر العالم الإسلامي وقوامه الأمة العربية وتركيا وإيران وأفغانستان والباكستان وأندونيسيا وأفريقيا ومجموعة من يتكلمون اللغة العربية أو يدينون بالإسلام في هذه المنطقة الممتدة فوق أفريقيا وآسيا والتي تتوسط المجموعتين الآخرين من حيث المكان والجغرافيا والمناخ ، وتتوسطهما أيضاً من حيث مفاهيمها وقيمها التي تجمع بين الروح والمادة وتمزج بينهما وهي الأمة الوسطى والقارة الوسطى . فإذا قيل أن الفكر العربي الإسلامي هو الفكر « الأوسط » فإن ذلك يكون مساوياً لما يقال من أنه يعيش في المنطقة الوسطى من العالم « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » .

* * *

وهو فكر إسلامي عربي لأنه مزيج من الإسلام واللغة العربية . فهو فكر أساسه الإسلام وجوهره « التوحيد » وطابعه ذلك المزيج الجامع للروح والمادة « والعقل والقلب » والعالم والدين « والدنيا والآخرة » ، والحياة والموت ، وهو فكر موحد لا يقبل النظرة

الجزئية وإنما يقوم على النظرة السكلية أساساً ، وقوام هذا الفهم أن للإسلام ليس ديناً فحسب ، بل هو دين وفكر وحضارة ومجتمع ، فالدين بمعناه العلمى جزء منه ولكنه ليس هو كله . « واللغة العربية » هي مادة هذا الفكر ووعائه وهي رمز على هذه الأمة التى نشأ فيها ومنها امتد إلى العالم كله ، فضى شرقاً إلى الصين ومضى مغرباً حتى عبر إلى الأندلس .

والعروبة والإسلام شقين لحقيقة واحدة ، يكمل كليهما الآخر فليس يضير أن يتسمى باسمهما معاً ، حتى لا يفهم أنه فكر عربى « قومى » يدخل فيه العرب وحدهم ، وحتى لا يوصف بأنه فكر إسلامى يقوم على الإسلام وحده ، ذلك أن الفكر العربى الإسلامى فى الحق هو عصاره فكر الأجيال والثقافات المختلفة التى عاشت فى هذه المنطقة « وهو مزيج من ثقافات الفرس والمهند والرومان واليونان والمسيحية التى تبلورت كلها فى بوتقة واحدة » . وعملت طابع الإسلام الذى ليس ديناً فحسب ، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع ؛ ومن هنا كان هو فكر كل الأديان والثقافات والأمم والشعوب التى عاشت تحت اسم العالم الإسلامى وما تزال تعيش — من مسيحيين ويهود ، من فرس وترك وأفغان وهنود وجاويين وغيرهم . ومن هنا لا ينطبق على الإسلام ما ينطبق الأديان الأخرى التى تعرف فى الفكر الغربى باسم « اللاهوت » أو مجموعة الطقوس والعبادات ... وتتمثل فيها الأنظمة الكهنوتية ، والمقارنة هنا بين الدين والإسلام مقارنة بين الجزء والسكل ، فالإسلام يحمل فى كيانه جزئية هي « الدين » ولكنه إذا ورد اسمه « الإسلام » فليس يعنى الدين وحده وليس يمكن وضعه موضع المقارنة مع المسيحية أو اليهودية أو البوذية .

* * *

وإذا قيل الفكر العربى الإسلامى فليس ذلك يمنع أن يكون مكتوباً بالفارسية أو التركية أو الأوردية أو غيرها من اللغات المبثوثة فى العالم الإسلامى والتى بدأت متصلة باللغة العربية أو مكتوبة بحروفها أساساً ، فإن جوهر هذا الفكر هو أساساً « عربى إسلامى » بتفاهيمه ومقوماته التى تتمثل فى امتزاج الروحية والمادية أساساً « وهذا هو ما يكشف عن طابعه المتميز عن الفكر الشرق والغربى على السواء .

ولعل أبرز الأزمات التى مرت بالعالم الإسلامى إنما جاءت من الفصل بين هذه القوى التلاقية المترجمة فى كيانه ، فإذا غلبت المادة تقلصت الروح ، وإذا امتد العقل تقلص

الضمير ، أو العكس ، فهنا يقع الاضطراب الذى يبعث على التخلف ، والهزيمة .

ولقد كان جوهر فكرنا المتمثل فى الروحية والمادية ممتزجتين هو سر الأسرار فى كل ما عرف عن الفكر العربى الإسلامى من تجدد واتساع وآفاقه على نحو بهر الباحثين والمؤرخين ، حيث لم تبلغ حضارة من الحضارات ما بلغه فى التوسع فى زمن قليل لا تريد عن قرن من الزمان .

كذلك كان لجوهر فكرنا الأثر الواضح فى البقاء والحياة والاستمرار بالرغم من اضطراب الدولة وسقوطها تحت سلطان الغزاة : التتار والصليبيين والاستمرار الحديث .

فهذه النظرة الكاملة الشاملة للمادى والمعنوى معا ، هى سر القوة والحياة ، ومنها يصدر ذلك الروح الواضح من القدرة على المقاومة والتحدى للغزاة ومنها تتمثل الملامح الاستقلالية الذاتية التى تطبع الأمة بطابع لا يمكن أن يندمج أو يذوب أو يضعف فى غمار المذاهب والنظريات التى يحملها الفكر البشرى من الشرق أو الغرب .

ومن هنا كان إصرار النفوذ الغربى على غزو هذا الفكر للقضاء على طابعه الأساسى فى امتزاج الروحية والمادية المتزوجة فيه بطابع الفكر الغربى « المادى الخالص » ومن هنا نشأ الصراع بين الفكر العربى الإسلامى وبين دعوات التغريب التى تحاول أن تحل مفاهيم غربية لقيمه الأساسية أو تحل قبا غربية مكان القيم التى يحملها الفكر العربى الإسلامى .

ولعل أخطر ما حمل عليه الفكر العربى الإسلامى هو « جزئية النظرة » لتحل محل النظرة الكلية الشاملة التى هى طابعه الأصلى ، والتى تحول دون تجزئة الأحكام بين النفس والاجتماع أو بين الدين والتربية أو بين الأدب الخلق على النحو الذى يتمثل فى النظرة الغربية .
فالفكر العربى الإسلامى يؤمن بقاعدة الأساس المتزج من الروح والمادة والتوازن المتسق بين العقل والروح ، فحيثما توقف إشعاع الروح تجمد إشعاع العقل .

ولا يوجد قطاع من الفكر العربى الإسلامى يمكن فهمه لو أخذ بمفرده وعزل عن

القطاعات الأخرى ، وأى جزئية لا يمكن فهمها وتفسيرها إلا إذا درست متصلة اتصالاً وثيقاً بالأجزاء الأخرى ، ذلك أن بناء الفكر العربى الإسلامى يقوم على رابطة أساسية تمثل الهدف وهو بناء « الإنسان » فلا بد من الترابط بين الجوانب المختلفة ، فى أى قضية فنحن لا نستطيع أن ندرس الأدب دون أخلاقيته ، ولا ندرس التربية منفصلة عن روح الدين ، ولا نحل مشكلة ما دون تقدير جوانبها الاجتماعية والنفسية والروحية والعقلية فى وقت واحد . وهنا يبرز جوهر الفكر العربى الإسلامى الذى يمزج فى تفاعل بين القيم الروحية والمادية ولا يفصل إحداها عن الأخرى .

أبرز مقومات الفكر العربي الإسلامي أنه يمثل الإنسان كائنا حيا محبا للحياة يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرفته كأنه يموت غدا ، في ظل من الأخوة والمحبة ، مع إيمان بالله وإيمان بسيادة الإنسان على الكون تحت ظل الله بوصفه صاحب الخلافة في الأرض .
وتتلاقى في الفكر العربي الإسلامي : الماطفة والعقل ، الروح والمادة ، العلم والدين ، الفكر والشعور ، النفس والجسم ثم يظهر طابع الأخلاقية العليا وانحيا في الاتجاه نحو الإنسانية والمجموع أكثر من الاتجاه نحو الفردية والذاتية والتضحية بالنفس في سبيل الكل ، ومقاومة الغاصب وجهاد المعتدى ، ممر زهاده فيما ليس ملكا له أو حق وتقدير للشرف والفضيلة والصدقة . واستعداد للوجود بما يملك ، وإقامة العدل الاجتماعى وإقامة بنيان المجتمع على أساس التضامن والمساواة .

وجوهر الفكر العربي الإسلامي يجمع بين المحافظة والانطلاق ، والتحليل والتأليف ، والنثال والواقع والبساطة والوضوح . يحب القصد « لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » . ينظر في كل شئ بفكر مفتوح وبغير عقيدة مسبقة وببنده ولا يراه مقدسا فوق النقد ، لا تقوم نظرفته إلا على الاقتناع العقلي مع لإيمان الروحي .
يمزج بين القيمة والمصلحة . له قدرة كاملة على الحركة ومع الحيوية له القدرة على الامتصاص مع سعة في الأفق ، واعتدال الملكات فيه البساطة مع المرونة ، وله القدرة على الأخذ والعطاء ، والقدرة على التأقلم ، يربط بين الماضى والحاضر ، آفاقه مفتوحة على انثقافات والحضارات والمذاهب ، يرى الحكمة ضالته أنى وحدها ، ويرى الموت فى الحق هو عين البقاء « قادر أن يقول لا إذاسيم الخسف ، الإنسان عنده ليس إمة يجرى مع التيار ، ولكنه قادر دائما على أن يقول أحسنت وأسأت ثم هو يجمع بين الحق والعدل والخير .

ويتمثل جوهر الفكر العربى الإسلامى فى الاستعلاء على فوارق الجنس واللون والمعنصر ، مع الإيمان بالعلم والبحث « طالب العلم فريضة » ، أطابو العلم « من الهدى إلى الهدى ، يتصل بالثقافات اتصالا حرا لا يحده قيود إلا الحفاظ على مقوماته وشخصيته . يؤمن بالحركة على الأساس الثابت لا يقر العبودية الفكرية ولا التبعية ، تخرج فيها الإنسانية بالإقليمية .

وبتمثل طابع الفكر العربى الإسلامى فى حرية العقل وسعة الأفق ، واعتبار التاريخ مرآة واللغة أساس ، مع القدرة على الهضم والتمثل والامتصاص ، فى ظل الفناء للملكات واعتدالها ودون تعارضها ومع التعاون على البر والحق ، والوفاء بالعهد والإنسان سيد الكون تحت حكم الله ؛ وسيادته ليست سيادة مادية ، بل سيادة القيم الإنسانية من العدل الحرية إلى الإخاء والمساواة . والانسجام بين الفرد والمجتمع ورقى النفس عنده يجرى مع الرقى المادى . وفى مجال العلم قوامه الإيمان بالتجربة « قل هاتوا برهانكم » حيث يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ؛ وفى كل نظرة : الاعتدال . الخلق . الكرامة . العفة ، العرض ، الشرف ، الشورى . لإسراف ، لانهراف ، لاتعصب ، لاتفرقة عنصرية . لاتفنى شخصية المرأة فى شخصية الرجل ، لايقدم الرجل المرأة كالرقيق لمتعته وفائدته المادية . التكامل والتكافل والزكاة والعدل فى الاقتصاد والاجتماع . وضوح سلطان العقل على البدن والفرائز ، المتزلة الوسطى ، لاعتقوبه بلامسئولية ، الإخاء والمجد والسلام ، لاشئ يفرض بالقوة ولكن بالاقناع والبرهان .

وهكذا يقدم الفكر العربى الإسلامى نظرة كاملة للحياة والإنسان على أساس الالتقاء والامتزاج بين التهن والقلب والروح والمادة ، فالفكر العربى الإسلامى لا يحتقر الحياة ولا الأمور المادية ، ولا يذهب مغربا إلى الروحية والغيبيات . وهو يدعو إلى الاتصال بالحياة والارتباط بها والتفاعل معها دون أن يتجاوز حدا القصد والاعتدال . وفق مثل أعلى رفيع . مع استملاء على النفعية والرهبانية على السواء ، يقيم أحكامه على أساس العقل والعدل . ويوفق بين الاتجاهات المتقابلة ويجمع بين الدنيا والدين . على أساس الزهد فى مجال الثراء والإباء فى مجال الفقر ، فى انسجام والتقاء متكامل .

هذه لمحة من المقومات التى تكون « قاعدة الأساس » فى بناء الفكر العربى الإسلامى المتفتح القابل للالتقاء بالفكر الإنسانى فى مختلف مذاهبه وأفكاره ونظرياته ، القادر على أن يأخذ منها ويدع ، ويجرى فى مجال الحياة والتطور دون أن يتوقف أو يجمد ، وهذا عندى سر بقاء واستمراره حيا متفاعلا بالرغم من سقوط الدولة التى كانت تحمل اسمه . ومن هذه النظرة يتكشف لنا أنه من العسير جداً أن يذوب الفكر العربى الإسلامى فى الفكر الغربى أو الشرقى أو يتخلى عن أساسه الأصيل ، وهو امتزاج الروحية بالمادية ، هذا الأساس الذى تقوم عليه النظرة الشاملة فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة والدين والفكر والنفس والتربية .

معطيات الفكر العربي الإسلامي

استطاع الفكر العربي الإسلامي أن يقدم للفكر العالمي والحضارة الإنسانية الخطوط العريضة والثقافة والعلم والفن ، بعد أن تبلورت في بوقته عصارات الثقافات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، وأن يخلق من هذا المعطيات المضافة إلى أصوله الأساسية فكراً واضح القومات والقيم .

ولم يكن الفكر العربي الإسلامي ناقلاً أو مترجماً فحسب ، بل ومبدعاً وبانياً وفي خلال هذه المرحلة التي تسلم الفكر العربي الإسلامي فيها أمانة الحضارة ، فاستطاع أن يضيف كثيراً من الثمرات وأن يبدع الجديد أيضاً ، وكانت أبرز معطياتنا هي طبع الحضارة بطابع سيادة الخلق ومبادئ الشرف ومعاني العدل والإخاء والتكافل الاجتماعي . وكان الرقي في نظرنا هو تغلب الإنسان على المادة وعلى أهوائه في نفس الوقت .

ولعل أبرز ما أعطى الفكر العربي الإسلامي للحضارة الحديثة « المنهج العلمي » فالعرب المسلمون هم أول من وضع قواعده وأأسسه ، وطبقوها تطبيقاً كاملاً على كل ما اتصل بهم من قضايا الفكر . وقد كان الإسلام في أسسه الأولى والقرآن في مطالع آياته قد دعا إلى « البرهان » في كل قضية ، ومن هنا نشأ في مجال الفكر العربي الإسلامي ما يسمى بالبحث عن الدليل ، مع النهي عن التقليد ، وتحرير النص بعد مراجعته ومطابقته للعقل مع إقرار مصدره .

وقد وصل الفكر العربي الإسلامي في ذلك إلى غايته نضوجاً وقوة فحينما ترجمت آثار اليونان والإغريق لم يأخذها المفكرون العرب والمسلمون قضايا مسلماً بها ولسكنهم ناقشوها وراجعوها ، وقبلوا منها ورفضوا . فابن سينا يخالف أرسطو وأفلاطون وغيرها في كثير من النظريات والآراء فلا يتقيد بها ، بل يأخذ منها ما يقتنع به ويوافق مزاجه الفكري . ويزيد عليه . وعنده أن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس ، ولذلك فهو لا يتقيد بآراء من سبقوه بل يبحث فيها ويدرسها ويعرضها على المنطق والعقل ، وعبارته مشهورة

حيث يقول « حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا » .

وابن رشد يعضي في طريق البحث العلمي خطوات أشد عمقا واتساعا، فيدعوا إلى النظر فيما قدمته الأمم وفق شرائط البرهان، فإما كان منها موافقا للحق قبلنا منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

وابن الهيثم والبيروني يصلان في هذا إلى المدى^(١) البعيد ، ويضع القاضي عياض « علم المصطلح في الحديث » متجريا الدقة في التفسير والاستنتاج وقد سار « النظام » في بحوثه على أساس الشك والتجربة، فاعتبر الشك أساسا للنجاح، وأشار إلى ذلك أبي هاشم البصري والجاحظ ودعا جابر بن حيان إلى إجراء التجربة، وقال أن المعرفة لا تحصل إلا بها، وللجاحظ وابن حزم نظرات في هذا المجال تستطيع بالإضافة إلى ما سبق أن تكون في مجموعها أسس البحث العلمي كما عرفه الفكر العربي الإسلامي على نحو تطبيق لا نظري، قوامه : الاستقراء والقياس والتمثيل . مع قصر البحث العلمي على الشاهدة والتجربة وجمع المشاهدات ونتائج التجارب وربطها وتبويبها . ثم ربط الحقائق المستخلصة منها على النحو الذي يجعلها قانونا طبيعيا أو نظرية علمية ثم استنباط النتائج التي تقضي إليها وبحيث صحة تلك النتائج ومطابقتها للواقع . وقد نضج هذا المنهج على يد ابن الهيثم (١٠٣٩ م وسبق به فرنسيس باكون ١٦٢٦ م ويرى قدرى طوقان ومصطفى نظيف وغيرهم من العلماء المعاصرين أن ابن الهيثم لم يسبق بكونه فحسب ، ولكنه ساء عليه فقد كان أوسم منه أفقا وأعمق تفكيرا .

وقد أشار إلى ذلك منتصف من الغرب هو الأستاذ بريغول الذي قال « إن ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي . وقال بريغول أن روجر بيكون قد نقل مذهب العرب في البحث العلمي بعد أن درس .

(١) راجع فصل البحث العلمي في الفكر العربي الإسلامي .

اللغة العربية والعلوم العربية الإسلامية في مدرسة أ كسفورد على خلفاء معلميه في الأندلس ،
وليس لروجر بيكون ولا لسميه فرنسيس سيكون الذى جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما
الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج
الإسلامي إلى أوروبا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه اللغة العربية
وعلوم العرب بوصفها الطريق الوحيد لمعرفة الحق » .

* * *

ومن عشرات الشهادات النصفة يتبين أن الفكر العربي الإسلامي كان مبدعا؛ شهد بذلك :
لاروم لان دو . ليبرى . كاجورى . هوى لين . جول لا بوم ، ولیم أوسار ، سارطون ، ما كس
مايرهوف . برنارد لويس ، درابر ، بريفو ، ديلاس أوليرى . سيديو . لويجي رينالدى .
دولامبر ، جوستاف لوبون « هؤلاء جميعا شهدوا بفضل الفكر العربي الإسلامي
على علوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والكيمياء والنبات والآداب والفنون
والفلسفة والموسيقى .

وملخص شهاداتهم: (١) أن العرب المسلمين عرفوا التشريح ومارسوه (٢) الأطباء العرب
المسلمون في القرن العاشر يعملوا تشريح الجثث في قاعات مدرجة خصصت لذلك في جامعة
صقلية (٣) ابن النفيس الدمشق المصرى اكتشف الدورة الدموية ونقلها (هارفى) (٤) الكشف
العرب والمسلمون اكتشفوا أمريكا عام ١١٠٠م قبل كولبس ١٤٩٢م .

(٥) الفكر العربي الإسلامي لم ينسخ من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخا ولكن رجاله
جمعوا بين المصدرين ثم فتحوا الآراء اليونانية والآراء الهندية (٦) علم الضوء أسدوا إليه عظمة
الابتكار ، وكذلك علم الثلاث (٧) الفكر العربي الإسلامي علم العرب أن يضعوا العقل أولا (٨)
اكتشفوا وجود المدوى وطبيعتها لأمرض الجدرى والطاعون والكوليرا .

(٩) حتى أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا لا تزال تناقش في جامعة مونيخ
بفرنسا ، وقد عاشت جامعات الغرب خمسمائة سنة تكتب للعرب خاصة ، (١٠) أن العرب هم الذين

مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق وهم الذين علموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين (١٠) عد (لكرك) في تاريخ الطب العربي ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب من الفكر العربي الاسلامي إلى اللاتينية.

(١١) اخترعوا الساعات الدقيقة والزوايا واكتشفوا قوانين نقل الأجسام (١٢) عرفوا تركيب النار اليونانية (١٣) أول من استخدم البوصلة في الملاحة (١٤) واكتشفوا الإبرة المغنطيسية (١٥) وضعوا أصول علم الجبر وحساب المثلثات (١٦) سجل ابن البيطار ١٤٠٠ عقاراً لم يعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقار والآلاف اكتشفها العرب (١٧) عللوا صعود الماء في العيون (١٨) بحثوا في الصوت وعللوا حدوث الصدى، والجذب في المغناطيس (١٩) ودرسوا نظرية النشوء والترقي وطبقوها على المواد غير العضوية والمعادن (٢٠) أنشأوا المراصد واخترعوا إلى الاسطرلابات الدقيقة ، وحسبوا طول السنة الشمسية . وصححوا أخطاء بطليموس (٢١) وضعوا أسس علم الكيمياء ومارسوا التقطير والترشيح (٢٢) فتت الأطباء العرب المسلمين لأول مرة الحصى في المثانة وسدوا الشرايين النازفة واستعملوا الرقود (المخدر) في العمليات الجراحية .

(٢٣) صححوا آراء بقراط وجالينوس في التشريح ووظائف الأعضاء (٢٤) عرفوا «الصفير» ولم يعرفه الغرب إلا في القرن الثاني عشر .

* * *

كما قدم الفكر العربي الإسلامي فلسفات الاجتماع وأصل الأنواع . فقد سبق (ابن مسكويه) دارون إلى نظريتي أصل الأنواع والتطور ، فقد ذكر ابن مسكويه في كتبه نشوء الحيوان من النبات ، وأن الإنسان ناشئ من آخر سلسلة البهائم « وأنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقي حتى رتبة أعلى من مراتب البشر » كما سبق ابن خلدون آدم سمث في نظرية قوانين الاجتماع .

وقد تأثر دانتى في قصته « الكوميديا الإلهية » بالعمرى في رسالة الغفران .

وسجل الفكر العربي الإسلامي أوليته في مجال كتابات المكشوفين التي عرفت

بالحروف البارز سجل ذلك على بن أحمد بن يوسف الآمدى فى مؤلفاته وذكره صلاح الدين الصندى فى كتابه نكت الهميان فى نكت العميان .

وسبق أبو بكر الطرطوشى فى التأليف عن سياسة الملوك الكتاب الإيطنالى (ميكافلى) وكتاب الطرطوشى (سراج الملوك) مصدر لكتاب (الأمير) وسابق له بخمسة قرون فقد اكتشف الباحثون أن معظم مواد كتاب الطرطوشى قد نسقت فى كتاب الأمير .

* * *

وكان للفكر العربى الإسلامى أوليته فى الموسيقى ، واعترف الدكتور هنرى فارمر فى بحثه عن تاريخ الموسيقى العربية (١٩٦٤) بفضل العرب المسلمين على نظرية الموسيقى العربية وأن ابن سينا والفارابى وغيرهم من علماء المسلمين قد زادوا على الموسيقى اليونانية وأدخلوا تحسينات واضحة ، وأثبت أن العرب أجادوا فى بحوث التمجوت الكرى للصوت . وأن العرب أضافوا آلات جديدة ، وابتكر الفارابى الآلة المعروفة بالقانون وهو أول من ركبها هذا التركيب الذى لا تزال عليه حتى الآن . ويرجع فارمر أن الكندى أول من كتب نظرية الموسيقى ، ويذهب إلى نفس الحقيقة الدكتور آدموندو كورايالوبس فيقول إن الموسيقى العربية هى أم الموسيقى الأسبانية . وإن أسبانيا هى أم الموسيقى العالمية . وأعلن المستشرق خوليان ريباراً أن موسيقى القرون الوسطى ترجع إلى أصل عربى .

* * *

والواقع أن هذه الحقائق تكفى للرد على الاتهامات التى وجهت للفكر العربى الإسلامى بأنه تراث Legacy ولا شك أن كلمة «التراث» تعنى ما تخلفه الحضارات البائدة والثقافات المنقرضة ، وقد يطبق ذلك على تراث الاغريق والرومان والفراعنة « لأن مدنيتها هذه الشعوب ولغاتها قد انتهت ، أما الفكر العربى الإسلامى فما زال حيا باقيا وقد اتصل بالثقافات المختلفة اتصلا حراً ، لم يقيد به تقوذاً ولم يفرض عليه اختيار ، فامتص واقتبس ما ناسب مقوماته الأساسية . ثم خطا به خطوات « وابتدع فنونا جديدة » ولقد كان هدف الفكر العربى الإسلامى أساساً هو تحرر الإنسانية من الوثنيات وكان طابعه التقدم

في مجال العلم مع سيادة الخلق والعدل والحق وفق قاعدة تكريم الإنسان ورفع قدره .
وعلى نحو لا يجعله عبداً للمادة فظل هو المسيطر عليها .

والواقع أننا في حاجة إلى أن نفهم مدى دورنا وقوة معطياتنا للحضارة الإنسانية
والثقافة والفكر العالمي . وسنجد أن أوليات الفكر الإنساني وبذور العلوم والثقافات
قد بدأت في حضارة فكرنا فإذا هي عادت إلينا اليوم فإنما ذلك حق في دورة التاريخ .
وقد شاركنا أساساً في إبداءها والإضافة إليها .

* * *

ولقد حاول كثير من الباحثين إنكار مرحلة الحضارة العربية الإسلامية وردد القول
بأن (الحضارة الرومانية) انتهت في القرن الرابع الميلادي وأن (الحضارة الفريية) بدأت
في القرن الرابع عشر وأن فترة الألف عام في عمر الإنسانية كانت فترة القرون الوسطى
المظلمة (٤٧٦ - ١٤٥٣) والواقع أن هذه الفترة كانت فترة ظلام وركود وانحطاط
بالنسبة لأوروبا والغرب وحده ، أما بالنسبة للعالم العربي الإسلامي فقد كانت فترة بقلطة
وضياء لأجلده ، فقد ظهر الإسلام في هذه الفترة واتسع نطاق اليقلطة وامتد حتى بلغ
الصين شرقاً والأندلس غرباً وزحف على أوروبا نفسها وكاد أن يطوقها .

وقد اعترف الباحثون المصنفون : جوستاف لوبون ، لويجي رينالدي ، رنس دافن ،
سينديو ؛ بأن الفكر العربي الإسلامي قام كالنار المضيء في القرون الوسطى الأوروبية فأعاد
نور الحضارة والمدنية .

يقول لوبون « كان تأثير الإسلام والعرب في الغرب عظيماً ، وإلهم يرجع الفضل
في حضارة أوروبا ، فإذا ما زجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد يوم كانت المدينة
الإسلامية في أسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد الغرب
كانت عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بأنهم أميون ، لا يقرأون
ولا يكتبون وكانت الطبقة العامة المستنيرة عبارة عن رهبان فقراء جهلة يقضون الوقت
بالتكسب في ديارهم بنسخ كتب القدماء .

وطال عهد الجهالة في أوروبا ولم يبد منها بعض الميل للعلم إلا في القرن الحادي عشر .

عند ما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة إلى نقض كفن الجهل الثقيل ، فطرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العصر ، وما عرفت القرون الوسطى للمدينة إلا بعد أن مرت من لسان أتباع محمد ، وإلى العرب وإلى العرب وجدهم لا إلى رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى اللغة اليونانية يرجع الفضل في معرفة الأقدمين والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإتقاذهم هذا السكز الثمين .

* * *

وقد أشار الأستاذ ما كيبيل في كتاب (تراث الإسلام) إلى أن أوروبا مدينة للفكر العربي الإسلامي بزعمتها المجازية الحماسية Romance وقال : إننا مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والخيال للعالم الذي كانت تحكمه روما ، وقال إن القصة الأوربية في نشأتها قد تأثرت بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى وهي المقامات ومغامرات الفرسان ويرى كثير من النقاد الأوربيين أن رحلات جيلفر التي ألفها سويفت ورحلة روبنسون كروزو التي ألفها ديفوي مدينة لألف ليلة وليلة ورسالة حي بن يقظان .

وقد أشار برتراند رسل في شأن مقام الفكر العربي الإسلامي من العلم إلى « أن العرب كانوا أميل إلى التجريب من الإغريق وخاصة في الكيمياء » .

* * *

وإذا كان كتاب « التفرغيب » الذين يحملون لواء الخصومة الجاحدة للفكر العربي الإسلامي قد هاجموا معطيات هذا الفكر فإن الانصاف قد وجد طريقه إلى أقلام كثير من الباحثين الغربيين الذين حاولوا أن يقولوا كلمة الحق . وفي مقدمة هؤلاء الكاتبة الدكتورة سيجردهونكه في كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) .

ولعل أبرز ما تنبأت إليه الكاتبة المصنفة تصوير مدى الفوارق العميقة بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي تقول :

« إنه لمن السخف أن تعيش العبقريّة العربيّة الإسلاميّة على مقياس العبقريّة الإغريقيّة وتلومها لافتقارها إلى التعليل الفلسفي للكون . إن لكل عبقريّة طابعها الخاص وطريقها الخاصة ، وأن مأثرة الفكر العربي الإسلامي الخالدة لتقوم في تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم الخائفون الحقيقيون للاستقصاء العلمي ، فقد كانوا أول من جمل من الوقائع الموزولة عن منها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام أو من الطريقة الاستقرائية إلى الطريقة العلمية الأساسية .

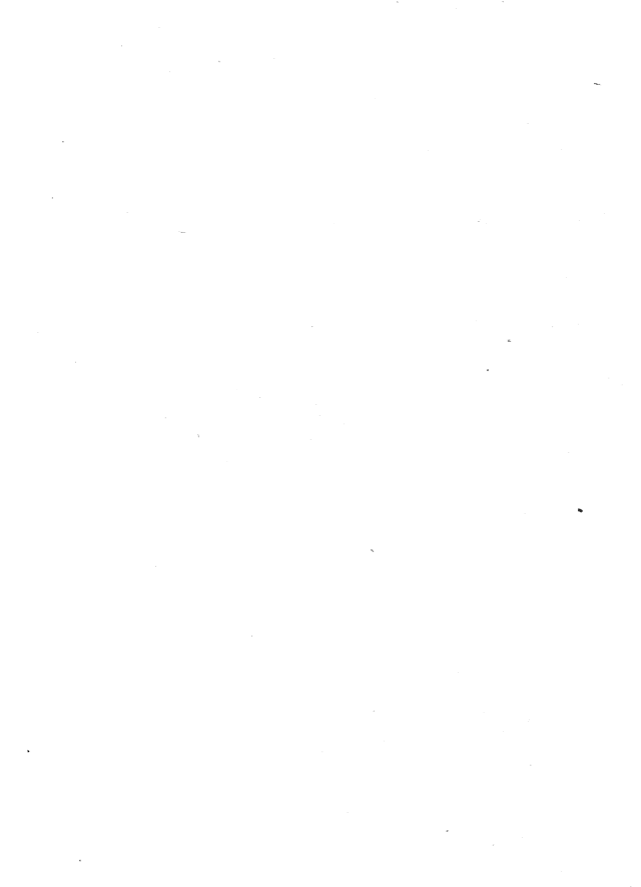
إن المنجزات التي حققها زواد العلم العربي على أساس المشاهدة والتجربة سوف تحدد الحركة الأولى لتحرر الفكر العربي عن طريق روجر بيكون وألبير الكبير وليوناردو دى فنسي وغاليوس . . » .

ويقول : لشد ما ينبغي حقهم حين يكتبون بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم العربي بعد ما حفظوه من الدمار ، فذلك يعنى في الواقع التقليل من قيمتهم والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضارى وجملهم مجرد وسطاء ليس غير . والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الغرب مدموغة بآثارهم .

الكتاب الثاني

الفكر الغربي

مقوماته ومعطياته



مقومات الفكر الغربى

من المعتقد أن « الحضارة » غير « الفكر » وأن الحضارة ملك مشاع للإنسانية من حق كل الشعوب والأمم أن تأخذ منها ما تشاء . فهى متصلة بالحياة والاختراعات والآلات والعلوم التجريبية .

أما « الفكر » فيختلف عن ذلك ، ويرتبط أساساً بالنفس الإنسانية فى ميولها وقيمها ومفاهيمها الروحية والاجتماعية والمقائدية . ولذلك فليس من السهل أن ينقل كالحضارة . وإن كان من الحقائق المقررة أن الثقافات الحية تكون مفتوحة دائماً على الثقافات الإنسانية تأخذ منها وتعطى على قدر ما تمدها بالقوة والحيوية والتطور . وتجعلها مضطردة النمو والاستمرار مع موكب الحياة الذى لا يتوقف . ولكل فكر « مقوماته الأساسية » التى لا تتحول عنها ، هذه المقومات التى امتدت من القرون الطويلة وتكونت نتيجة للذوق والضمير والبصيرة والروح الأصيلة للأمة أو القوم . ولقد تأكد بصورة قاطعة أن هناك ثلاث ثقافات أساسية فى العالم الحديث تبدو كل منها ولها طابعها الواضح الصريح .

× الثقافة الغربية (بشرطها المادى والماركسى) .

× الثقافة الشرقية .

× الثقافة العربية الإسلامية .

وفى تفريق شامل أساسى يتبين : أن الثقافة الغربية أساسها مادى خالص ، وأن الثقافة الشرقية أساسها روحى خالص ، وأن الثقافة العربية الإسلامية أساسها مزيج متفاعل من المادة والروح . ومن هنا يتبين مدى اختلاف وجهات النظر فى المقومات الأساسية للفوارق بين الثقافات الثلاث .

وإذا كان هناك مصدر لهذه الثقافة أساساً فهى الأديان والمعتقدات وتراث الأدب والفن والفلسفة ، أما الثقافة العربية الإسلامية فقد قامت أساساً على مفاهيم الإسلام بوصفه ديناً

وثقافة ونظام حياة كما قامت الثقافة الغربية على مزيج من المسيحية الشرقية والوثنية الاغريقية والعلم الحديث . أما الثقافة الشرقية فقد قامت على أساس مفاهيم الدينين الكبيرين: البوذية والكنفوشيوسية .

ويمكن القول بأن الثقافة الغربية تتمثل في أوروبا وأمريكا وأن الثقافة الشرقية تتمثل فيما يطلق عليه الشرق الأقصى وهي الأجزاء غير الاسلامية والغربية من آسيا .

وأن الفكر العربى الاسلامى يتمثل فى المنطقة الوسطى التى تتكلم اللغة العربية (العالم العربى) أو التى تدين بالاسلام (العالم الاسلامى) .

* * *

وعندما تنمقد المقارنة بين الثقافتين العربية والغربية يتبين مدى الاختلاف الجذرى بينهما بحيث لا يمكن التقائهما فى أساس . وإنما يمكن تبادل الامتصاص أو الاقتباس بين الثقافتين من جوانبهما المختلفة وبالنسبة للثقافة العربية يمكن نقل أساليب الفكر الغربى ومناهجها للاتفاع بها فى تجديد عرض جوانب هذه الثقافة واغنائها وإعطائها قوة جديدة على الحياة والحركة والتطور دون أن يؤثر ذلك فى مقوماتها الأساسية .

والفكر الغربى يقوم أساساً على الوثنية الاغريقية + المسيحية، وفى ظل النظرة المادية التى قدمتها النظرية الرومانية ومن عصاره هذا المزيج أقام الفكر الغربى أساس نظريته إلى الله والحياة والانسان وأساس حضارته وطابعها .

* * *

(أولا) الوثنية الاغريقية .

(ثانيا) النظرة الرومانية التى تتمثل فى إن كل ما غير روما فهو أرض العبيد .

(ثالثا) المسيحية الوافدة من الشرق .

١ - الوثنية الإغريقية

هي أحد الدعائم الثلاث التي يقوم على الفكر الغربي . وتمثل في التراث الإغريقي الذي يصور العقالية الهلينية الحرة المنطلقة التي تتميز بأسس واضحة هي : (١) تعدد الآلهة (٢) صراع الانسان مع الآلهة والطبيعة (٣) حرية الفريضة والجنس (٤) تقديس الجسد (٥) غلبة النزعة الأسطورية (٦) تأليه العقل .

وقد صور دعاة الفكر الغربي مفهوم الوثنية الإغريقية مبنيا مدى الخلاف الجذري بينها وبين فكر الشرق الاسلامي . فقال « أول عنصر من عناصر القوة في حضارتهم إنهم لم يكونوا يوما عبيدا للتقليد . لم تكبلهم الطقوس والمعادن ، آلهتهم تسرح وتمرح على جبال أولمبوس وتصرف تصرف البشر . كانوا يحبون ويكرهون ويخطبون نساء بعضهم بعضا ، كانت آلهة اليونان أناسا ولكن جبابرة ، لم يستولى على خاصة الإغريق خوف ولا رهبة . ولا جود أمام الآلهة . لم يشعر اليوناني أمام ربه أنه عبد ذليل بحاجة إلى الرحمة والشفقة ، بل ظل سيد نفسه متفطرأ ، موقنا أنه سيد الأرض ، لم ترق الكون قوة لسحقه ، إجلال العقل وإحلاله مرتبة مقدسة ، لم يرض بالأسطورة والخرافة تعليلا لمظاهر الكون وأسراة بل حاول أن يجدوا لها تعليلا عن طريق العقل والمنطق في ظاهرة تأليه العقل وهم بذلك يختلفون عن الشعوب السامية التي أحلت « الأيمان » المحل الأول . وإذا كان هم السامي إمانته الجسد والانصراف إلى الروح الخالدة وكان هم عالم بمد الموت والإعراض عن الدنيا فإن الإغريق قدس الجسد وجمالة ، وكان انصرافه إلى الحياة الدنيا بالدرجة الأولى فكان عنده الفناء والرقص والشعر والتثيل والتصوير والنحت ، وهي التي أعرض عنها السامي إعراضا كليا على أنها من مطالب الجسد ^(١) » .

* * *

ومن دراسات متعددة للتراث الإغريقي يبدو أن هناك خطان أساسيان : (الأول) العداء

بين الآلهة والبشر وانتقام الآلهة ، وصراع الإنسان مع الآلهة ومحاولة الانتصار عليها (الثانى) عبادة الإنسان وقداسته وإعلاء جانب الماديات والجنس والفراز وإهدار جانب الروح ، وتكشف هذه النظرة عن المخالفة الواضحة للخلاف بين الفكر العربى الإسلامى وأسس الوثنية اليونانية فى نظرتها إلى الآلهة والكون والإنسان .

ومن هنا تبدو النظرة الإغريقية - وبالتالى النظرة الغربية - ناقصة جزئية بينما تبدو النظرة العربية الإسلامية شاملة .

فليس فى النظرة الإسلامية إماتة الجسد والانصراف إلى الروح أو عالم ما بعد الموت أو الاعراض عن الدنيا كلية ، وربما كانت هذه نظرة الفلسفة الشرقية أو الفكر الشرقى . أما نظرة الفكر العربى الإسلامى فهى جماع الروح والجسد والعقل والقلب ، وهى لا تنصرف عن الحياة ولكنها لا تسرف فى الاندفاع وراء الفرائز ، وهى تؤمن بالله والموت والنيب ولكن ذلك لا يصرفها عن الحركة والتطور والعمل فى الدنيا والابداع ، وتجربتها فى ذلك معروفة وواضحة وليست فى حاجة إلى الدفاع عنها ، فقد استطاع الفكر العربى الإسلامى أن ينشئ حضارة وثقافة لها فاعليتها وحيويتها وأوليائها فى عالم الفلسفة والعلوم التجريبية والموسيقى والطب والفلك دون أن تتخلى عن إيمانها بالله وكانت ولا تزال متفتحة على الثقافات الانسانية ، ترجمت فى عصر ازدهارها فكر اليونان والرومان ونقدته وأضافت إليه واعترضت على بعض جوانبه التى لا تتفق مع منطق فكرها ومقوماتها ونحته وامتنعت عصابات الفكر المسيحى والهندي والفارسى جميعا وأساغته وبلورته فى بوتقة شخصيتها فامتد به كيائها وتوسع ، وهى فى هذا العصر لا تتوقف عن الامتصاص من عصارة الفكر الانسانى ما يزيد بها قوة وحياة ، وسوف تظل قادرة على الأخذ منه بحرية مهما كانت ظروف الضغط التى يقوم بها الغزو الفكرى أو التغريب أو الشعوبية لملها على الدوبان فيه والتحول عن طابعها وكيانها إليه تحولا كاملا .

ولقد كانت الثقافة العربية الإسلامية قادرة دائما على أن تأخذ وتدع وتمطى فى أصالة دون أن تتحول أو تذوب أو تتنازل عن قيمها الأساسية ودون أن تكون تابعة أو مقودة . وقد أولى الفكر العربى الحديث ولاءاً وتبعية وارتباطا مع التراث اليونانى لاحد له بالرغم من فواصل الزمن وتحول المفاهيم ، بينما عارض رجاله ذلك بالنسبة للفكر العربى المعاصر فى ارتباطه بمقوماته الأساسية .

٢ - النزعة الرومانية

تتمثل نظرة الحضارة الرومانية في قاعدة أساسية هي : « كل من عدا الرومان برابرة »
وهي نفس النظرة التي اتخذتها الحضارة الحديثة . فالعدل والحرية والمساواة للرومان فقط
أما غيرهم فبيد ولا تنطبق عليهم أى قواعد العدل . وقد استمد هذا الاتجاه «مونتسكيو»
في كتابه «روح» القوانين فقال : إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزوج
عبيداً فإنى أقول أن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بدا من أن تستعبد
شعوب أفريقيا كي تستخدمها في استغلال هذه الأقطار الفسيحة والشعوب المذكورة ما هي
إلا جماعات سوداء البشرة ، ولا يمكن للإنسان أن يتصور أن الله « وهو ذو الحكمة
السامية قد خلق روحاً طيبة في داخل جسم حالك السواد » .

هذه النظرة الأساسية في الحضارة الرومانية ، وقد ورثتها الحضارة الغربية الحديثة
واتخذتها قاعدة لها في عملية الاستعمار الضخمة التي قامت عليها النهضة ، تختلف اختلافاً
واضحاً وجذرياً مع مقومات الفكر العربى الاسلامى الذى لا يرى فوارق بين السود
والبيض ، وإن أكرم الناس هو أنفاهم وإن تميزهم إنما يكون بالأعمال والقدرات وموازين
الأخلاق والقيم لا بالألوان أو الأجناس ، ولذلك أنكر الفكر العربى الاسلامى النظرية
العنصرية وحاربها .

وإذا كانت الوثنية قد امتزجت بالمسيحية (كما يقول دريير في كتابه بين الدين والعلم)
فإنه نتيجة لذلك — وعلى حد قول دريير — قد نشأ دين جديد تتمزج فيه الوثنية بالنصرانية .
وعنده أن الامبراطور قسطنطين حاكم روما وأول نصير للمسيحية قد عمل على مزج الوثنية
بالمسيحية « لمصلحة الحزبين المتنافسين (النصرانى والوثنى) وذلك رجاء التأليف بينهما »
وأن المسيحية النثرية كانت تحكم بالقانون الرومانى ولم تستمد شريعتها من التوراة . وتتمثل
الصورة التي عرفها التاريخ كلها في فرض الكنيسة للضرائب الفادحة ، واحتجاز ملكوت
السماء لأوليائهم والتعذيب والحرق لكل دعاة العلم النظرى والتجربى أمثال جراردو
برونو وكوبرنيكوس وجاليلو ، والحق أن هذه الصورة ليست مستمدة من المسيحية الأصلية
ولكنها مستمدة من المفاهيم الرومانية .

فإذا أضيف إلى هذا مفاهيم النزعة الرومانية في الاغراق إيماناً بالمادة « وأعطاء اللذائذ
الجسدية غايتها ، وتضخيم عالم الحس ، وإراقة الدماء والقتل والتمثيل والتعذيب » تمثل مدى
ما ورثته الحضارة الغربية الحديثة من جذور الحضارة الرومانية .

٣ - المسيحية والغربية

تمثل « المسيحية » العنصر الثالث من عناصر الفكر الغربي ، فقد امتدت المسيحية السمحة التي كان مهبطها الشرق إلى أوروبا واستطاعت أن تحتل مكانا في الدولة الرومانية حين أعلن الأمبراطور « قسطنطين » اعتناقها فأصبحت دين الدولة الرسمي . وذلك بعد صراع طويل واجهت فيه المسيحية العسف والاضطهاد والاستشهاد .

غير أن الفكر الغربي لم يتقبل المسيحية كما جاءت من الشرق ، وكان للعقل الغربي بمكوناته الأصلية قدرة خارقة على امتصاصها وتحويلها إلى كيانه الوثني الأصيل ، ومن ثم امتزجت المسيحية بالوثنية الإغريقية فكان من هذا المزاج ما عرف من بعد باسم « المسيحية الغربية » . ثم لم يلبث الفكر الغربي أن واجه عصر النهضة وهنا تحول تحولات كثيرة غيرت مفاهيمه إزاء المسيحية بل إزاء الدين بصفة عامة . فقد كان تأثير الفكر الغربي بالفكر العربي الإسلامي في أوائل عصر النهضة عاملا من العوامل الضخمة التي أثرت فيه وحولته عن اتجاهه الأصلي .

كان لسريان الفكر العربي الإسلامي في دم الفكر الغربي أثره البعيد المدى في (١) قيام نهضة الإصلاح التي حمل لوائها لوثر وكلفن ومن بعدهما . فقد كانت المسيحية بالصورة التي عرفها الغرب مجموعة من الوسايا ، ويمكن القول بأنها كانت « نظاما روحيا وإرشادا خلقيا » دون أن يكون لها أساس واضح في التشريع والاقتصاد والسياسة كما تتمثل الإسلام « دين وحضارة ونظام مجتمع كامل » ، والسرف في هذا أن نظامها كان موجودا في اليهودية ، إذ العروف أن المسيحية جاءت بحمل الروح لمادية اليهودية . وطلعت لتكسر من حدة القسوة التي عرفتها اليهودية ، فجاءت المسيحية بحمل كلمات السلام والبر والخير والتسامح . ومن هنا كان وصف الغربيين لها بالسلبية والتسك والاتجاه إلى الآخرة دون الدنيا ، وقد هاجمها على هذا النحو أعلام الفكر الغربي أمثال : رينان ونييتشه وسفيترز .

وقد صاحب المسيحية أول ظهورها في الغرب الخلاف الطبيعي في الرأي واصطدمت بالتحليلات والتأويلات في مسائل الآلهة والروح ، مما كان لابد معه أن تؤسس كنيسة تصرف الرأي في أمر كل هذه المناقشات والمجادلات . غير أن هذه الكنيسة لم تلبث أن أصبحت هي أبرز ما في المسيحية الغربية ، وأصبح لها سلطانها القوي الضاغط الذي اخفت وراءه حقيقة المسيحية ، ثم ساد سلطان الكنيسة حتى أصبح عنيفا رهيبا على الفحو الذي تصوره كتب التاريخ .

ولم يقف هذا السلطان عند حد فرض الضرائب الفادحة وتأييد تقوذ الإقطاع ، بل أنه امتد إلى حد قتل حرية الرأي وإعدام كل من يقول برأى جديد يخالف رأى الكنيسة التي كانت تتمثل في سلطان الكهنوت كما حدث لجاليلو وغيره . ومن هنا كانت ثورة «لوتر» تستمد أسسها من مفاهيم الفكر الإسلامي العربي .

(٢) ظهور المدرسة « الرشدية » التي استمدت من ابن رشد مفاهيمه الحرة وفلسفته العربية الإسلامية التي هزت أركان العقيدة المسيحية والفكر الغربي كله ودفعته دفعة قوية إلى التحرر والانطلاق وكسر قيود الجمود الكنسي .

وبهذا يمكن القول دون أن يتجاوز ذلك نطاق البحث العلمى أنه قامت فى أوربا ما يطلق عليه « المسيحية الغربية » .

ولطالما واجه الباحثون الغربيون الماديون فكرة استيراد الغرب للمسيحية بازدراء عجيب كأنما عز على الفكر الغربى أن يلقح بأثر من آثار الفكر الشرقى الذى لم يولد فى غير بيئتهم . يقول إسماعيل أدهم أحمد (وهو مستشرق مسيحى روسى تركى الأصل) : قامت المدينة الرومانية على تراث الإغريق ، غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما وهبت عليها حاملة معها نزعات النطق الآسيوى « والروح الشرقية ، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها وتمثلتها . وكان فى هذا الابتلاع والامتصاص والتثليل بمض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية « ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للسكتير من التفسير ، مرنة بطبيعتها غير حاملة فى طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة ، لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائمه التى هبت بها على أوربا .

ولقد نضب معين مدينة رومية لموامل داخلية فهاجها البربر من الجرمان والصلقب والسلاف والهون ، وسقطت امبراطورية الرومان على ضفاف التتير ، فكانت عصور ظلام فى أوربا ، غير أن الشعوب البربرية التى ورثت امبراطورية الرومان احتفظت بالـكـير من نظم الرومان وعاداتهم وكان ذلك مقدمة للعهد الاقطاعى .

ثم طفت موجة العرب على الغرب غير أن الغربيين نجحوا فى وقف الموجة العربية عند تقاطع أمرها « وكان نجاح شارل مارتل على العرب على نهر اللوار كتجاح الاغريق على الفرس سببا فى إنقاذ العقليـة الغربية من روح النسك الآسيوية .

فى ذلك الوقت كانت العقليـة الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسى الذى قام بروما قريبا على النفوس والعقول ، محملا بكل سيناث روح النسك الآسيوية .

غير أن العقلية الجرمانية لم تر في رقابة روما وتسلط البابا إلا روحاً آسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربى فعملت الجهد على تقطيع أوصالها .

وبدأ عهد الإصلاح بالصراع بين الذهنية والجرمانية الخالصة ممثلة العقلية الأوروبية وبين العقلية البابوية التي تحمل في طياتها شيئاً من روح النسك الآسيوية . . . » .

ومعنى هذا الفهم للعلاقة بين المسيحية السمحة والغرب ، هو أن الفكر الغربى في استعماله بجوهره الوثنى المستمد من الفكر اليونانى والرومانى قد استطاع أن يقاوم المسيحية ولا يستسلم لها وحاول أن يحورها ويحولها إلى شىء آخر ، ثم لم يلبث أن تخلص من المسيحية نهائياً .

* * *

ومن هنا لم تكن المسيحية في الفكر الغربى هى المسيحية السمحة التي عرفها الشرق وإنما هى مسيحية أخرى صنعها العقل الأوروبى فكانت مزيجاً من الوثنية والمسيحية .

ثم لم تلبث أن صرت المسيحية الغربية بالمرحلة الدقيقة الخطيرة حين حمل عليها العلم التجريبي وأقصاها نهائياً من مجال الفكر الغربى حين وقفت في وجهه وحاربت مقدراته واكتشافاته ورأت في نور العلم ما يصرع سلطانها الكنسى وتقوذا القائم على استسلام العقل الغربى .

ومن نظرة الفكر الغربى للمسيحية التي قاومت العلم وحملت لواء الاستبداد وحت الإقطاع والأمراء وأثارت روح الإرهاب والتسلط ، كون نظرتها لا إلى المسيحية وحدها بل إلى « الدين » بصفة عامة .

ثم لم يلبث أن طبق هذه النظرة على الإسلام فكان ذلك مصدر خطأ الذى لا حد له . فليس الدين هو المسيحية وحدها وليس الإسلام دين فحسب ، وإنما هو دين وفكر وحضارة ونظام مجتمع .

وإذا قيل « الدين » فهو في منطق البحث العلمى ذلك الجانب الروحى الذى يتصل بالأنوهمية والتوحيد ويربط بين الإنسان وخالقه وقد كان هذا الجانب في مسيحية الغرب مضطرباً على النحو الذى تكون به حين أضاف روح الوثنية واستمد من أساطيرها .

أما الإسلام فإنه يجمع إلى جانب الدين الذى يمثل علاقة الإنسان بربه ، جوانب أخرى تتعلق بالعلاقات والروابط الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والدولية .

ومن هنا اختلف الفكر العربى الاسلامى فى جذوره ومقوماته وأسسهِ عن الفكر الغربى ، فقد أمدّه الاسلام بنظام كامل فى هذا المجال ، ورسم له إطاراً كاملاً لحياة مجتمع ومعاملاته فى مختلف جوانبه ، بينما لم يجد الفكر الغربى هذا فى المسيحية فكانت نظرتهُ إلى الاسلام على أنه دين نظرة قاصرة ، إذ أن الاسلام جمع بين جابيين : الجانب الروحى أو اللاهوتى وهو ما يطلق الغرب عليه كلمة «دين» والجانب الاجتماعى المتصل بالحياة والسياسة والفكر والأخلاق ، ومن مزيج هذين الجانبين قامت الثقافة العربية الاسلامية وأنشئت الحضارة العربية الاسلامية .

وعلى هذه الفوارق الجذرية يقوم جوهر الخلاف بين الفكر العربى الاسلامى والفكر الغربى عميقاً بعيد المدى ، ومن هنا يبدو ضلال القول الذى يقول «إن شأن الاسلام»^(١) فى الشرق شأن المسيحية فى الغرب لم يغير العقلية . وإذا كان هذا القول قد صدق بالنسبة للمسيحية فى الغرب فإنه لم يصدق بالنسبة للإسلام فى الشرق ، ذلك أن المسيحية كانت عند الغرب طابعاً روحياً وإرشاداً خلقياً ولم تكن نظام مجتمع متكامل فيه أساس التشريع والاقتصاد والسياسة كما فعل الإسلام .

* * *

غير أن الفكر الغربى فى تطوره بعد النهضة من العقلية إلى التجريبية وقد نحا المسيحية عنه وصرفها وانحلع عنها على ذلك النحو المروف ، ظل يحمل فى أعماقه الخصومة العميقة واليتمصب العنيف للفكر العربى الإسلامى .

لقد ثار الفكر الغربى على المسيحية وسيطرتها وتمسكها (على حد تعبير أنيس صايغ) ولكنه جعلها معقد الخصومة بينه وبين العالم الإسلامى . فكانت حملاته الضخمة على الإسلام وفكره ولغته وكتابه باعتبارها المقوم الأصيل الذى يعطى العالم الإسلامى قوة

(١) وردت هذه العبارة فى كتاب مستقبل الثقافة للدكتور طه حسين .

المقاومة للاستعمار الغربي ، فكان اندفاعه في القضاء على مقومات هذا الفكر عملاً رآه ممهداً أساسياً لبقاء سيطرته .

وقد تطورت هذه الحركة من التبشير إلى التغريب إلى دعوة الشموعية والغزو الثقافي في مراحل متعددة خلال أكثر من مائة عام ، ولكنها ظلت تحمل في أعماقها كلة جمال الدين الأفغانى التى ما زالت تدوى في آذان العالم الاسلامى كله منذ مائة عام :

« لم ترح الروح الصليبية كامنة في قلوب أهل أوربا حتى اليوم كما كانت كامنة في قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية (الغربية) لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها متغلغلاً في أحشائها وهى أبداً ناظرة إلى الاسلام نظرة العدا والحقد والتعصب المعقوت » .

وهذا يختلف اختلافاً جذرياً مع موقف الفكر الأسلاى من المسيحية وهو موقف التقدير والرباط الزمنى والإعتراف بها كمرحلة على طريق الإنسانية وإعزاز رسولها وتكريم معتنقيها والتآخى معهم .



وقد بدت هذه الروح في الحروب الصليبية، ثم ألقى اللورد اللبى ١٩١٨ فى فلسطين كلمته المدوية وقال : « الآن انتهت الحروب الصليبية » دليلاً على أن الاحتلال الغربى للعالم الاسلامى كان امتداداً للحروب الصليبية التى ظن أنها انتهت منذ ثمانية قرون والى عرف من بعد أنها كانت مستمرة فى حركة التناف ضخمة حول العالم الإسلامى . وأن نهايتها هى سقوط العالم الاسلامى كله تحت سلطان الغرب .

وقد هاجم المفكرون الغربيون «المسيحية الغربية» هجوما عنيفا ومع ذلك فقد اتسمت حضارتهم واتسم فكرهم باسمها . كما ظهرت دعوات مختلفة لتحريرها وتحويرها ، وقد حملت هذه الدعوات فكرة تصادم الدين مع العقل فى المسيحية . كما هاجم كتاب الغرب دعوتها إلى السلام والرحمة والحنان . وكان فى مقدمه هؤلاء نيتشه : ثم كانت الماركسية حملة ضخمة على المسيحية الغربية والدين كله . وقد وصفها كارل ماركس بأنها «ديانة الكلاب الضالة الضائعة» .

وكما ذكر الغرب كلمة « القرون المظلمة » كان هدفهم منصبا على المسيحية الغربية

يقول سلامه موسى : كلما ذكر الانسان القرون الوسطى خطر للذهن تسلط الكنيسة على التفكير وحجرتها على الحرية الذهنية . وليس شك من هذا التسلط وهذا الحجر ، فنذ القرون الأولى للمسيحية أخذ الناس يدرسون لغاية واحدة هي خدمة الدين . ولقد أصبح الرجل المثقف راهباً ، وهو يفعل هذا لأن الكنيسة تمنحه من درس الطبيعة والعلم .

وإذا كنا في حاجة إلى أن نستشهد بموقف المسيحية الغربية من العلم وحرية الفكر فإننا نستشهد برجل من أشد المسيحيين إيماناً بالمسيحية والفكر الغربي معا حتى لا يرى رأينا بالنالو أو التحيز : يقول سلامه موسى : « أنت^(١) عند ما تقرأ الانجيل تجد أن المسيح لم يكن يقصد إلى وضع نظام كنسى جديد له كهنة وحكومة ، وأن المسيحي الصادق في نظره هو الذى يدخل غرفته ويصلى لربه . والحق أن لهجة المسيح كلها توهم القارئ أن يوم القيامة قد أزف فليس هناك ما يدعو إلى إيجاد نظام وحكومة ، وإنما يجب على الناس أن يعيشوا في سلام . . . ولكن المسيحية نشأت في حضن اليهودية وعاشت مدة غير قصيرة والمؤمنون بها يعتبرون أنفسهم يهوداً لهم مذهبهم الخاص ، ولذلك جرت المسيحية في نظامها على ما رأت من النظم اليهودية فصار لها كهنة ، وكان هؤلاء الكهنة هم المضطهدون للعلم والفلسفة مدة ألف عام تقريباً ، فالكنيسة اضطهدت العلماء والمسيح الذى كان يطالب من المسيحي أن يدخل غرفته ويقفل على نفسه ويصلى ، لم يفكر قط في إنشاء كنيسة وإقامة كهنة عليها . وإنما جاءت هذه الفكرة من « بولس » ، فالمسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول للميلاد هي مسيحية بولس وليست مسيحية المسيح . وتقول بمباراة أخرى أن الدين للمسيح وأن الكنيسة لبولس . وأن الدين إذا كان قد عاق العلم أحياناً ببعض عقائده فإن الكنيسة هي التى اضطهدت العلماء .

ولما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية في ذلك الوقت من تلك الأديان ومازلنا نحن المصريين نعرف في المسيحية فكرة الثلاث : الأب والابن والروح القدس وأنها هي الفكرة التى كانت فاشية عند المصريين باسم أوسوريس وإيسيس وهورس . ويقول سلامه موسى : إن الكهنة رأوا أنهم أمام تيار قوى من الثقافة — في أوائل

(١) (ك) حرية الفكر وأبطالها في التاريخ : سلامه موسى ص ٣٦ .

النهضة — يكاد يطمو بهم ويفرقهم فآلفوا المجامع لحرمان الناس من قراءة الكتب التي لا توافق الكنيسة على نشرها ^(١) . . . ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتبع الاضطهادات التي نالت المؤلفين والطباعين من الكنيسة والحكومات ، وأشار سلامه موسى إلى محاكم التفتيش وذكر جاليو فقال أنه لما بلغ محكمة التفتيش في إيطاليا آرائه كتبت إلى الكردينال بلارمين بأمر تأمره أن ينهى جاليو عن هذه الآراء وفي حالة مخالفته يسجن . وسكت جاليو لأن شبح النار الذي أوقدت لبرونو سنة ١٦٠٠ كان لا يزال قريباً . فلما نشر جاليو كتابه الذي وافق عليه البابا هاج رجال الدين ومنموا نشر الكتاب وانقذت محكمة التفتيش وحكمت عليه » .

* * *

ولا عجب إذا قلنا أن المسيحية الغربية لم تحمل روح المسيحية الحقيقي ولم تعرفه وبتمثل هذا في أمرين (الأول) هذه الحروب الضخمة والمجازر الشنيعة التي قامت في أوروبا في الصراع بين البروتستانت والكاثوليك وأبرزها معركة سانت بارتلمى .

(الثاني) هذه الحرب التي شنها الغرب على العالم الإسلامي وسيطرته عليه ومحاولة سحق قيمه ومفاهيمه ومحاربة الإسلام واللغة العربية والقضاء على الفكر العربي الإسلامي .

ذلك أننا إذا أردنا أن تتمثل المسيحية والمسيح في صورتها الأصلية لوجدنا البون شاسماً ، فقد دعا المسيح إلى السلام وكل ما يتصل بالفكر العربي والحضارة الغربية لا يطابق مفهوم المسيحية الحقيقي .

فليست المسيحية التي شعارها « على الأرض السلام وللناس المسرة » هي مسيحية الغرب التي شنت الحملات الصليبية على المسلمين مائتي عام كاملة (١٠٩٦ - ١٢٩١) ثم عادت تغزو العالم الإسلامي مرة أخرى باحتلال الجزائر ١٨٣٠ فالعالم العربي والإسلامي متصلاً حتى انتهت الغزوة عام ١٩١٨ حين وقف اللورد اللبني في فلسطين وأعلن قوله : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

* * *

(١) ل احصاء أن عدد الكتب التي حرقها الكنيسة ولا تزال حتى الآن تبلغ أكثر من خمسة آلاف كتاب .

وقد عني كثير من المفكرين الغربيين بتفسير هذه الظاهرة الذين يرون أن الخلق المسيحي قد انتهى في الغرب ، وأنه قد ضاعت من نفوس الكثيرين الثقة بما يسمونه في أوروبا بالخلق المسيحي ، فقد أهار هذا الخلق في كثير من البلدان^(١) وفي هذا قول برتراند رسل : إنه لم يمتنع المسيحية منذ نشأتها سوى فرد واحد ، هذا الفرد مات على الصليب .



ويقول سبنسر في حديث له مع الشيخ محمد عبده : وقد أكد كثير من الباحثين أن الفكرة الرئيسية للمسيحية كما حاولت أن تصورها الكنيسة لا تمثل حقيقة هذا الدين « وخاصة ما يتعلق بالخطيئة التي تنسب إلى آدم ويحمل الإنسانية من الأزل إلى الأبد مسئوليتها » .

وقد أفاض الباحثون في القول حول وثنية المسيحية أو امتزاج الوثنية بالمسيحية في الفكر الغربي ويرى إسماعيل أدهم أحمد : أن العقل الأوربي لم يلبث حين تفتح في عصر النهضة أن رفض الدين المسيحي كله وأن أوروبا قد عادت من جديد إلى حالتها الأولى من الوثنية وخلقت آلهة جديدة تسميها تارة العقل وأخرى العلم وأخيرا الإنسان ويقول « عادت عقليا أوروبا وحضارتها إلى جذورها الأرضية وقطعت علاقتها الروحية بالسما » .

ومن ثم اصطفت المسيحية بلون الفكر الإغريق في طابعها الوثني الأسطوري المتمثل في الطلاق الجنسي والنراثة .

ويقول أنسي الحاج أن المسيحية كما طبقت كانت إغريقية رغم ما فيها عبريات . ولذلك فإن المسيحية لم تكن ثورة وإنما كانت امتداداً وانتماشاً لحضارة سابقة ، لذلك لم تر مانا من أن تقتبس الكثير من الوثنية .

أساس الفكر الغربي

« مادية الحياة والتربية والجنس »

يقوم الفكر الغربي أساساً على الوثنية الإغريقية + النظرة الرومانية إلى الإنسان (كل ما عدا روما عبث) + المسيحية المستوردة من الشرق (المسيحية الغربية) .

فقد كانت المسيحية التي بزغت أضواءها في الشرق قد عبرت إلى أوروبا « ما تزال نظرة العقل الأوروبي إليها تتمثل في نظريته إلى الوافد الغريب بينما ظلت نظريته إلى تراث الإغريق على أنه النبع الأصيل » لذلك فهو لم يتقبلها كسكل ، وإنما قبل منها ما وافق مزاجه الوثني وإضافه إلى الأصل « ومن هنا نشأ مزاج أغريق روماني مسيحي للفكر الغربي . ثم كان للنهضة العلمية التجريبية أثرها البعيد المدى في بروز النزعة المادية الخالصة التي لم تلبث أن حاربت الدين وأقصته عن مجال الفكر ، وأصبحت هي القاعدة الأساسية لهذا الفكر بظهور نظرية دارون وتأصلها . فقد أصبحت النظرة المادية بما تحمل من معنى التطور وحيوانية الإنسان مصدر كل نظريات الغرب وفكره في مجال النفس والاجتماع والفلسفة والأخلاق والاقتصاد والأدب والتربية .

ثم لم يابث هذا الفكر أن تولدت منه النظرية المادية الماركسية فأصبحت الشق الثاني له . وهنا تمثلت أسس الفكر الغربي في (١) إلغاء فكرة الألهيه والدين (٢) مادية الحياة (٣) حيوانية الإنسان وإطلاق غرائزه .

ويمكن القول بأن أبرز النظريات ذات الفعالية في الفكر الغربي هي :

- × نظرية المادية التاريخية (ماركس) .
- × نظرية العدم (الوجودية) .
- × مادية السلوك والتربية (جيمس ودبوي) .
- × نظرية الجنس (فرويد) .

١- المادية التاريخية : ماركس

كان ظهور « الماركسية » إيذاناً بانقسام الفكر العربى وتغزق جبهته ، وإن كان هو أساساً وليد هذا الفكر ، قام على أسسه المادية والدارونية وعلى نظريته إلى الله والكون والتطور وإن اختلفت نظريته إلى الإنسان والمجتمع . وهو نفس الخط الذى سار عليه من بعد فرويد ، وهو إززال الإنسان من مجال إنسانيته وتعريبته مضافاً إليه نظرة التفسير المادى للتاريخ الذى يستمد الأسباب والمسببات من الاقتصاد وحده . ويرى ماركس أن التاريخ يمثل صراعاً بين الطبقات ، سواء فى ميدان السياسة أو الدين أو الفلسفة أو الاجتماع فهو يردّه جميعاً إلى الاقتصاد والمادة ، ولا شك أن نظرة ماركس فيها شيء غير قليل من الحقيقة التى اكتشفها من قبل ابن خلدون ونماها كثيرون قبل ماركس حتى وصلت على يديه إلى هذا الحد ، غير أنها فى نظر الفكر العربى الإسلامى لا تمثل الحقيقة كاملة ، فليس الاقتصاد والمادية هى المصدر الوحيد لكل دوافع التحول فى التاريخ وإنما هناك عوامل أخرى روحية ومناخية ، وتقوم الماركسية التى هى فلسفة اقتصاد وسياسة ومجتمع على تغليب المادة واسقاط الدين فهى ترى أن المادة أصل كل الأشياء وأنها تسبق الفكر ، بل أن الفكر والروح وعندها هو تطور المادة إلى أعلى درجات التطور .

وعندها أن الدين هو مظهر عجز الإنسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الاقتصادية ، وأنه يوم يجد الإنسان الطمأنينة على رزقه وحياته سيخفى الدين وستنقضى الحاجة إليه ، ولا تنادى الماركسية باضطهاد الدين أو القضاء عليه ولكنها تقول بسحب الأرض من تحته بالقضاء على الأسس المادية والمعنوية لوجوده .

ويرى ماركس أن التاريخ العام للبشرية يسير وفق حتمية عبر العنصر الصناعى . هذه الحتمية التاريخية نفسها هى التى تحفز العمال إلى أن ينتزعوا الدولة من البرجوازية شيئاً فشيئاً بالطرق الدستورية ، ولما كان فعل التاريخ والطرق الدستورية بطيء فلا بد من الاسراع فى تطوير التاريخ ومساعدته وذلك إنما يكون بثورة العمال ضد البرجوازية لانتزاع الدولة . ويرى ماركس بأن الأحوال الاجتماعية فى الأمة ليست سوى المظهر الخارجى لنظامها

الاقتصادي وأن الظروف والقوى التي يخضع اليها الإنسان لتأثيرها هي بذورها تخضع لتأثير فعل الإنسان نفسه . وحمية التاريخ الذي نادى به ماركس هي الحتمية التي تتحقق بسيادة الطبقة العاملة (البروليتاريا) .

وبالجملة فإن فلسفة ماركس تقوم على (١) حقيقة العالم تنحصر في ماديته (٢) لا إله والحياة مادة (٣) الدين أفيون الشعوب (٤) القيم مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي وهي غير ثابتة (٥) الدين أسطورة ابتدعها أصحاب المصالح (٦) تفسير الحياة الإنسانية من خلال التفسير المادى (٧) إغفال القيم وأثرها في الحياة وفي توجيه سلوك الناس (٨) اعتبار القيم الأخلاقية قima متطورة لا ثبات لها .

* * *

وقد استطاعت فلسفة ماركس بتطورها وتحولها إلى نظام اقتصادى واجتماعى يتمثل في الدولة البلشفية التي قامت عام ١٩١٧ في روسيا أن تقسم الفكر الغربى إلى قسمين : فكر غربى مادى وفكر ماركسى ومن ثم برزت خلافات كثيرة بين الفكرين بالرغم من امتدادها من الأصل المادى الصرف .

ويرى أرنولد توينبى أن الماركسية إنما تمثل « أزمة » في الفكر الغربى المسيحى وعندنا أنها وليدة الفكر الغربى وثمرته وتحول طبيعى في مجراه ، فقد كان من الطبيعى أن ينبثق من أعماق الرأسمالية في عنفها وجوحها وضخامة ثرواتها دعوة تحمل لواؤها الطبقة التي تعمل في الصناعة وأن تسعى هذه الطبقة إلى السيطرة على مصادر الانتاج ، وإذا كانت الرأسمالية تمثل طرف الخيط فإن الماركسية تمثل طرف الخيط من الناحية الأخرى ، وأن كلا المذهبين الاقتصاديين لابد أن يصدر عنه مع تطور الزمن وفي ظل حركته الدافعة مزيج وسط يتمثل في طور « الاشتراكية » .

غير أن الفكر العربى الاسلامى وقد عرف « العدل الاجتماعى » في فلسفته الأساسية يرى أن الفكر الغربى ما زال يجرى على طريقته في التجربة والخطأ في الدرب الطويل إلى السكمال ، بينما لا يرى الفكر العربى الإسلامى جديداً في مفهوم العدل الاجتماعى والاشتراكية باعتبارها مقوماً أساسياً وجذرياً في أعماق فكره .

وفي ظل مفاهيم « الفكر العربى الإسلامى » الذى يمزج بين المادة والروح في قاعدته

الأساسية تبدو مادية النظرية إلى التاريخ وليست هي العامل الوحيد في حركة التاريخ ، فليست العوامل المادية هي وحدها مصدر تحركات الانسانية وتطورها ، وأن ثمة عوامل مختلفة ومنها الدين لها أثرها بجانب الأثر المادى .

أما الماركسية فهي تطور فلسفى طبيعى على النحو الذى سارت عليه الفلسفة الغربية في قيامها على مراحل وطبقات، وهي مستمدة أساساً من نظرية هيغل التى تمثل تياراً من الفلسفة لغربية التى تحمل أساساً وجهات نظر كثيرة حول تفسير التاريخ تختلف عن نظرية ماركس المادية. وفي مفاهيم فكرنا العربى الاسلامى أن الاقتصاد يمثل جانباً من جوانب تفسير التاريخ وأن هناك جوانب أخرى ذات تأثير لا يمكن إغفالها كالعوامل الفكرية والروحية ، والتي كان لها في الأغلب قوة العامل الحاسم .

ولا شك أن التاريخ من صنع البشر الذين يتأثرون بعوامل كثيرة مختلفة، ولا يمكن إنكار الدور الذى تقوم به الشخصيات التاريخية العظيمة . بالإضافة إلى دور الجماهير والطبقات الشعبية في هذه التحولات . ولا يمكن إنكار أثر الشخصية التاريخية التى تتقدم شعباً وتقوم بعملية التنوير فالتغيير النفسى الذى يكون مقدمة للتحول .

هذا فضلاً عن أن حتمية التطور التاريخى للانسان لا يمكن أن تسير في طريق مسدود بين الرأسمالية والشيوعية . ولا شك أن الفكر الانسانى أرحب من هذه الدائرة المغلقة ، ومن رأى الكثيرين أن النظرية الماركسية بتطورها اللينينى والبلسنى ليست هي نهاية الفكر الانسانى ولن تكون .

أما « الدين » الذى تنسك النظرية الماركسية فاعليته فقد لعب أدواراً إيجابية في تاريخ الانسانية كان لها أثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى البعيد المدى ، ولا يزال الدين قادراً إعطاء الانسانية وإعطائها ما ينقصها من المفاهيم الروحية والفكرية والنفسية ولا تزال رسالة الدين قادرة على رد الانسانية عن هذا الفلق والتفكك والضياع الذى تسير إليه بقدم ثابتة .

وقد ظهرت قبل الماركسية نظم سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة تحدث العقيدة الدينية واتهمتها بتمويق التطور والنهضة . ثم اندثرت تلك النظم أو تطورت إلى نظم

أخرى ، وبقيت العقيدة كامنة في قرارة السلوك الانساني تحفظ الحياة وقيمها الرفيعة في خضم القلق والثورات والحروب . وتلهم الناس أسباب الطمأنينة والثقة بالعدالة الالهية والاستقرار النفساني الاجتماعي .



وقد قسمت الماركسية الفكر الغربي إلى شطرين يتصارعان اليوم في ميدان السياسة والاجتماع للاختلاف الجذري بينهما حيث تختلف مفاهيم المادية الغربية والماركسية في مختلف المجالات .

وبالرغم من تحول التطبيق البلشفي والشيوعي عن مفاهيم ماركس فإزال نظرية ماركس تمثل قطاعاً من الفكر الغربي المعاصر منعزلاً عنه ومتصلاً به ، فهي على خلاف مع النظرة المادية الغربية ، ثم مع الوجودية أيضاً ، ونحن على ضوء فكرنا العربي الاسلامي ننظر إلى هذه المذاهب كلها نظرة واضحة : أنها تجارب وتطورت من أجل البحث عن السكالم في المجتمع الغربي الذي يحاول منذ عصر النهضة إلى الآن رسم منهج كامل للانسان والمجتمع ومازال يجري تجاربه منتقلاً بين الديعقراطية والديكتاتورية والنازية والفاشية وبين الرأسمالية والشيوعية .

أما نحن فلنا أساس فكرنا عن الله والإنسان والكون . وعلى ضوء هذا الأساس ننظر بفكر مفتوح إلى كل هذه التجارب ونأخذ منها ونُدع ، نأخذ منها ما يهطى شخصيتنا قوة وحياة وتطوراً واستمراراً في الحركة موكب الإنسانية .

ومهما يقول الذين ينظرون إلى علاقة ماركس بنظريته في ضوء تفسيره حيث نجد رجلاً يهودياً عاش في جو صراع واضطهاد عنيف لليهود فترك اليهودية إلى المسيحية ، وتأثرت نفسيته بمخسومة شديدة للفكر الغربي ومفاهيمه « هذه المفاهيم التي غلبت عليها طابع الرأسمالية وأنه كان يحاول هدم هذا النظام وتدميره .

وإذا كان ماركس شأن بني جسسه يعيش في عزلة تامة عن المجتمع مما يدفع علماء النفس إلى إتهام ماركس بأنه كان « منجسراً » أنانياً موسوساً بالفرور والخصد والغيرة . يحدد على المشهورين ويثبت أن يكون ذائع الصيت ومن هنا أخذ وجهة نظر جديدة مثيرة تحمل لواءها ودعا إليها مهما يكن من قيمة لهذه الآراء ، فإن نظرية ماركس كانت ذات أثر عميق وبعيد المدى في الفكر الغربي خاصة والفكر الإنساني عامة . وفي بروتوكولات صهيون تصوير آخر لفلسفة ماركس .

٢- نظرية العدم (الوجودية)

دفعت الحرب الفكر الغربي إلى التطرف في زعمته المادية ، وأعطته روح القلق والضياع . فقد كان لسقوط أكثر من عشرة ملايين في الحرب الأولى وضعفها من الملايين في الحرب الثانية أثره البعيد المدى في النفس الإنسانية وبالتالي في الفلسفات والمذاهب السياسية والاجتماعية . فقد زادت فكرة التحلل من القيم والاندفاع وراء الفراغ وإطلاق اللذات والشهوات والجنس على النحو الذي كشفت عنه هذه الفلسفات : السريالية والوجودية، وقد تناول الباحثون الاجتماعيون هذه الظاهرة بالدرس « فكشفوا عن أن الحرب قد خلقت في أوروبا مدرسة فكرية يطلق عليها مدرسة ما بعد الحرب وهي مدرسة الهزائم والانهارات والكوارث » وقد تحولت مثلها العليا إلى أشباح . وفي هذا يقول فولنجانج بورخرت « إننا جيل بلا أمل ، جيل بلا عمق » وبلا مستقبل . إن عمقنا هو الهاوية وحبنا هو الوحشية « وشبابنا بلا شباب ، وحياتنا علب من الورق ، فارغة وقابلة للتمزق » .

ويرى بعض الباحثين « أن الوجودية ليست إلا تعبيراً عن هذا الانحراف، فإن شباب أوربالم يجد غير اليأس والفراغ والضياع ، واليأس مرشح والأمل فم لا يشبع ، هذا الشباب الذي لم يثق بأحد ولا بأى شيء كبير على حد تعبير سارتر . أو ما عبر عنه مارسيل جبريل حين قال : إن الناس يعيشون في ذلك التفرغ الخاطف القاتل الذي يحدهم انتفجار قبلة كبيرة ، وعنده أن « الحياة حطام : الوحدة والعزلة والسلبية » والواقع أنه في ظل نهاية الحرب الأولى والثانية ظهرت فلسفتي السريالية والوجودية .

ظهرت السريالية على أثر الحرب العالمية الأولى وابتعثت الوجودية على أثر الحرب العالمية الثانية . والسريالية تستمد فلسفتها من مذهب فرويد الذي يرى « أن الإنسان في جوهره حيوان كغيره من الحيوانات وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هي الأساس المادى لسلوكه في الحياة » غير أن ضروريات الحياة الاجتماعية وما صحبها من ديانات وفلسفات أخلاقية قد حتمت تنظيم هذه الغرائز والميول والحاجات ، وأن خضاعها لا مفر منه

لكي تستقيم الحياة الاجتماعية ، وكثير من هذه القيود يؤدي إلى كبت تلك الغرائز واليول والحاجات التي تنتقل من عقلنا الظاهر إلى عقلنا الباطن لترسب في جب سحيق داخل النفس البشرية ، ومن داخل هذا الجب تبرز من جديد تلك المكبوتات كلها سنحت لها الفرصة « ومن هنا أطلق على «السريرية» مذهب ما خلف الواقع » فهي بهذا الفهم تعمل على تسجيل ما يرد على الخيلة من صور على أساس أنها منبعثة من العقل الباطل « بصرف النظر عن جمال هذه الصور أو قيمتها أو مطابقتها للمقاييس الاجتماعية أو منافرتها لها .

وهم يعتقدون أن الفن الصحيح هو رسم الانعكاسات التي تقول نتيجة التفاعل القائم بين نضالنا الخارجى وذاتنا المجردة بعيدا عن دائرة المنطق أو توجيه الفكر^(١) .

ولا شك أن هذه النزعة الفكرية المنحرفة عن أصول الفن نفسه لا تمثل إلا مرحلة معينة هي مرحلة الاضطراب النفسى الذى عم الغرب بعد الحرب العالمية الأولى والفرع من نهاية الحياة المتمثلة في فناء الجنس البشرى ، ومن هنا فهي دعوة إلى الإسراع بالاندفاع نحو التمتع وإطلاق قيود الغرائز والسخرية بالدين والقيم والأخلاق حيث أنها لا تحول دون فناء البشرية .

أما الوجودية : فقد برزت بعد الحرب العالمية الثانية كرد فعل لأزمة شك في الأخلاق والروحية وقد عجزتا عن أن يحولا بين البشر وبين النتائج الخطيرة التي واجهتها البشرية من الحرب ومن ثم فهي ترى أن الدين والأخلاق والقيم قد فشلت .

ويذهب الوجوديون إلى أبعد مدى في إنكار هذه القيم فينكر سارتر فكرة « الاله » ذاتها .

والوجودية نظر بعض الباحثين ليست إلا بمثابة احتجاج الفرد على طغيان الجماعة وتهويها من شأن الاستقلال الفردى في الحركات الاجتماعية ، وتقوم الوجودية على النظرة المادية الخالصة « بل على النظرة الماركسية أيضا » فيقول سارتر أننا نعيش في المادة فيجب أن نخضع للطبيعة ونتركها تفعل ما تريد .

وترى الفلسفة الوجودية أن العالم هو كل شيء ، وهو الحقيقة الوحيدة ، وعندها أن الإنسان هو أرق الكائنات ، لهذا ينبغي أن يتمتع بوجوده كل الاستمتاع ويطلق الحرية العنان فيحقق ذاته « باعتباره إله نفسه ، وسيد كيانه .

وقد صورت الوجودية موقفها من فكرة الألوهية في هذا النص من قصة الذباب « لسارتر » :
« سيدى الإله : ما أن خلقتنى حتى انفصلت عنك ، وتخلت عن نسبتي إليك ، فأنا لم أعد ملكا لك ، وليس ثمة في السماء من خير أو شر أو إنسان يستطيع أن يصدر إلى الأوامر » لن أعود لأخضع لشرعك ، ولست محمولا على الخضوع لغير شريعتي أنا لأننى إنسان » .

ويقول سارتر : « نحن يتأى في هذا الكون ليس لنا سند نستند إليه في تعيين الهدف نحن في قلق ، في حيرة » .

* * *

وبالجملة فإن الوجودية دعوة الحرية المطلقة فلا جبر ولا إزام على الأشخاص على اعتبار أنه ليس هناك سلطة غير سلطة العلم والعقل .

ويقول « ألبير الكاى » وهو أحد أقطاب الوجودية أن الفكرة التى تدور حولها فلسفة الوجودية هى اكتشاف أن الحياة بلا معنى ولا هدف « وأن العالم وجد لكي يموت فيه الإنسان وليس هناك أى نتيجة لكفاح الإنسان ما دام الكون كل جوفه صامتا .

ويقول هيدج : إن الإنسان أسقط في هذا العالم دون أن يفهم لماذا « ودون أن يزود بشيء لا عن نفسه ولا عن العالم وعن علاقته بنفسه وبغيره .

ولكى نفهم « الوجودية » علينا أن نفهم سارتر « وسارتر كما تصفه أقرب الناس إليه : (سيمون دى بوفوار) تقول إنه يكره الحقوق والواجبات وكل شيء رصين في الحياة ، وهو لا يكاد يهضم أن يكون له مهنة وزملاء ورؤساء « وقواعد تراعى وتفرض » ولن يكون أبدا رب أسرة حتى ولا رجلا متزوجا ولم يكن سارتر يرى في الزواج شيئا عظيما ، كان فوضويا أكثر منه ثوريا ، كان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئا محتقرا .

ويرى نقاد الوجودية من دعاة المذاهب الإنسانية أن الوجودية مذهب فلسفي مثالي له طبيعة تحليلية يعمل على تفكيك الوعي العام. وأن ظهوره في ظروف تاريخية معينة لا يعطيه قوة الفلسفة الإنسانية الحية وأن سارتر وكاميو تحت ستار فلسفة الحرية قد نشرتا تعاليم الفوضوية العقلية والخلقية واحتقار العلم والأخلاق والدين .

وعندهم أن الوجودية تختلف أيضا مع النظرية المادية التي تجعل المادة سابقة على كل شيء ، والفكر جاء تاليا للمادة . وقد وضع كجورد الحقيقة الإنسانية قبل المادة لينتهي بالفردية بينما ينتهي ماركس بالمجتمع ، وقد هاجم سارتر في قصته الأيدي القذرة : « الشيوعية » وقال « أنها آلات مسخرة وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا » .

وقد أطلق كثير من الباحثين على الفلسفة الوجودية : فلسفة العدم والضياح .

٣ - مادية السلوك والتربية : (جيمس وديوى)

تمثل الثقافة الغربية في تيارين كبيرين : التيار اللاتيني والتيار السكسونى . وقد تصارع هذان التياران في الشرق العربى الإسلامى صراعا طويلا ، ثم لم يلبث أنه برز تيار جديد هو التيار الأمريكى المستمد أصلا من الثقافة السكسونية والذي لم يلبث أن استقل بطابعه المستمد من داخل أعماقه على النحو الذى تقوم عليه ثقافة الأمم والشعوب .

ولكن الثقافة الأمريكية في أساسها « مادية دارونية » تقوم على أساس نفس الفطرة المادية الغربية ، غير أنها تميزت بطابع جديد هو الفلسفة البرجماتية (الذرائع) التى ترى أساسها وقاعدتها في أن البقاء للأصلح والحق للقوة ، وأنه ليس ما يمنع من انتهاك حرمة العدل والانصاف والفضيلة من أجل هذا الهدف « وهى لذلك لا تؤمن بمساواة الضعيف العاجز في الحقوق التى للقوى المتمكن .

ويرى شارل بيرنز أحد مؤسسى الفلسفة البرجماتية : أن القضاء على الضعيف وسيلة جوهرية من وسائل التقدم والرق ، وأن احترام الوالدين مثلا نظام لا تقره الثقافة البرجماتية ، والوالد لا يعترف بحق والده عليه في الولاء أو الطاعة أو الواجبات التى تحتّمها صلة الرحم والشيخوخة^(١) ، هذا فضلا عن أن البرجماتية لا تؤمن بالنظريات الانسانية والروحانيات . وعندها يقاس المستوى والمساكنة الاجتماعية بالدخل المادى . وبنسبة النجاح الذى أصابه المرء بعض النظر عن طبيعة الوسائل التى حققه بها^(٢) . وعند الدكتور عمر حليق أن النظرية البرجماتية هى المسئولة عن رواج أدب اللذة والمجون في أمريكا وسيطرته على عناصر الغذاء الفسكورى ، فالكاتب والفنان هناك لا يرتفعان عن ذوق السطحيين . ويرى أن الثقافة البرجماتية في أصرارها على النواحي المادية في السلوك والحياة الإنسانية لا تختلف كثيرا عن الفلسفة الماركسية وتفسيرها المادى للتاريخ . ومن أصول البرجمة

أن الحياة العملية المادية هي قاموس الكاتب الأمريكي وأن الفن والثقافة الرفيعة هي من قبيل الهراء .

ويجمع الدارسون لفلسفة البراجازم (التي هي أساس الفكر الأمريكي) على إخضاع كل شيء للعمل ، فالتفكير خاضع للعمل ، والحقيقة خاضعة للعمل ، ومقياس الحقيقة عندها هو صلاحيتها للعمل ، والمعرفة نوع من العمل . وهي تنسك وجود القيم النهائية والمطلقة والذاتية وكل حقيقة عند أصحاب البراجازم لا تقبل على أنها مطلقة .

والبراجازم تمارض الدين وعقيدته في الثبات والخلود والالاهائية وتعارض القانون الأخلاقي وترى أن السلوك الخلقى شيء آخر غير الآداب الاجتماعية القائمة على العرف . وسيكولوجية البراجازم تعتمد على التفسير البيولوجي « الإنسان حيوان » .

أما أساس نظرية « ديوى » في التربية فيقوم على فصل الدين عن التربية فهو تلميذ للدارونية والبراجازم معا .

وقد أقام ديوى نظريته على أساس مادية داورن وذرائع جيمس وعنده أنه ليس في الـكون شيء ثابت لا يتغير ، وهو يأخذ بالتجربة في التربية على أساس قوله « أن مجتمعنا ليس نهائيا » وهو يفصل بين الماديات والمعنويات ، ولا قيمة للأخلاق عنده ، يقول « ليست الأخلاق شيئا مطلقا وليست هناك أخلاق مثل دأمة » .

وغاية التربية عنده ليست الأخلاق وإنما اللامعة بين الفرد والمجتمع . وهنا يبدو عمق الخلاف بين جذور منهج التربية في الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي .

ويقيم ولیم جیمس فلسفته على الإيمان بالواقع الحسى الملموس ، والعمل عنه مقدم عن المعرفة ومن رأيه أن الشاعر تنبع من الجسد وليست النفس مصدر الشاعر .

٤ - نظرية الجنس (فرويد)

أساس رأى فرويد ونظريته : إن عقل الإنسان الذى هو مصدر سلوكه الخلقى ليس فى رأسه وإنما فى الفريزة الجنسية . ويقول : أنه إنسان تمس ، لأن أسفله أعلاه ولأن غريزته هى المتحركة فيه وإن كل القيم الخلقية والدينية التى أقرتها الإنسانية عبر القرون إنما هى عقد نفسية أو أمراض « باعها الأول الكبت الجنسى . ويجب التخلص منها لكي نعيش البشرية بدون قيم ولامثل ، من رأيه أن الإنسان فى جوهره حيوان كثير من الحيوانات ، وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هى الأساس المادى الصلب لسلوكه فى الحياة ، غير أن ضرورات الحياة الاجتماعية وما صحبها من ديانات وفلسفات اخلاقية قد حثمت تنظيم هذه الغرائز والميول وإخضاعها لقيود لا مفر منها ، وأن كثيراً من هذه القيود تؤدى إلى كبت الغرائز والميول والحاجات .

* * *

وقد وجه الكثير من الباحثين النقد إلى نظرية فرويد وأشار بعضهم إلى إن نقطة الضعف فى فرويد كعالم أنه آخذ من دراسة نفسيته وطفولته أساساً وقاعدة استهدف بها التعميم للوصول إلى قوانين أساسية .

والمعروف أن « فرويد » يهودى عاش فى النمسا حياة مضطربة مضطهدة فقد عرفت النمسا بالتمصب الشديد ضد اليهود ، ومن هنا لم تكن حياته سوية على النحو الذى يجعلها نموذجاً صالحاً لاستخلاص نظرية سليمة فى علم النفس .

وقد حاول فرويد أن ينفقس إنسانية الإنسان بهذه النظرية حيث ركز على « غرائز الإنسان » وجعلها مقاداة ، وبذلك غلب حيوانيته أو جانبه المادى على روحه وعقله . وقد كان تأثره بدارون مصدراً لهذه النظرية بالإضافة إلى أحقاده الذاتية والجنسية على الإنسانية .

وقد أشار فرويد إلى هذا المعنى حين قال : إن الإنسان قد طمن في غروره ثلاث طعنات (الأولى) يوم عرف أن الأرض التي يسكنها ليست مركز الكون والوجود وإنها لا تزيد عن أن تكون جرماً تابعا للشمس يدور حولها (والثانية) يوم أن أدرك دارون أن الإنسان لا يفتقر عن الحيوان في طبيعته وأن كل ما يميزه عنه هو درجه من التطور (والثالثة) يوم أن تبين بالتحليل النفسى أن وراء عقل الانسان عقلا آخر يدفعه حيث يشاء دون أن يعرف عنه شيئا .

تقوم فلسفة فرويد على (١) حيوانية الانسان (٢) الحياة النفسية للانسان تتبع من الجنس (٣) غرائز الانسان هي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه ، (٤) الروح لا وجود لها على الاطلاق (٥) القيم خرافة وهي تقاى العقل والنفس والمجتمع (٦) تفسير النفس كلها من خلال الجنس (٧) الأخلاق والدين انبثاق جنسى (٨) من عقدة الجنس ينشأ الضمير والدين والأخلاق والقيم العليا في حياة البشرية .



وقد واجهت نظرية فرويد معارضة من المفكرين والباحثين ، ولم يكن ممكناً أن يكون لها هذه المكانة التي وصلت إليها لولا أن هناك قوة أخرى كانت توازها وتستهدف من التركيز عليها أهدافا بعيدة المدى ترى إلى مقاومة المفاهيم الانسانية والأديان وإذاعة الالحاد والاباحه .

فقد أثبت « يونغ » وهو زميل فرويد وضريه ، كما أثبت مكدوجل أن العقل الباطن ما هو إلا خرافة ، ونوقش فرويد في مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب فأنكرهما في آخر أيام حياته ، وقد عارضه « ادل » في أخطر ما ذهب إليه من أن الجنس هو الدافع ، وقال أن المحرك الأول للانسان هو حب السيادة والسيطرة والنزوع إلى تأكيد كبريائه وتركيز شخصيته .

وما تزال نظرية فرويد تلقى معارضة من كثير من الباحثين كلما تقدم البحث العلمى وقد نبذ كثير من العلماء نظرية فرويد في العلاج العقلى والنفسى ، وقال الدكتور ناتان كلاين أنه ثبت فساد النظرية الفرويدية التي ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية

بمحة . ومن رأى أكثر الباحثين أن هذه النظرية ليست إلا معولا هداما لمقول الشباب ومخدر مميت لنفوس الشعوب . وقد حلت نظرية (إيفان بافلوف) في الاتحاد السوفيتي محل نظرية فرويد ، هذه التي تقول أن البيئة هي المسئول الأول عما يصيب الإنسان من انحراف نفسي وعقلي .

وقد أعلن بعض الباحثين أن فرويد كان يتخذ نفسه نموذجا للتجربة التي يدعو إليها ولم تكن هذه النظرية قائمة على أسس تجارب متعددة أو إحصائيات دقيقة ، وقيل إن فرويد نفسه كان يمر بأزمات نفسية عنيفة . وقد أصابه الاضطراب وهو يعالج مريضة بالهوس الجنسى مصابة بعقيدة أوديب وقد تكشف له خلال ذلك أنه هو نفسه مصاب بعقدة أوديب وأنه كان يتجه إلى أمه ويفار من أبيه وأنه اتهم أباه ظلما بجريمة أخلاقية رهيبة . ولا شك كان لتيارات « الانسانية » في الفكر الغربي أثرها في دفع موجة التفسير الفرويدي في مجال الأدب والفن ، ثم لم يلبث أن حل علم النفس محل فلسفة الأخلاق .

مفاهيم الفكر الغربي

تتمثل نظرة الفكر الغربي إلى الله والحياة والانسان في فلسفات مختلفة تصدر كلها عن مادية الفكر وتتميز بالتناقض والتعارض . وترتبط بالآزمنة والأحداث والحروب . ولا تصل إلى الشمول والارتفاع فوق الأحداث والظروف .

فالناركسية ظهرت بعد أن استفحلت الرسمالية ، والوجودية ابتعثت في ظروف نتائج الحروب الخطرة .

هذا فضلا عما وصف به كثير من هؤلاء الفلاسفة باضطراب القوى النفسية فقد حملت دراسات تراجم نيتشه وفرويد والبيركاي وسارتر كثيرا من عوامل الاضطراب النفسى الذى كانت في الأغلب مصدر نظرتهم إلى الحياة .

ومن هنا تبدو أن أغلب هذه النظريات أو الفلسفات ليست إلا وجهات نظر فردية وشخصية لمفكرين يمتازين في ظروف وهيئات ومجتمعات وأحوال معينة أو نتائج لخبرات ومطالعات أو أحداث عالمية أو خاصة . ومن هنا تبدو نظرتهم المحدودة، بمحدود الزمان والمكان الذى ظهرت فيه وهذا ما يجعلها تختلف عن النظريات الإنسانية الشاملة التى تبدو صلاحيتها للأزمان والبيئات المختلفة .

وما زال الفكر الغربى يحرق عشرات التجارب في مجال الفلسفات ونظرات الحياة في سبيل الوصول إلى « منهج » أو « أيتويا » صالحة ، غير أن استمداد أسس هذه الفلسفات من النظرة المادية الحالصة قد حال دون وصولها إلى نزع إنسانية شاملة صالحة لأزمنة وأمكنة متعددة .

ويختلف الفكر العربى الإسلامى مع الفكر الغربى في هذا المجال في أنه يتمثل في نظرة

قدرة امتزاج الكل وإلتقاء الأجنحة المختلفة والأجزاء المتقابلة . وبينما يتسم الفكر الغربي بروح الجزئية والجناح الواحد ، في أقصى اليمن أو أقصى اليسار « يحمل الفكر العربي الإسلامى طابع : الوسط ، الكل ، الإلتقاء ، الامتزاج ، ومن خلال عشرات المذاهب الفلسفية الغربية تبدو النظرة إلى الحياة معارضة لطابع الفكر العربي الإسلامى أساساً .

نخلاصة مذهب «دور كايم» أن الفرد لا قيمة له ولا معنى بالنسبة للحرية الفردية وأن القيم كلها للمجتمع الذى يخلق الأديان والعقائد والآداب والقيم . وعنده أن الدين والزواج والأسرة ليست زراعات فطرية في الإنسان ، وأن أنقواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها ، وقد اعتمد «دور كايم» في مذهبه على الماركسية والدارونية معا ونقل أرائهما من مباحث الإقتصاد والعلم إلى مباحث الاجتماع والأخلاق ، وخلاصة رأى «نيتشه» هو نقض الديانات التى تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشرى وحماية الضيف . فقد حمل على المسيحية ووصفها بالسلبية « وقال أن أخلاق المسيحية تمارض بقاء الأقوياء (الصقور) وتصدّم عن حقهم الذى تنطق به الطبيعة ، وهو أن الصقر يجب أن يأكل المصفور .

وقد دعا نيتشه إلى إعفاء الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية ووصفها بأنها أخلاق الأذلاء . وتتمثل هذه النزعة المادية في دعوة برتراند رسل إلى مهاجمة المعتقدات الدينية فهو يعلن بصراحة مريرة أنه ليس مسيحياً ويهاجم التعاليم الدينية الخاصة بالجنس ، ويرى أن تعاليم المسيحية لا تتفق مع منطق العلم « ويقول أنه لا يؤمن بوجود حقيقة مطلقة ، ويدعو إلى التحرر الجنسي ، أما «لورنس» فيرى أن الحضارة الدينية قد قصت على عناصر السعادة الفطرية في الإنسان وأنه لكي نسترد السعادة علينا أن نعود إلى الحياة المطلقة للغرائز ، حياة الغابة .

ومن خلال نظريات فرويد في (النفس) ووليم جمس في (الأخلاق) وماركس في (المادية التاريخية) ولورنس في (إطلاق الجنس) وديوى في (لادينية التربية) تبدو صورة الفكر الغربي المعاصر في أبرز مسأله وقضاياها .



ومن أبرز ظواهر الفكر الغربي موالاة التجربة في سبيل وضع فلسفة اجتماعية صالحه

لبناء المجتمع . وقد استعرض عشرات الفلسفات في خلال أزمته الطاحنة بين الفردية والجماعية ، مما لم يحقق له بعد السعادة أو العدالة المرجاه .

ونحن في العالم الغربي والإسلامي أصحاب فكر له طابعه واستقلاله ، لا نرى بأساً من دراسة هذه المذاهب والفلسفات بروح حرة قوامها فهم الفكر الإنساني والانتفاع بما فيه من جوانب القوة دون أن نكون مقلدين أو تابعين ومع تقدير كامل بأن هذه المذاهب قد قامت في ظل مناخ فكري يختلف عن نظرنا للأمر وطريقة معالجتها وأنها تستمد أساسها من واقع مقومات فكر تلك الأمم .

بل لعله ليس من العجيب أن يكون لدينا حلول لمشاكل الغرب نفسه ، تستمد أساسها من تجربة فكرنا ، الذي لم يمتنع نزعات بالقلق والحيرة ، والضياع .

بل إن مشكلة الغرب الكبرى وهي : « الفردية والجماعية » التي ما يزال يضطرب لها الغرب منذ ابتكر البخار حتى الآن ، يجد الفكر العربي الإسلامي حلها التجريبي المستمد من سلوك الإنسان وأخلاقه ومقومات فكره وروحه .

وقد عاش الفكر العربي عمراً طويلاً وهو يجري تجربته الضخمة المتعددة المراحل في سبيل الوصول إلى أرساء قيم أساسية جديدة ، عاش منذ أفلاطون إلى سارتر يحلم ببناء المثل الأعلى في مجتمع عادل سعيد ومع ذلك فإنه لم يصل بعد .

ولو أنه نظر نظرة بعيدة عن الحقد أو التعصب إلى الفكر العربي الإسلامي لوجد فيه حاجته وحاجة الإنسانية كلها ، غير أن هناك عوامل ذات نفوذ كبير تحول بينه وبين هذه التجربة ، فإذا ما اتجه إلى الشرق باحثاً عن سناد روحي للحضارة حولت هذه العوامل وجهته إلى فلسفة الهند والصين الروحية الصرفة وتنسكب ما في طريقه من جوهر الفكر العربي الإسلامي الذي يمتزج فيه الروح بالمادة .

* * *

والواقع أنه لا يمكن النظر إلى النظريات والمذاهب الأفكار مجردة من بواعثها وعوامل
(م - الفكر العربي المعاصر)

دفعها إلى الحركة والتأثير في الفكر بالقوى ذى الفاعلية . ولا شك أن أكبر النظريات
التي وجدت قوة في دفعها إلى التفاعل والحركة والحياة هي نظرية دارون ومذهب فرويد
وفكرة ماركس عن التفسير المادى للتاريخ .

وبالرغم من أن الدارونية الجديدة التي قال بها « هكسلى » قد دحضت نظرية
دارون إلى الإنسان وعارضت رأية في تطبيق تجربة الحيوان عليه فقد مضت هذه النظرية
تشق طريقها في قوة .

وكأن نظرية فرويد التي تقول بأن الغريزة والجنس هي أساس تصرفات الإنسان
ودوافعه قد عورضت بنظرتي زميليه أرل ويوخ ، فإنها تسلك بقوة إلى الآداب والفنون
وأصبحت بعد زمن غير قليل أساس ضخيم من أسس الأعمال المختلفة في مجال القصة والرواية
المسرحية ، وعندى أن هذا يرجع إلى الدوافع ذات الفاعلية التي كانت قادرة على مظاهره
هذه النظريات وتأكيدها واستهداف غرض سياسي أو بشرى بميد المدى في هذا الاتجاه
ولعل نصوص بروتوكولات صهيون تفسر ذلك وتكشف عنه .

ويمكن القول أن أسس الفكر الغربى قد قامت على هذا النحو :

× تنحية القيم الروحية والأخلاقية تماماً - لأنها بحكم العالم التجريبي - من الأمور
غير الملموسة .

× المشكلات الفكرية العامة التي تعنى الإنسان يمكن أن تحل بواسطة العقل الإنسانى
ومن غير معونة من شئ . خارج عن العقل كالضمير أو الروح مثلاً .

× لم تتخل الثقافة الغربية قط عن فرديتها ووثنيتها وتمصبتها على غير الجنس الأبيض
والآري والأوربي والغربي من أجناس وأمم .

× الثقافة الغربية ترى إلى خدمة الإنسان من حيث هو بشر ، وترى إلى خدمة الإنسان
الغربي قبل غيره وعلى حساب غيره .

× الخصومة الواضحة العميقة للألوهية والروحية والأديان .

× طبق دارون وفرويد وماركس ودوركايم نظريات علم الحيوان على الإنسان ، وكانت

قاعدهم هي أن الأخلاق ليست قيمة ولا ذاتية ولا ثابتة ، وإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد فيه وأن المجتمع هو الأصل في كل الظواهر الاجتماعية وليس الإنسان .

× تحمل حضارة الغرب عدلها لأهلها وثقافتها لأهلها تنظر إلى غير أهلها من الأجناس البشرية نظرة العبيد والأتباع .

× لم تهذب النفس البشرية ولم تخفف ما للانسانية من أثره وشهوته بل زادت هذا قوة ، وجملت الترف والرفاهية هدفاً .

...

ومن خلال هذه النظرة الموجزة الشاملة للفكر الغربي في شطرية المادى والمادركسى تجمع النظريات التي يقوم عليها أساس هذا الفكر (دارون ولورنس ، ماركس ، فرويد ، دوركايم ، سارتر) على أن الإنسان حيوان ، ابن للمصادفة ، وأنه لا غاية لوجوده ، ولا هدف ، ولذلك فلا معنى للحياة الإنسانية ولا المثل العليا الإنسانية ، وإن الحياة تخبط خبط عشواء في تطورها بما في ذلك الإنسان ، وإن الحياة باطل ، ليس فيها إلا التنازع والجنس ، وقد زاد من تعميق هذا الرأى ، حربان عالميتان كبريان أكلت الملايين ، مما دفع الفكر الغربي إلى الدعوة إلى حرية الممثل وإطلاق الحركة والتصرف ، دون قيد من دين أو إيمان بالله ، ومن هنا بين والخلاف الجذرى الضخم في القيم والمفاهيم والأسس ، بينه وبين الفكر العربى الإسلامى الذى يرى الإنسان إنساناً وليس حيواناً وقد رفعت الأديان إلى مكان لم يصل إليه مخلوق غيره ، وحفلت بتأكيد إنسانيته وحمايتها .

ولعل وحيه الخلاف هو مادية الفكر العربى أساساً بينما يتمثل في الفكر العربى الإسلامى قدرته على المزاوجة المتفاعلة بين العناصر والقيم المعنوية والمادية .

وعنده أن القيم المعنوية ثابتة الجوهر ، متطورة المظهر والشكل ، تتحرك مع حركة الحياة دون أن تتخلى عن جوهرها . أما القيم المادية فهي تنير ولكنها تظل مرتبطة بجذورها الأصلية لا تنفصل عنها .

فهو مهما تطور لا يحطم الأسرة ، ولا يجعل البحث عن الطعام هدف الحياة

ولا يستبيح الوسائل في سبيل الغايات ، وتظل قيم الدين وإنسانية الإنسان قائمة أصلاً .

* * *

ولا شك أن هناك خلافاً جذرياً بين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي في أمور كثيرة وجوهية :

١ - « العقائد » وتمثل في إنكار الألوهية والأديان وجعل المادية أساساً لكل القيم .
بينما يؤمن الفكر العربي الإسلامي أساساً بالله والأديان .

٢ - « الإنسان » ويتمثل في فهم الإنسان على أنه سيد الكون وسيد نفسه .
ويرى الفكر الإسلامي أن الإنسان سيد الكون ولكن تحت حكم الله .

٣ - حرية الفرائز ويرى الفكر العربي الإسلامي وضع نظم وقيود لهذه الفرائز من أجل
حماية الإنسان والمحافظة على قواه وقيمه وهدفه الأكبر في هذا : ترقية النفس الإنسانية والسموها .

ومن هنا تقوم أسس الفكر الغربي على قواعد ثلاث :

× إقامة الحياة كلها على أساس لا ديني (Sorular) .

× التصور المادي في الفكر والحياة .

× التحلل من كل القيم والأخلاق .

وقد امتد أثر هذه النظرة وتغلغل في مختلف المفاهيم : في مجال السياسة والاقتصاد وعلم
النفس والأخلاق والتربية والفن .

• • •

أما الفكر العربي الإسلامي فقد أقام مفاهيمه على أساس امتزاج الروح والمادة
والاعتراف بالألوهية ، وقامت أسسه على أساس الترابط والامتزاج بين العلم والدين ،
والدنيا والآخرة وبين الجسم والروح « بين الواقع والمثال .

ومن شأن هذا الفهم أن يحول دون الانقسام بين جوانب الجبهة الفكرية في الاقتصاد

والسياسة والاجماع والدين ، هذه الجوانب التي تلتقي في اتجاه واحد هو النفس البشرية وترقيتها ، ومن هنا تبدو المشاكل أو القضايا وهي تعالج بمحنة منفصلة بين علماء النفس أو الاجماع أو التربية ولكونها تدرس موحدة . ومن هنا تبدو حياة انتمل والفكر والمجتمع على تقدم جميعها على أساس الامتزاج والتناسق والسلامة . وبالجملة فإن الفكر العربي الاسلامي لا يرى أن هناك ما يسمونه النظرة الدينية منفصلة عن كافة القيم مجتمعة .

وكان الفكر الغربي قد حاول بعد أن فصل الدين عن الفكر والحضارة أقامه دين جديد يقوم على المفاهيم المادية ، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى ما أطلق عليه : « ديانة الإنسانية الجديدة » ومقوماتها انكار العبث والخلود ووجود الله ، والدعوة إلى اتباع الفضائل لترقية حياة الإنسان بقطع النظر عن العقيدة التي تقول بوجود إله . وعندهم أن وجود الله أو عدم وجوده ليست من المسائل الجوهرية لأنه إذا علل الإنسان ما هو صالح في هذا العالم فقد فعل ما هو مطلوب منه سواء أ كانت له روح خالده أم لم يكن ، ولا شك أن هذه الديانة الجديدة ليست إلا محاولة من المحاولات التجريبية التي أجراها الفكر الغربي لتعطية الفراغ الروحي التي فقدته النفس الإنسانية من تبعيتها للنظرة المادية الخالصة .

وقد أثبت فشل هذه الديانة مدى اضطراب قواعدها وقيامها على أساس إنكار الألوهية التي هي الفارق الأول والأساسي بين الدين والإلحاد .

نقص هذه النظرة :

وإذا كان الفكر الغربي قد قاوم الدين ونجاء ، فإنه قد أحس بحاجته إلى بديل له يستغنى به عنه وقد تمثل هذا البديل في أكثر من محاولة في (١) العلم . (٢) المذاهب الشاملة كالقومية والاشتراكية والديمقراطية . (٣) علم النفس .

وقد فشلت هذه المحاولات جميعها في أن تعطى الحضارة الغربية بلسمًا لجراحها أو علاجها لأزمتهما . هذه الأزمات الروحية أساساً ، والتي كانت مصدراً لمذاهب القلق والفراغ والضيق .

يقول « لاسكي » : من قرن مضى كان في مقدور الدين أن يقدم للكثيرين الأمل في تعويض ما فاتهم من الحياة وذلك في الحياة الأخرى ، أما اليوم فقد أطفأ العلم أنوار السماء

ولا طريق للخلاص إلا في ظلم الحاضر العاجل . ومنذ قرن مضى رأى الناس بآفة أمل في الطاقة الصناعية الجديدة والآل وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التي تستلزم أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا دون أن يساندها مبدأ ما ، لن يصبح لها أى معنى إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف .

وقال : أن الإنسانية حاولت أن تلتهمس في بعض المذاهب الشاملة الكاملة (totalisme) شيئاً يكون دنيا أو كالدين ، غير أن القومية والديمقراطية والفاشية والماركسية لم تستطع أن تسد في قرن أو قرنين مسد الدين الذى أشبع العقول والقلوب من قرون وقرون .

ثم عاجلت الحضارة الغربية بعض أزماتها في ميدان (علم النفس) في محاولة لسد الثغرة الروحية في بناء الحضارة المادية بعلم يسير في مناهج العلوم التجريبية المادية يسير على مناهج العلوم التجريبية المادية . ونجح علم النفس حين تواضع . وأخفق حين جح بنشد فلسفة نفسية كاملة أو ديناً جديداً . وأشار في نجاحه وإخفاقه إلى القرن الثامن ، إلى الدين .

* * *

وفي ظل موقف الفكر الغربى من الوثنية الأعريقية والنظرة المسيحية التي كوتها الكنيسة ، كون رأيه في (الدين) ورآه أضيق من أن يستجيب لحركته العلمية ولتطوره . بل رآه يقف أمام حرية فكره ، فنجاه وحمل عليه . ذلك أن صورة اللدين التي واجهته أوروبا لم تكن إلا مفرقة في الرهبانية والسلبية وإنكار الحياة . ولم تكن أيضاً سوى مفاهيم غيبية لا تقوم على أساس العقل ولا ترضى الذهن ولا تعطى الروح حاجتها ومن هنا أخذ الفكر الغربى يقيم دينه الخاص ، « دين البشرية » كبديل للمسيحية ومضى يعلى من شأن الطبيعة فالعقل فالعلم التجريبي ، حتى بلغت النظرة العلمية حد « المادية الخاصة » المزججة بالإلحاد واللا دينية « أو ما يطلقون عليه اسم العلمانية » وهو تحرير الحكم والفلسفة والشريعة والاجتماع من نظرة الدين كما تمثلت لهم .

وهذا هو أفكار الفكر الغربى النظرة الصوفية الزاهدة المطلقة التي وجدها في المسيحية المتحولة إلى المادية الخالصة .

وكما تحولت علوم الفن والفلسفة والإجماع والتربية في ظل المادية عن الدين فقد تحول الفن فإذا كانت آثار ذلك على الفن نفسه . يحاول تولستوى أن يصور هذا الأثر حين يقول : أن الأديان تقدم اسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في فهمه للحياة في أى عصر من العصور ، وفى أى مجتمع من المجتمعات ، لذلك كانت الأديان على الدوام أساس تقدير العواطف الإنسانية ، فإذا كانت المشاعر التى يثيرها الفن تقترب من المثل الأعلى الذى يشير إليه الدين وتجاريه ولا تناقضه فهى مشاعر صالحة ، وإذا كانت تنأى عنه وتعارضه فهى مشاعر رديئة . لقد انجح الفن إلى طلب المتعة فى أوربا لضعف العقيدة الدينية الذى غلب على الأوربيين وبدأ منذ عهد أحياء العلوم ، وهذا الاتجاه قد حرم الفن الموضوعات الدينية العميقة وجعله يترفع إلى العمل على إرضاء فئة قليلة من الناس، وهى الطبقة الأرستقراطية، وقد فقد الفن من جراء ذلك جمال الصور ، وغلب عليه الغموض والتكلف وسار فنا متكلفاً غير طبيعى، وأن أعراض الفن عن تصوير العواطف النابتة من الإدراك الحسى الدينى جملة يتجه إلى طلب المتعة ، والمتع الإنسانية لها حدودها التى أقامتها الطبيعة فى حين أن تقدم الإنسانية الذى يصحبه ويردده الإدراك الحسى الدينى ليس له حدود ، والإدراك الدينى يتجدد كلما تجددت علاقاتنا بالعالم من حولنا » ومن هنا يبدو الخلاف واضحاً وجذرياً بين الفكر الغربى وبين الفكر العربى الإسلامى . فالفكر العربى الإسلامى يقف موقفاً وسطاً فيجمع بين المادية والروحية والعقل والقلب والدين فى مزيج متفاعل . وفى نفس الوقت يرفض النظرة المادية الخالصة والصوفية الخالصة ، وليس للإسلام كايروس ولا كنيسة ولا رهبانية ولا رجل دين ، وإنما عالم دين متخصص فى أمور الشريعة والفقه .

ولم يقف الفكر العربى الإسلامى أمام العلم أو التطور أو حركة الحياة موقف الجود ، بل كان دائماً قادراً — فى تاريخه كله — على التفاعل والاستجابة والحركة ، ومصدر قوته هى فى هذا المزيج المتفاعل . والدين عنده مرتبط بالحياة ، فيه الإيجابية والقوة والدافع إلى العمل والبناء والقدرة على المقاومة المبدان ، وفيه المزيج بين الجد والنسكاه .

اليهودية والفكر الإنساني

يمكن القول بأن الفكر اليهودي قد أخذ طابعا جديدا بدعوة « هرزل » وكتابه « الدولة اليهودية » هذا الفكر الممتد منذ ظهور اليهودية قبل المسيحية بأكثر من ستة قرون والذي كونه التوراة ، والتلمود ، ثم أضيف إليهما بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ « بروتوكولات صهيون » ولا شك أن أبرز ما يؤثر في طابع الفكر اليهودي هو الإحساس بالاضطهاد الذي واجهته اليهودية على العصور وخاصة اضطهاد المسيحية لها . ومن هنا كان صراعها الأول مع المسيحية والحضارة الغربية والفكر الغربي .

ولقد طبع هذا الإحساس بالاضطهاد كل آثار الفكر اليهودي الذي امتزج منذ عصر النهضة بالفكر الغربي ولم ينقصل عنه ، بطابع الحقد على المدينة والإنسانية ، يتمثل ذلك في مختلف الآراء التي أوردها في كتبه أمثال رومان رولان وماكس نوردو ، ونظريات ماركس وأنجلز وفرويد و دور كايم وهي النظريات التي وجهت علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وتركزت فيها آثارا لا حد لها ، والتي كانت في مجموعها تهدف إلى زرع إنسانية الإنسان ورده إلى غرائزه وفتح الطريق أمام دوافعه الجنسية ودفعه إلى الحرية المطلقة وتدمير كل القيم والنظم في مجال الدين والأخلاق والمجتمع ، والقضاء على نزعات الخير والمعدل والحق .

فقد صدرت هذه الدعوات وهذه الأفكار من نفوس مضطهده تحمل طابع رد الفعل متمثلا في الخصومة للحضارة والجنس والدين ومفعمة بشعور الاضطهاد ، بل إن هذه الشخصيات التي تصدرت مجال الفكر وأوجدت لها اليهودية العالمية مجالا ضخما لنشر آرائها وتوسيع دائرتها في مجال الأدب والفنون والموسوعات المالية ، هذه الشخصيات عندما تدرس يوجد لها من انحرافات النفس والعقلى ما يدفع إلى الشك في استواء فكرها وعجزها على فهم الإنسانية والإيمان بها والعمل من أجل إسعادها .

ومن النظرة إلى التلمود، وعصاريته في « بروتوكولات صهيون » تنكشف النظرة اليهودية إلى الفكر الإنساني وإلى الحضارة وإلى الإنسانية في طورها الحديث المسمى « بالصهيونية » ، هذه النظرة التي تدفعها أهداف عميقة بعيدة المدى في السيطرة على العالم والإنسانية على أساس

مفاهيم اليهودية بأنها شعب الله المختار ، وملح الأرض ، والأمة الفضلى ، وبأن كل ما سوى اليهود عبيد وأن العالم كله مسخر لخدمتهم .

ويتصل بالتلمود وبروتوكولات صهيون، تلك الجماعة الضخمة البعيدة المدى : «الماسونية» التي نفذت منذ مئات السنين إلى كل المجتمعات وأقامت محافلها الضخمة في الشرق والغرب وفي العالم الإسلامي وضمت إليها عظماء هذه الأقطار وحكامها واستطاعت أن تسيطر وأن تفرض سلطانها سرًا وتنفذ رغباتها .

ويتصل بهذا فريق « الدوغة » الذي أسلموا في عهد السلطان محمود في تركيا لينجوا من اضطهاد رؤسائهم والذين أقاموا في «سلانيك» منغزلين عن المسلمين مؤثرين فيهم بالنفوذ العسكري والمالي وقد نسب إلى هذه الطائفة عدد كبير من أبرز حكام تركيا ودعاة الحرية والدستور والتغريب والنفوذ الأجنبي بها . ومن هؤلاء جاويد بك وزير المالية الذي استطاع أن يقذف بأكبر عدد من الدوغة إلى كبريات المناصب ودواوين الحكومة ..

ولا سبيل إلى معرفة أثر اليهودية في الفكر الإنساني إلا بالنظر إلى دورها الضخم الخطير في مجال السيطرة المالية والاقتصادية في العالم كله ونفوذهم الواسع في الولايات المتحدة ومن قبل في بريطانيا وأعمالها ذات الأهمية في مجال العلم التجريبي والثروة والصواريخ والقنابل المدروجية فإن أساطين هذا العلم في أمريكا وروسيا على السواء من اليهود .

وقد عرف اليهود بذلك المجتمع المحدود بهم ، وهذه العزلة عن البشر ، باعتبار أن دينهم ليس دينا عاما وإنما هو دين خاص ، وقد كان لهم أثر ضخم متصل في تطور الحضارة الغربية منذ عصر النهضة إلى اليوم ، هذا الأثر الجذري المترج بالحضارة الغربية في مختلف فروعها الفكرية والتجريبية حتى يمكن أن توصف هذه الحضارة بأنها حضارة ممتزجة : (مسيحية يهودية) .

غير أن دورهم في الحضارة وهم أهل المال والربا كان بعيد الأثر في دعم الجانب التدميري للأخلاق والقيم ، ويجمع الباحثون على أن التجارب الاقتصادية والاجتماعية قد كشفت عن أن البلاد التي ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والتراحم وحلت القسوة فيها محل الحنان والعدل .

ولاشك أن طابع اليهودية في الحضارة الأوربية واضح ، وهو الصراع على المطامع المادية ودفع مرجة حيوانية الإنسان والقضاء على الدين والأخلاق كوسيلة للعمل على تدمير المسيحية والقضاء على الإسلام وتغليب اليهودية (ديناً وجنساً) وأداة ذلك فتح الطريق أمام الحرية المطلقة وتدمير القيود الأخلاقية والاجتماعية والدينية وليست وسيلته عن طريق أثرطة الصور المتحركة « واختراع الرقص الخليع بأنواعه ، ومسابقات الجمال واختيار ملكات الجمال ، ونواذى العراة .

ولكن بتعميق هذا الاتجاه تمقيله وتحويله إلى عقائد عن طريق دراسات الفكر وعن طريق النظريات العلمية الموضوعة بدقة وفق مناهج البحث العلمي وفي مقدمة هذه نظريات لورنس وينتشيه وهافلوك أليس ، ووليم جيمس وماركس وديوى وفرويد ودوركايم ، ثم في مجال الأدب العالمي : ماكس نوردو ، وهوتيمان وتومسان مان ، ومورد .

وقد دعت كتابات هؤلاء مع كتابات جوزيف كيسيل وموريس ديكوروا وغيرهم إلى عبادة اللذة والشهوة والمجون ونشر صحف المجون وقصص الدعارة والصور المارية واعتبارها من أدورع أعمال الفن ، ونشر أخطر الكتب المخطورة على أذهان الشعب « وأفلام الجرائم وقصصها » ونشرها تحت ستار التحقيق الجفائي ، وذلك كله للتحريض على اقترافها وتوجيه الجماعات إلى التحلل من كل القيم والخلق والفضائل والأدنان

* * *

X هدم الحضارة : ويؤكد كثير من الباحثين الغربيين أن اليهودية تقاسم على الحضارة ، يقول ييلمان في كتابه « اليهود الماصرون » لقد حاول اليهود أن يهدموا حضارتنا ففضية دريفوس علمتنا كثيراً من دأب اليهود على إنتاذا رجالهم مهما كلفهم الإنتاذا من مال وجهد . دفع روتشيلد أكثر من مليوني جنيه في قضايا دريفوس ودفع بيت روتشيلد عشرة ملايين روبل ذهباً لإنتاذا بصروف اليهودى الروسى ويرى ييلمان : أن فرويد خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الإمبريقية ومجد الفريزة وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفلا يجسدهما ما شاء الشبق السكامن في حنايا ضلوعهما « فالتهمت الجنسى لا حدة له في رأيه ، والولد ينار على أمه من أبيه ويود لو يموت الوالد ليحل محله ، أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس .

أما توماس مان فقد برر عشق الذكور (الموت في البندقية) ووصف مرضى المصدر كحيوانات متماشقة تتخذ من يأس الشفاء عنراً للتسائد ، فصحات الجبال مواخير المرضى تحت مراقبة الأطباء الذين لا يملكون منهمهم (قصته الجبل المسحور) .

ويعصف الباحثون الفرييون اليهودية العالمية (مثلة في الصهيونية) بالحقد على الانسانية والتخريب ، وأن اليهودية لا تخلق حركة اجتماعية على إطلاقها ولكنها لانكاد ترى حركة تنبع حتى تسارع إلى استغلالها وتوجيهها إلى ما يخدم مصالحها ، ويحاول بعض المفكرين أن يستشهد بنصوص التوراة والتلمود وبروتوكولات صهيون التي تصور في صراحة وجراحة منطق « اليهودية » في تدمير الانسانية فالتوراة تقول « ليت جميع الناس ويحميا إسرائيل وحده » يرفعك الله فوق جميع الشعوب في الأرض ويملك الشعب المختار المقدس « وفي التلمود « يباح لاسرائيل اغتصاب مال أى كان ، وأن أملاك غير اليهود كلنال المتروك يحق لليهودى أن يملكه . وكأ أن بنى الانسان يسمون على الحيوانات فإن اليهود يسمون على شعوب الأرض جميعا »

X صرلح اليهود مع المسيحية : وقد وجهت اليهودية إلى المسيحية حملة ضارية تبذو واضحة المعالم في التلمود وبروتوكولات صهيون فقد أشار التلمود إلى ما أسماه ولادة المسيح غير الشرعية ، واستعماله للسحر ، كما هاجم الكنيسة والقديسين والأسرار « هذا فضلا عن عشرات من المؤلفات التي تطعن المسيحية والمسيح والكنيسة ، ولا شك أن هذه الخطوات الواسعة التي خطتها اليهودية في سبيل السيطرة على الحضارة الغربية والفكر الغربي قد حققت نتائج خطيرة ، فاليهود هم الذين صنعوا الماركسية أساساً ودفعوها إلى الأمام ، وفي بروتوكولات صهيون إشارة إلى ذلك « البولشفة بنت اليهودية » ترعرت وشبت في أحضان اليهود حتى اختطفها ستالين من أيديهم »

وقد كشف إميل الخورى في كتابه « مؤامرة اليهود على المسيحية » عن النصوص الخطيرة في بروتوكولات صهيون للقضاء المسيحية والسيطرة على الحضارة الغربية وإشارة اليهودية إلى تأييدها لنظريات دارون ماركس ونيقشة : « لاحظوا أن نجاح دارون وماركس

ونيتشة قد تبناه من قبل ، وأن الأثر غير الأخلاق لا اتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي
(غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد »

كما أشارت البروتوكولات إلى الثورة الفرنسية « اذكروا الثورة الفرنسية التي تسميها
السكبري » إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا » .

أما المسيحية فقد وجهت إليها البروتوكولات نبوءات خطيرة « لن يطول الوقت
إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بدءاً انهياراً تاماً . وسيتبقى ما هو أيسر علينا للتصرف
مع الديانات الأخرى » وقالت البروتوكولات « حينما يحين لنا الوقت كي نحطم البلاط
البابوي تحطيماً تاماً فإن يبدأ بمجولة مشيرة إلى الفاتيكان ستعطي إشارة الهجوم وحينما يقذف
الناس ، أثناء هياجهم ، بأنفسهم على الفاتيكان سنظهر نحن حكماء له لوقف المذابح . بهذا
العمل سننفذ إلى أعماق قلب هذا البلاط وحينئذ لن يكون لقوة على وجه الأرض أن تخرجنا
منه حتى نكون قد دمرنا السلطة البابوية .

ولن نهاجم السكائنات القائمة الآن حتى يتم إعادة تعليم الشباب عن طريق عقائد
مؤقتة جديدة » ثم عن طريق عقيدتنا الخاصة بل سنحاربها عن طريق النقد الذي كان
وسيطاً ينشر الخلافات بينها » .

* * *

وفي ظل هذه الآراء ظهرت الحركة المضادة (الاسامية Anti - scmittism) التي يقوم بها
الفكر الغربي باعتبار اليهودية قوة خفية تحاول تدمير الحضارة والسيطرة على الفكر البشري .
ويحاول الفكر الغربي بأن يتهم الفكر اليهودي بالسطحية ، ويقول مستشرق ألماني
أن السامى لا لذة عقلية عنده « ولا تسهويه الطبيعية ، ولذا لم يبرز في العلوم الطبيعية ولم
يكشف شيئاً من أسرار الكون الطبيعية . وأن الخلق السامى أناني فردي لا يخضع لزعامه
ولا ينظم في نظام .

والمعروف أن الأقليات الكثيرة من الأمم قد ذابت في المجتمع الغربي الكبير ما عدا
اليهودية التي حافظت على لغتها ودينها .

ولقد عملت الكنيسة على اضطهاد اليهودية وتابع ذلك اضطهاد سياسي وعرف دائماً ما يسمى بحى « الجثو » وهو الحى اليهودى الرهيب فى المدن الأوربية الكبرى الذى يجبر اليهود إلى الإقامة فيه .

واستطاعت اليهودية كرد فعل لذلك إلى التغلغل والتسلل إلى جبهات الثقافة والفكر والتمثيل والموسيقى والصحافة والحمام والطب والنشر حتى أصبح نفوذها كبيراً « بعيد المدى » هذا النفوذ قد ارتبط فعلاً بالحركة الصهيونية التى حمل لواءها « هرزل » والتى استطاعت أن توجه أبحاث التاريخ والموسوعات العالمية على النحو الذى تريده اليهودية فأجريت تحريفات لاحد لها للإسلام وتاريخه ومفاهيمه وإلى العالم الإسلامى واللغة العربية .

وقد اتسع هذا النفوذ حتى أصبح يمثل شبه سيطرة كاملة على جوانب الفكر الغربى كله ، وقد انغمس فلاسفة يهود يوحناون فى أعماقهم مطامهم وأحقادهم فكان لهم أثرهم أمثال سينيزا وهينى ومندلزون واستطاعوا أن ينتفعوا بالعقائد الجديدة : كالديمقراطية والاشتراكية التى حققت خلاصهم من العزلة .

وبالرغم من حملات المفكرين على اليهود كقول تشمرلن إن اليهودى غريب عن الحضارة الغربية لأن روحه لا توأعها ، فإن اليهودية استطاعت أن تسيطر عن الفكر العالمى والحضارة الغربية وأن توجهها وجهة خطيرة ، فقد كان لها دورها فى فرض عوامل الإلحاد والإباحة والكشف وهدم القيم والأخلاق والأديان .

وقد ظلت ترى المسيحية بالضعف والجن والسلبية ، حتى نقض الفكر الغربى يديه منها نقضا . وكان لها دورها فى إذاعة هذه الآراء وتأكيدها ، كقول نيتشة فى كتابه المسيح الدجال : (Anti - chriet) إن الرجل الأوروبى بدأ بالتقهقر خلقياً وعقلياً عند ما اعتنق الدين المسيحى . وكتاب لوفيج عن المسيح الموسوم بـ (ابن الإنسان) وكتاب شفيتر عن المسيح ، هذا الكتاب الذى يقول عنه سلامه موسى : « أن شفيتر ألف كتاباً عن المسيح وعالج حياته بمشروط (فرويد) بما لا يرضى المسيحية » وقد قرأت الكتاب وأحسست وأنا فى الفصول الأخيرة أن الحلوى التى كنت أوكها بلسانى قد استحالت إلى علقم مر لا أسيفه ولا أطيعه .

فلسطين ليست غير العرش التي ستولد منه المدينة اليهودية المستقبلية .

* * *

وقد أشار أكثر من كاتب ممن كشفوا محاولات اليهودية للسيطرة على الفكر البشري والحضارة العالمية أن الكتاب الذين يجرى في عروقهم دم يهودي كانوا طليمة الدعاة إلى المذاهب المنافية للدين والآداب والمجتمع .

ويعتقد دستويافسكي أن اليهود قد احتضنوا الماركسية معتقدين أنها ستقتلع أصول المسيحية وتلاشي تمدنها ، وأن هدفهم من بث الدعاية الخبيثة المبادئ للأفكار باسم المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية إنما يهدف أن تسود روح هذه المبادئ على روح الإنجيل .

وقد أشارت رونوكولات صهيون إلى ذلك في أكثر من موضع ومن ذلك قولها : « أن دارون ليس يهوديا ولكننا عرفنا كيف تنشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين » وفي قولها « لقد ربنا نجاح دارون وماركس ونيشة بالترويج لأرائهم ، إن الأثر الهدام للأخلاق التي تنشئ علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد » .

وحلة آراء هؤلاء بالإضافة إلى دور كايم ولورنس وسارتر تتمثل في احتقار الدين وتحطيم الأخلاق واعتبار الإنسان حيوان . فاركس يرى الدين أفيون الشعوب ، ومجموعة من الأساطير لتخدير الجماهير السكادحة ، وفرويد يرى أن الدين ناشئ عن الكبت ومن عقدة أوديب ، ودور كايم يرى أن الزواج ليس من الفطرة وأن الأخلاق والمجتمع والزواج من صنع العقل الجمعي الذي لا يثبت على حال .

ويذهب الباحثون إلى أن اليهودية عملت على تحطيم المسيحية عن طريق قيام النهضة على أساس لاديني (مصدره (١) فصل الدين عن كل عناصر الفكر والحياة (٢) حيوانية الإنسان .

وعلى ضوء هذه النظرات يمكن القول بأن سياسة اليهودية التي رسمها مؤتمر حكماء صهيون عام ١٨٩٧ قد خطت خطواتها العملية في ظل الحقن على العالم واستغلال كل الدعوات

والجيب أن اليهود قد استعاضوا أن يحماوا كثيرًا من المسيحيين على أن يكتبوا مثل هذه الكتب وأن يذيموها، كما تحول كثير من اليهود عن دينهم فأعلنوا أنهم مسيحيون من أجل حرية الحركة في مهاجمة المسيحية .

ومما يتصل بهذا ما تأثرت به موسوعات دوائر المعارف الغربية بل ودائرة المعارف الإسلامية التي كان يشرف عليها كتاب يهود. ومن هنا ظهرت عديد من نظريات تزييف تاريخ الإسلام والعرب، بل إن كثيرًا من الكتاب العرب والمسلمين كانوا بقصد أو بغير قصد خدما لليهودية والفكر اليهودي، وقد حفلت الصحف في مطلع هذا القرن وإلى الأربعينات ببحوث ضافية عن اضطهاد اليهود وحرقهم وعقريتهم في الأهرام والقطم والحلال والمقتطف والمجلة الجديدة والمصور .

ومن هذه الأبحاث ما كتبه عمر عنایت عن ما أسماه^(١) (الدنية اليهودية) يقول «أعتقد أن عهد ما تسمونه الدنية المسيحية — مدينة أوروبا الحالية — على وشك الزوال وبالطبع ستقوم مقامها مدينة أخرى اعتقد أنها ستكون أكثر اهتمامًا بالماديات من الدنية الحالية والسكن على نسق آخر. من السهل ملاحظة التسيطر المالي اليهودي الآخذ بمخناق العالم، كذلك يشعر المفكرون أن اليهود قد أثروا في توجيه الرأي العام إلى جهة غير الجهة التي كان يتطلع إليها، وأنهم قد استفادوا من الفلق الاقتصادي الذي نتج عن الحرب وأنتك إذا بحثت كل حركة هدامة أو مبددة في الوقت الحاضر تجد أن محورها الدعاية اليهودية . الأمر الذي يمكننا مشاهدته متجلبًا في موقعتين : أولاً في (روسيا) ثانياً في (فلسطين) .

وهذين الموقعين هما بحق مريض المدينة المستقبلية . ففي روسيا تجد الثورة تركيزها الدعوة اليهودية التي تجد المجال فسيحًا لمهاجمة المسيحية — حاملة علم الدنية الحالية — أما في فلسطين فسياسة اليهود تختلف . حيث يريدون أن يشيدوا في فلسطين نقطة ارتكاز يوجهون منها جهودهم .

وأن روسيا هي معمل البارود البلشفي الذي يعمل على نفس الدنية المسيحية فإن

(١) المصور (فبراير — ١٩٢٩) .

والمذاهب الحديثه لتتحقق سيطرتهم الكامله على العالم . وانهم الموجهون لدعوات الإلحاد والإباحه والسيطرة على أنظمه الاقتصاد العالمى على اساس سيطرتهم على الذهب الذى يحتكره اليهود ، وانهم كانوا دائماً وراء الرأسماليه والشيوعيه جميعا ، يثيرون مخاوف كل جناح على الآخر حتى لا يلتقى العالم فى مهادنه تقيه شر الصراع .

وقد أشار إلى ذلك الحاخام عمانوئيل ايفانوفيش حين قال : « ان اثارة روح الحرب بين امريكا وروسيا إنما تهدف إلى ان يضعف الخصمان وتتضعف قواهما ثم تتم السيطرة اليهودية على العالم » ا. ه .

ولاشك أن أغلب الشبهات والشكوك التى حملت لوائها دعوة التغريب والشمويه والنزوات الثقافى كانت من صنع الفكر اليهودى الصهيونى ، الذى كان يسيطر قبل عام ١٩٥٢ على الصحافى العربيه فى مصر ، وكانت دعوات تمجيد دارون فرويد ونيتشه وسارتر وغيرها إنما تقبعت من مخطط مدروس ، يجرى فى ظل الفكر الغربى اصلاً ، ولكنه يستهدف شيئاً أبعد مدى هو تمزيق الفكر العربى الاسلامى واثاره الشبهات والادواء وزعات التشكيك فيه حتى يسقط .

وبالجملة فإن الفكر اليهودى يسمى الى السيطرة على الفكر الانسانى وذلك بالقضاء على الفكر الغربى والفكر العربى الاسلامى جميعا .

الكتاب الثالث

التغريب والشعبوية



تغريب الشرق

ليس شك أن حركة « تغريب الشرق » wastrutam هي دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائها ولها قادتها الذين يقومون بالإشراف عليها ، وهي حلقة من مخطط واسع في تأكيد الاستعمار ودعمة ، قوامها عمل استعماري فكري بعيد المدى قصد بها القضاء على معالم شخصية هذه الأمة وتحويلها إلى صورة غربية الملامح لتخليصها من القيم والمثل والتراث الذي يتصل بها والذي كان عاملا على تكوينها خلال الأجيال الطويلة .

كان الاستعمار يفهم أنه بعد أن سيطر على « العالم الإسلامي » بجيوشه وقواه العسكرية وتنفذه السيامي لا بد يوما أن ينسحب ، فكان لا بد من وضع مخطط دقيق لبقاء نفوذه في المناطق التي احتلها ، وكان لا بد له أن يبق حتى تتكون له طلائع تخلفه من أهل الاقطار نفسها ، تؤمن بفكره ، وتسير في اتجاهه ، وتخدم مصالحه ، تتكون عن طريق التعليم في مدارسه ، ووفق أهدافه ، وتكون أمانتهم له أكثر من أمانتهم لأوطانهم .

وليس كل من تنقف بالغرب ، أو اتصل بالمشترقيين ودوائر الفكر الغربي كذلك . وليس كل من اتصل بالغرب وآمن به استمر على إيمانه ، فإن الحقائق لا تلبث أن تنكشف عن زيف الاستعمار ومغالطته ، فلا يلبث الأمر أن يظهر أن هناك خداعا قوامه كلمات براقة ، وشعارات تقول بتنوير الشعوب وتعدنها وتدعو إلى الحرية أو الأخاء أو المساواة ، أو ماشابه ذلك ، ثم لا تلبث الأحداث أن تثبت تعصب الغرب وتناقضه ، وإتباعه بهذه الأمة وفرض سلطانه بالحديد والنار ، هنالك تتحول الأفكار عنه ويكفر به من كان قد خدع يوما .

ولسنا في هذا نذهب إلى النض من شأن الفكر الغربي أو نصرف وجوهنا عنه ، بل على العكس من ذلك ، نحن لا نراه فكرا غريبا وإنما نراه فكرا إنسانيا في الأساس وإن انحرف في بعض مفاهيمه ، ونحن لا نقفل أبوابنا أمام الثقافات المالية شرقية وغربية فقد شاركنا فيها ، وكان لنا دورنا الكبير في بناء هذه الحضارة ، دورنا غير المنكسر عند المنصفين من كتاب الغرب ومفكرية .

ولكننا قبل أن نتفتح الأبواب لكل الثقافات لا بد أن نكون من مثانة الاستعداد النفسى والذهنى والروحى بحيث لا تقتلعنا ثقافات الأمم ، ولا تحولنا وجهة غير طريقنا ، ولا تفسد معالم شخصيتنا الأساسية الواضحة . فلقد نقلت أوروبا ثقافتنا العربية الإسلامية وأقامت عليها أسس حضارتها ومع ذلك لم تتحول وجهها عربيا أو إسلاميا أو شرقيا .

كذلك نحن أمة ، لها مقوماتها وكيانها ووجهها ذى الملامح الواضحة ، فلا بد أن يبق هذا « الأساس » ثم لناخذ ما نشاء من حضارات الأمم وثقافتها ، ما يزيد شخصيتنا قوة وحياة ويدفعنا إلى الأمام فى ركب الحضارة .

ولعل « حركة التغريب » لم تكن قاسية إلا بالنسبة لهذا الأمر ، فقد كانت صحيحة على لسان دعايتها وانباعها من كتابنا ، أن الحضارة الغربية كل لا يتجزأ وأنه لا بد من أخذها جميعا ، أو تركها جميعا ، وهذا رأى مدخول ، فيه من الخطأ والاستهانة بالفكر نفسه ما فيه ، فما من أمة تستطيع أن تأخذ كل ما عند الأمة الأخرى ، ولقد عاشت الأمم تتقارض الحضارات وتقتبس الثقافات دون أن تتحول عن طوابعها أو مقوماتها الأساسية .

ولقد كان الاستعمار والنفوذ الأجنبى يعرفان أن السيطرة الكاملة على هذه الأمة أمر مستحيل ، فإن لها من مقومات شخصيتها القوية الصامدة العنيدة ، ومن أسس فكرها العربى الإسلامى القرآن ما يحول دون الاستسلام أو الركوع أو الخضوع لأى قوة خارجية أجنبية ، فكان لا بد من الحملة على هذه المقومات للقضاء عليها وتحويل وجه الأمة إلى قيم أخرى تدمر كيانها وتفرض عليها التسليم للقوى الخارجية فى أن تسود وتمتد وتتوسع ، وبذلك يبق الاستعمار حيا فى صورة أخرى من صور النفوذ الفكرى .

إذن فالتغريب أساساً محاولة لـ « تغيير المفاهيم » فى العالم العربى والإسلامى والفصل بين هذه الأمة وبين ماضيتها وقيمها ، والعمل على تحطيم هذه القيم بالتشكيك فيها وإثارة الشبهات حول الدين واللغة والتاريخ ومعاليم الفكر ومفاهيم الآراء والمعتقدات جميعا .

ولقد صور لورد كرومر منهج هذا العمل الذى اسطنته فرنسا وانجلترا وهولنده

في العالم الإسلامى حين قال : « أن الشبان الذين يتلقون علومهم في إنجلترا وأوربا يفقدون الثقافة والروحية لوطنهم ، ولا يستطيعون الانثناء في نفس الوقت إلى البلد الذى منحهم ثقافته فيتأرجحون في الوسط ويتحولون إلى مخلوقات شاذة ممزقة » .

وكان هذا بالطبع هو الهدف من الارساليات المختلفة التى غزت بلادنا في صورة مدارس وجامعات وفي البعثات الموجهة إلى أوروبا وإلى عواصم الدول المحتلة بالذات .

وفي هذا « قال «جيران» أن الشاب الذى تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي ، والشاب الذى تجرع رشفة من العلم يسوعيه صار سفيرا لفرنسا ، والشاب الذى لبس قيصا من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا ، وكان هذا هو الحق إلى حد كبير ، فقد غزا الغرب الشرق . بحجافل من العلماء والبشرين والمستشرقين والأثريين والمصنفين ، وشيدت مؤسسات ضخمة في مختلف عواصم العالم الإسلامى فتتحق أبوابها لثقافات بلادها . وبدأ هذا النفوذ الفكرى يعمل وسيطر في مجالات المدرسة والجامعة ، والصحافة ، والثقافة والتربية والطب والسينما والاذاعة .

وهكذا كان « التغريب » عملا خطرا دقيقا قوامه الحرب المنظمة للقيم التى عاشت عليها أمتنا ، في أسلوب منغل بالضباب يحاول أن يثير غمامه كثيفة من التشكيك والتحقير والاستهانة بكل ما لدينا من قيم باسم « القديم » البالى الموروث ، ولم تحض سنوات قليلة حتى كان أبرز المسيطرين على « الصحافة » في العالم العربى والإسلامى من هؤلاء المتنكرين لقيمنا الذهبيين مع التغريب في طريقه « والصحف الوطنية ذات المبادئ كانت تسقط واحدة بعد أخرى » بينما ظلت الصحف التى تتخدم التغريب تقوى وتتسع . وفي مجال « الترجمة » كان الهدف هو بث فكر جديد قوامه القصص المكشوفة ، والآراء السمومة ، وفي مجال المدرسة كانت تقدم الكتب التى تنقص من قدرنا وتصف تاريخنا بالضعف وماضينا بالذلة وسيطر على الجو الفكرى كله تيار جديد هدام قوامه الاستهانة بكل القيم وفي مقدمتها الدين والروحية ، كما فرضت الحضارة على بلادنا أسوأ ثمراتها ، لم ترسل لنا إلا تجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو بنية تحطيم كيان المجتمع ، وبدت في جو مجتمعا ربح تدعو إلى الرخاوة واللذة والتخلص من كل القيود .

ولم تكن هذه الدعوة تهدف إلا إلى تدمير القيم الأساسية لهذه الأمة ، قيم المقاومة والعلامة والتصميم وتحويل نظر الأمة عن الجهاد والتضحية والفداء في سبيل الحرية .

كان هدف التغريب واضحاً هو محاولة قتل شخصيتنا ، ومحو مقوماتها وتدمير فكرها ، وتسميم بناييع الثقافة فيها . وفي هذا المجال برزت الدعوة إلى التحرر من طابع العروبة وطابع الدين وجرت الشعارات الجديدة في الارتباط بحضارات البحر الأبيض ، وبأن مصر جزء من أوروبا ، وبرزت دعوات الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والآشورية في العراق ، وبرزت التمرات القديمة باسم مسيحي ومسلم ، وعربي وبربري ، وعربي وكردى ، وكان الاستعمار هو الذى يحمل لواء هذه الدعوات ويشيرها ويقبل جرحها ، ويخرجها من كهوف الماضى ليمنحها الحياة ويجمع حولها بعض أعوانه عن طريق الفكر والكتابة بنية تقسيم الأمة .

ولم يمض طويل حتى اعترف كتاب الغرب بحركة التغريب وجاءوا يبحثون مدى ماوصلت إليه وما حققته من هدف . وقال جب في كتاب « وجهة الإسلام » : أن حركة التغريب كانت بعيدة المدى في إزاله الاسلام من عرشه في الحياة الاجتماعية .

* * *

وقد عملت « حركة التغريب » في عدة ميادين ، بدأ العمل فيها غربيون نزولوا إلى المركة ثم أسلموا مقاليد الأمور من بعد إلى كتاب من العرب والسلمين ، حتى يبعثوا الثقة في نفوس المواطنين إلى الصوت الأليف الذى يجد الصدى ، وفي كل ميدان من ميادين العمل كان النفوذ الأجنبي يجد من يماونه من أبناء الأوطان ، وإذا كان هجومه على الدين كان قاسياً فإن من المؤسف أن نجد كثيراً ممن حمل لواء هذا الهجوم من الذين ثقفوا أول الأمر ثقافة إسلامية وكانت اللمنة والدين في الأغلب هما الميدانان الكبيران للعمل البعيد المدى ، وأن كان التغريب لم يترك ميداناً دون أن يوغل فيه ويسمعه ويبحث فيه الشك .

وكانت كلمة « حرية الفكر » والتقدمية ومقاومة الرجعية ، والتطور من الكلمات البرافة التى لعبت دوراً كبيراً في خداع الجماهير .

واستطاع التغريب أن يجد المنافذ المرنة الماكرة إلى ما يريد دون أن يصطدم بالعقائد ، أو يواجه المواقف الحرجة ، وأن كان البشرون قد هاجوا المقومات صراحة « وقاموا بعملهم في غف أول الأمر ، فإنهم لم يلبثوا أن تحولوا عن هذه الخطة ، واختفوا من السرح » واستبطنوا أهدافهم ، وحولوها إلى صورة أخرى أكثر دقة ومكرا . فبرزت أحداث صورية فيها تمجيد للدين واللغة ومقومات الأمة فإذا تחדت أفكار القراء . ووثقوا بالكتاب وكتاباته ، بدأت عملية التشكيك الخفي ، المدخول الدقيق ، بل أن بعض الكتاب الذين عملوا مع التغريب وهاجوا المقومات الأساسية في أول الأمر ، لم يلبثوا بعد قليل أن تحولوا مظهرًا ، وخاضوا الحديث في أقدس مقدسات الأمة ؛ عاملين على كسب الثقة الشعبية العامة في هذا المجال ، حتى يتأتى لهم من بعد أن يحققوا في الخفاء ما يهدف إليه دعاة التغريب ، لقد اختفت المركبة من السرح ، ودخلت إلى الكواليس ؛ فكان مجال العمل ، هو مناهج التعليم نفسها ، أو مقالات الصحف أو فرض المذاهب الفكرية الغربية ، وتأكيدها والاختفاء ورائها . وخاصة ما يتصل منها بمقاومة القيم العربية الإسلامية ، كالمذاهب المادية والنظريات الفلسفية والنفسية التي تدمر قيم الإنسان وتمريه وتكشفه على نحو يقلل من كرامته ، وفي هذا المجال ظهرت عشرات من النظريات والمذاهب والفلسفات المضطربة المذهبة في كل مجال ، وكان من شأن إذاعة هذه المذاهب والنظريات أحداث بليلة فكرية من شأنها أن تقضي على الإيمان بالمقومات الأصلية . وتدفع الفكر العربي الإسلامي في متاهات وتخبطات .

بل أن الخطط التي قدرها التريبيون إزاء موقف المسيحية الغربية والكنيسة حين حاولت أن تقف أمام النهضة والحضارة ، جرى نقلها إلينا مع الفارق البعيد بين موقف الإسلام من الحضارات والنهضات وموقف المسيحية ، فلقد كان الإسلام قادرا دائما على مواجهة كل تطور ، وفيه من الساحة والتفتح والاستجابة ما جملة صالحا لكل زمان ومكان « فكان هذا الاتجاه في نقل موقف الغرب من جود الكنيسة ليس إلا لونا من هذه البليلة الفكرية التي هي قوام دعوة التغريب .



ولم تكن حملات التغريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة والدين في الشرق

قائمة على أساس على نحو ما يذهب إليه أسلوب البحث العلمى الأصيل ، وإنما كانت حملات يغلب عليها الهوى والتعصب ، وتسيطر عليها ربح الحقد والاستعلاء وخلق الفوارق البعيدة بين الجنس الأبيض وغيره من الأجناس مع سيطرة فكرة التفرقة بين أصحاب الحضارة وبين الشعوب التى كان لها دورها من قبل فى حمل أمانة الحضارة ، حين كانت أوروبا تعيش فى الوحل والظلام ، فإذا أضيف إلى هذا ذلك الإصرار العجيب على إنكار فضل العرب والمسلمين على الحضارة على نحو فيه مغالطة وإنكار لوقائع التاريخ نفسه ، تبين إلى أى مدى يذهب دعاة التغريب ، فآسيا هى التهريرة ، وأوروبا هى المتحضرة ، وليس أكذب ولا أبعد عن الحقيقة ما يحاول الغربيون أن يقولوه فى هذا الحال من أن التاريخ والحضارة قد بدأت من أثينا ومرت على روما . . . ثم اختفت ألف سنة لتظهر من جديد فى حركة النهضة . أما قبل أثينا فليس شئ ، وأما ما قبل النهضة فلا شئ ، وفى هذا رأى ما فيه من الخطأ ومجافاة الحقيقة .

والواقع أنه كانت قبل أثينا حضارات النيل والفرات ، وقبل النهضة كان المسلمون والعرب فى دورهم الضخم البعيد المدى حين حملوا لواء الحضارة والفسكر ، وترجموا آثار اليونان وزادوا فيها وأضافوا إليها وحققوا الأسس الكبرى التى قامت عليها الحضارة فيما بعد .

- * *

والحق أن حركة تغريب الشرق قامت على المغالطة والتضليل ، ومحاولة مسح القيم والمقومات العربية والإسلامية وإدخال قيم ومقومات جديدة تهدم شخصيتنا وتصبّرنا مسخلاً لا هو من الشرق ولا هو من الغرب ، ثم هى بعد ذلك تنسكرونا وتحاول أن تنفض من شأن لفتنا وتاريخنا وتراثنا على نحو لا يصمد أمام البحث العلمى الصحيح ، وهو ما سنكشف عنه بتوسم فى مختلف مجالاته وجوانبه .

حركة التغريب

إن أبرز ما تهدف إليه « حركة التغريب » هي تغيير المفاهيم الأساسية والقيم الأصيلة للأمة ، هذه المفاهيم والقيم التي كونتها وطبعها مقومات من الأرض والمكان ، والثقافة والعرق والذوق . فليس شك أن مقامنا في هذه للمنطقة ذات الطابع المعتدل من الحصب والنماء وزول الأديان الساوية الثلاث بها والتقاء الأجناس والشعوب منذ أربعة عشر قرنا على ثقافة لها طابع موحد مشترك ، إنما أعطى صورة مكتملة للفكر العربي الإسلامي .

ومن هنا تجيء دعوة التغريب التي تحاول أن تلقى بذور الشبهات حول عربتنا أو أسلافنا أو شرقيتنا فنقول بأننا جزء من أوروبا « أو من حوض البحر الأبيض » أو تحاول أن تفسر الصلات بيننا وبين الغرب على النحو الذي يقضى على كيانتنا وطابعنا أو دعواهم بأن الحضارة تراث مشترك للإنسانية وعلينا أن نأخذها : خيرها وشرها ما يحمد منها ويعاب .

وفي هذا كله تمويه لحقائق لابد أن تكون واضحة في أذهاننا حول قضايا ثلاث :

(١) المعرفة والعقيدة .

(٢) الشرق والغرب .

(٣) الحضارة والثقافة .

(٤) الأساس والبناء على الأساس .

ذلك أن هناك مفاهيم واضحة حول الفرق بين المعرفة والعقيدة « فالمعرفة إنسانية والعقيدة مرتبطة بالأمة وثقافتها في الأغلب .

فالشرق له مفاهيمه وعقائده والغرب كذلك « وقد اتسمت ثقافة الشرق بالروحانية وعرفت ثقافة الغرب بالمادية « أما المنطقة العربية الإسلامية فقد عرف فكرها بمزاج الروح والمادة والدين والعلم « والعقل والقلب .

ومن هنا يكون وجه الخلاف في المفاهيم والقيم ، ومن هنا يكون التحفظ من خطبة التغريب التي تهدف إلى القضاء على المفاهيم والقيم الإسلامية العربية وإحلال مفاهيم غربية مكانها .

كذلك هناك فارق بين الحضارة والثقافة . فالحضارة علم تجريبي وصناعة وما كينيات وذرة وأسلحة وهكذا ، والثقافة فكر وقيم ودين ولغة وتاريخ . ومن هنا يبدو خطأ القول بأن ثقافة الغرب جزء من حضارته ، وإن على الشرق أن يأخذها مع الحضارة ، ذلك أن الحضارة ملك مشاع للانسانية شاركت فيه ولها أن تأخذ منه ، أما الثقافة فهي في الأساس مرتبطة بالنفوس والأذواق والأمزجة ؛ هذا إن هما اللحظان الأساسيان في النظرة إلى حركة التغريب ودعوته .

ومن هنا كانت نظرتنا إلى أننا نقيم «أساساً» من فكرنا العربي الإسلامي الأصيل نبني عليه ثقافتنا الحديثة وفكرنا الجديد ، ونحن نفتح الأبواب والنوافذ للفكر الوافد في حرية كاملة فتأخذ منه وتدع ، وفق قاعدتنا الأساسية ، ومن هنا لا نخشى أن يجرفنا الوافد ويقضي على مقوماتنا أو شخصيا الأساسية بل يكون الامتصاص والاقتباس مستمداً على النحو الذي يزيد شخصيتنا قوة وفكرنا انطلاقا واتساعا وحركة إيجابية .

...

والواقع أننا لسنا في حاجة كبرى إلى هذه المحاولة المضطربة الظالمة التي تريد أن تكشف عن أن فكرنا العربي الإسلامي يلتقي في كثير من القيم والمفاهيم مع الفكر الغربي . فلا شك أن هناك خلافا واضحا ، وكبيرا وجذريا بين مفاهيم الشرق والغرب ، وبين الفكر العربي الإسلامي بالذات — بين الفكر الغربي (بشقيه) .

هذا الخلاف يبدو في أساس واحد هام من عدة أسس هو : مادة الفكر الغربي وامتزاج المادة والروح في الفكر العربي الإسلامي . ولا شك أن الخلاف في هذا الأساس بالإضافة إلى الخلافات الأخرى من شأنه أن يعطي « طابعا » مميزا لفكرنا ويجعل لنا وجهة

نظر مختلفة مع الغرب في مسائل التربية والثقافة والمجتمع والأخلاق . ومن هذه الخلافات يتبين أن لكل فكر قيمه ، ولكل أمه أسسها وقاعدتها الأصلية الممتدة مع الزمن ذات الجذور الصلبة ، ومن هنا يتبين مدى فشل حركة التغريب في القضاء على هذه الأسس ، وقطعها .

ولا شك أن حركة التغريب لم تبلغ فيما بلغت حتى الآن في مؤامرتها الضخمة أكبر من إثارة الشبهات وإلقائها في فكر مجموعات من الشباب نشأت مع الأسف دون أن تفهم القومات الأساسية للفكر العربي الإسلامي ولم تؤمن بها . ومن هنا اضطربت وجرت مع البريق وانحرفت عن الطريق ، ونحن في حاجة إلى أن تفهم أن هناك فارقاً بين استيراد الحضارة واستيراد الثقافة ، وأنه ليس حتماً مقضياً على من يستورد الحضارة أن يستورد فكرها .

وأدنى ما تواجه به حركة التغريب هو اتخاذ إجراء المثل بالنسبة لمقومات الفكر الغربي الذي تصادف أنه مليء بالثغرات ، وأكثر اضطراباً وبعداً عن المفاهيم العقلية نفسها .

وحتى في مجال قضايا : القومية والديمقراطية والاشتراكية فإن الفكر العربي الإسلامي ليس مطالباً أبداً أن يأخذ بمفاهيم الغرب لها ، ومن حقه أن يضع لها مفاهيمها على ضوء مقوماته الأساسية التي هي بمثابة الأساس الذي تبنى عليه النهضة وهذا وقع فعلاً فأننا قد حددنا مفاهيمنا بالنسبة لهذه القيم بما يختلف مع مفاهيم الغرب لها وقد جاء ذلك مستمداً من جذورنا ومقوماتنا وتراثنا .

وإذا كان الغرب قد اعتبر الدين دخليلاً عليه لأن المسيحية التي اعتنقها كانت مناهياً في الشرق ، وقد اضطربت علاقته بها ورآها - باعتبارها دنياً - تقف أمام حركة النهضة والكشف فتحاها . فليس معنى هذا أن تقبل رأى الغرب في الدين جملة ، أو أن نطبق رأيه فيه على الإسلام بالذات ، وقد كان الإسلام ولا يزال : ديناً وثقافة ونظام مجتمع - وهو في هذا يختلف عن الأديان الأخرى - وأبرز أوجه الخلاف أنه لم يقاوم التطور ولا النهضة ولا الحضارات ، واستطاع أن يظل مفتوح الآفاق إزاءها على مدى العصور وفي كل البيئات . ومن هنا فنحن لا نقبل النظرية الغربية في القومية أو الديمقراطية أو الاشتراكية ولا نستورد المفاهيم ولا نجري وراء التبعية الفكرية أو نعتنق المفاهيم التي يضعها الغرب .

ومن هنا يبدو مفهومنا للقومية العربية مرتبطاً بالفكر العربي الإسلامي مخالفاً لآى الغرب ذلك أن «الفكر العربى الإسلامى» هو أساس وحدة المفاهيم ونحن ننظر إلى الفكر العربى الإسلامى ككل وليس إلى جزئية منه كاللغة والتاريخ منقولة عن النظرية الغربية .

وليس أدل على مفهوم الإسلام هنا من عبارات المنصفين من كتاب الغرب المسحيين الذين اقتنعوا بأن الإسلام ليس عقيدة أخروية فحسب ولا أخلاقاً محررة بل هو «أجل مفصح عن شعور العرب السكونى ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج منها اللفظ بالشعور والفكر والتأمل بالعمل والنفس بالقدر ، وهو أروع صورة للهنم وأدابهم ، وأضخم قطعة من تاريخهم القومى ، وأن علاقة الإسلام بالعروبة ليست علاقة أى دين بأى قومية » فالإسلام للمسيحيين ثقافة قوية والفكر الإسلامى أعن مافى العروبة .

* * *

والواقع إن أبرز ما يدعو إليه التغريب هو خلق روح « العلمانية » فى الشرق . والعلمانية ترجمة محرفة للكلمة الغربية (Secutar) وهذه الترجمة العربية تحمل طابع التويه لأنها لا تريد أن تكشف حقيقة مفهومها الغربى الذى يعنى أساساً كلمة « لادبنى » .

وكان هدف التغريب فى حملته العنيفة هو الوصول إلى قيام حكومات لادينية فى الوطن العربى بعد أن قامت « التجربة » فعلاً ماثلة أمام الشرق كله تمطى العبرة فى « تركيا » .

ولكن دعوة « القومية » فى العالم العربى لم تقبل المفهوم الغربى كاملاً ، وخلقت لها مفهومًا نابعا من المقومات الأساسية للفكر العربى الإسلامى ، التى يمثل وحدة فكر الأمة . وهى لم تتخل عن جوهر « الدين » كجزء متصل من مقومات الفكر الإسلامى بجوار اللغة والتاريخ والتراث .

حدث هذا بالرغم من نجاح دعوة التغريب فى مجالين هامين :
التعليم والصحافة فقد نجح التغريب فى إنشاء مدارس غربية الطابع ، تحمل طابعا تقريبيا مخالفا لروح الفكر فى العالم الإسلامى والوطن العربى .

كما نجح في إدخال مناهج التعليم الغربى التى فصلت الدين عن التربية فى جميع المستويات إلى المدارس فى العالم الإسلامى والوطن العربى . واستطاع أن يوفد مئات من أبناء العالم الإسلامى والوطن العربى إلى فرنسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها ليحملوا ثقافة وقد استطاع بعضهم أن يولى مفاهيم التغريب إيمانه وولائه .

وإذا كان عدد كبير من هؤلاء المبعوثين قد فشل التغريب فى اتخاذهم أولياء له ، فإن العدد القليل قد عمل ظل تقود حكومات الاحتلال وبعمونة النفوذ الغربى الذى مازالت إثارة باقية فى كثير من حكومات العالم الإسلامى والوطن العربى على عزل التربية عن الدين . وعزل جوهر الفكر العربى الإسلامى عن التاريخ واللغة والأدب .

وقد آن الأوان لتحرير مناهج التعليم فى العالم الإسلامى والوطن العربى من هذه الشبهات وتعميق جوهر الفكر العربى الإسلامى فى جميع المناهج على النحو الذى يحقق الإيمان بروح هذه الأمة وقدرتها على النضال والانبعاث مرة أخرى لنقف فى الصفوف القائدة .

وفى مجال الصحافة استطاع التغريب أن يخلق رأيا عاما للمفاهيم الغربية وتنحية المفاهيم العربية عن كثير من القيم . ومن هنا بدت الدعوات التحريرية والقومية التى ظهرت فى العالم العربى والإسلامى بعد الحرب العالمية الأولى وهى ذات طابع غير مقيد بالقيم الروحية والاجتماعية والأخلاقية . . وإلى ما قبل النصف الثانى من هذا القرن كانت الصورة ترسم أمه تعل من قدر فكرة الحرية والوطنية من غير أن تمزجها بمقوم أساسى من الروحية أو الخلق .

وكان لحركة التغريب التى استطاعت بالفعل أن تسيطر على أزمة الصحافة فى العالم العربى - إذ ذاك - دورها الفعال فى هذا المجال .

وقد أشار « جب » إلى هذا المعنى فى كتابه وجهة الإسلام حين قال : أن الصحافة هى أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها نفوذا فى العالم الإسلامى ، وأن مدبرى الصحف ينفذون فى معظمهم إلى التقدميين ، وأن معظم هذه الصحف واقع تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية وأن الصحافة المصرية لا دينية فى اتجاهها . (هذا النص يشير إلى عام ١٩٣١)

الفكر العربي

محاولة تفريب مقوماته ومفاهيمه

هدف «التفريب» أساساً هو تحويل الفكر العربي الإسلامي عن مفاهيمه ثم عن مقوماته ومن هنا يحاول «التفريب» إثارة قضايا كثيرة متعددة « هذه القضايا تنطلق جزئية ، منفصلة وتظهر عند ما يراها الرائي كأنها لاصلة لها بالقضايا الأخرى ، هذا في النظرة الظاهرة أما في الواقع فإن كل جزئية هي قطاع من حقيقة أساسية هي « التفريب » ذلك الشبح الضخم الختفي وراء هذه الصور والمعارك ، وهدفه هو نقلنا عن مفاهيمنا الأساسية إلى مفاهيم جديدة . ومن هنا يعتمد « التفريب » دائماً على جزئية النظرة لدينا « وعجزنا عن الإحاطة والشمول .

ولكي تم الواجبه الحقيقيه لمركتنا مع التفريب يتحتم أن تكون هناك مفاهيم واضحة عن أمور كثيرة تثار من أجل تبييض القضية الأساسية ، ذلك أن حركة التفريب والذين من ورأها وهم على قدر كبير من المرونة - قادرة على تحويل التيار بعيداً عن الهدف الأصلي وصرفه إلى المارك الجانييه أو القضايا الجزئيه .

فالتفريب بحركته ومخططاته قادر : (اولاً) على تحويل الانتفاضات الكبرى عن أهدافها وذلك بوسائل عديدة ، أما بالإسراع بها أو بإجهاضها ، أو بوضع تفسيرات جديدة لمفاهيمها ، أو بتجسيد الأنكار المبرره « وتقل التضييه من الفكر إلى صاحبه وذلك بقصد نقلها من البحث العقلي إلى الماطفه الشخصية . وكذلك للتفريب قدرته على إيجاد بديل سريع للأنكار الحية القادرة على النمو ، وذلك بإبراز من يتحدثون في نفس الموضوع ولكن بمفاهيم أخرى . وهناك من الأسماء اللامعه من يمكن تجنيده في الوقت المناسب ليعلو صوته على الأصوات الجادة التي تحمل الراى الأصيل .

ولقد استطاعت حركة التفريب أن تواجه كثيراً من الدعوات التي قام بها رجال الدين الأتقاني وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده وعبد الحميد بن باريس .

وسرعان ما كانت تظهر أسماء لامة من دعاة التغريب تحمل نفس الأفكار من مظهرها دون مضمونها لتحولها عن هدفها الأصلى الخالص إلى هدف يخدم الإستعمار أو الاستبداد .

(ثانيا) النظره الجزئية وهذه من أخطر ما يهدف إليه التغريب ، ويتمثل فى تجزئه الفكرة الواحده وأثاره افكار مجزئه ثانويه لاضعاف الفكره الأساسيه . كما يتمثل فى محاولة تناول كل جزء منها على حده منفصلا عن الجزء الآخر .

وفى هذه التخزئه يتمثل الخطر ، فإن كل جزئيه تمضى وكأنها شيء مستقل ، ثم تنسى بعد فترة ، لتظهر جزئيه أخرى ، لا تذكر مرتبطه بغيرها ، وهنا تكون قدرة التغريب على تفتيت المسائل وأثاره الشبهات حولها اعتماداً على ضعف الذاكره التى لا تستطيع أن تربط الأجزاء كلها . والواقع أن كل سموم التغريب والنزوات القافى جرت فى هذا المخطط ، كانت تلقى الجزئيه ثم تترك ، وتنسى ، ثم تلقى جزئيه أخرى وثالثه ورابعه ، ثم يمد القول فى الجزئيه الأولى ، وهنا يبدو مدى الخطر الذى يحتاج إلى الوعى الكامل ، فإن كل هذه الجزئيات تتمثل فى كلمه واحده هى القضاء على مقومات الفكر العربى الإسلامى وتحويله من مفاهيمه الأصليه إلى مفاهيم تختلف اختلافاً أساسياً .

وفى ظل هذه الخطئه ، يفتح التغريب الباب كل يوم لقضايا جديدة ، ويجدد مسائل قديمه بأسلوب آخر ، ويهدم على فترات ، وهدفه من ذلك أن لا يترك الفرصه للباحث أن يفكر أو يستدرك أو يربط الأجزاء بعضها ببعض .

(ثالثاً) إيمان التغريب بالنظره القائلة بأن أثاره الشبهات تكون بلسان « رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم » على حد تعبير البشر المشهور « زعيم » بأن الشجره على حد قوله يجب أن يقطعها أحد أبنائها .

ومن هنا كان ضرورة تكوين جيل من دعاة التغريب الذين توطأ لهم شهره زائمه وتسح لهم الكتابة فى الصحف والمجلات الكبرى ، وتجرى حولهم أبحاث ودراسات وكلاء خدعت اسماتهم أعيد الحديث عنها ، حتى تظل فى مستوى النظر .

وقد ظهر في الثلاثين عاما الأخيرة عدد ضخم من دعاة التفریب والشعوبیین من السلطنین والعرب؛ وهم أحيانا من السكر والرونة واللباقه بحيث يستطيعون اخفاء نواياهم واغراضهم ، وكثير منهم انكشف أمره ، ونمت كتاباته عن خصومته وأحقاده .

وموقفنا من هؤلاء الكتاب واضح هو تطبيق مذهب نقد الرجال عليهم ، فمالينا أن نجمع النصوص التي يتمثل فيها التفریب والشعوبية لكل كاتب ونعرضها للبحث ونكشف ما تنطوى عليه من سموم .

(رابعا) في ظل هذا إكله علينا أن نفرق بين القيم والمفاهيم . فالقيم إنسانية عامة كالحرية والدين والتربية الخ . وقد اختلف الرأي في مفهومها بين الفكر العربي الإسلامي وبين الفكر الغربي وبين الفكر الماركسي . ومن هنا كان علينا أن نحفظ بمفاهيمنا للقيم فهي التي تمثل وجه نظرنا أساسا . ذلك أن مهمة التفریب هي :

« أولا » محاولة إخضاع الأمم لثقافته ومفاهيمه للقيم وذلك بتحويلها عن مفاهيمها الأساسية وتسويد الحضارة الغربية على حضارات الأمم ولا سيما الفكر العربي الإسلامي .

« ثانيا » أنزاع الطابع المميز للفكر العربي ، ولما كان فكر كل أمة يكسبها طابعا خاصا ، فإن التفریب يهدف إلى أنزاع هذا اللون المميز والقضاء عليه لتذوب في الثقافات الأئمية .

« ثالثا » لما كان التفریب (والتبشير جزء سابق منه) عاجز عن هدم العقائد والقيم في نفس أمة من الأمم فإنه قادر على إثارة الشكوك والشبهات في هذه العقائد حتى تصبح موضع النقد والسخرية . ومن هنا كانت محاولة التفریب في فرض مفاهيم جديدة للقومية والوطنية والدين والحرية تختلف مع مفاهيمنا أساسا .

وقد وجه التفریب عشرات من الشبهات في هذا المجال ، وربما استطاعت هذه الشبهات أن تثير في بعض العقول والنفوس الشكوك والأوهام ومن هذه الشبهات :

أولاً : « الفكر العربي الإسلامي فكر تجريدي » .

اتهم الفكر العربي الإسلامي بأنه فكر تجريدي ، والواقع أن ثرات الفقه والتشريع الإسلامي تكذب هذا الرأي ، فإن هذه الأصول ترينا واقعية الفكر الإسلامي وكيف أنه كان يتناول كل حادث يقع في حينه ثم يستعرضه ويضع له الحلول .

بل أن الفكر العربي الإسلامي أكثر إنحالا في الواقعيات من الفكر الغربي حيث تناول الحياة اليومية ولم يقتصر على مسائل اللاهوت كما في الشرائع الأخرى .

ثانياً : « الاستسلام للماضي » :

الواقع أننا لا نستسلم للماضي ولم يكن تقديرنا لمجدنا القابر حائلا دون التطور يوما أو الاستسلام ، ولم تكن عقائدنا ولا تراثنا ولا قيمنا الأساسية عائقا لنا عن الحركة والتطور ، بل كانت عاملا إيجابيا يفتح لنا الطريق الأصيل الواضح ، ولا سبيل إلى أن ندع أساسنا ونبنى في أرض رخوة ، فان بنائنا إذاك لن يرتفع بل سينهار ، ونحن نؤمن بأن شجرة المعرفة يجب أن تطعم على أسس من ماضينا فتتصل اتصالا طبيعيا بمنابع ثقافتنا . إن كل أوليات المعرفة والحضارة تابعة من فكرنا العربي الإسلامي ويحاول التغريب أن يثير دائما مسألة الفكر الإغريقي واللغة اللاتينية كقابل لمنابع فكرنا العربي الإسلامي واللغة العربية ، وإذا كان لنا أن نقول شيئا على وجه المقارنة في هذا المجال ، فهو أن الإغريق انتهوا ولكن العرب والمسلمين لم ينتهوا ، وأن اللغة اللاتينية ماتت ولكن اللغة العربية ما تزال حية متفاعلة . ولذلك يمكن أن يقال بالنسبة لماضي الإغريق ولغته اللاتينية أنه « ثرات » وليس كذلك بالنسبة للغة العربية وفكرنا العربي الإسلامي .

(ثالثاً) النظرة إلى الإسلام على أنه « دين » .

يبدو خطأ هذه النظرة في التعرف على حقيقة الإسلام وجوهره ، وقد اقتنع كثير من كتاب الغرب بأن الإسلام دين وحصارة وفكر ومجتمع وفي مقدمتهم جوستاف لوبون وجب « فالحالة التي يجربها التغريب في عشرات من القضايا كحكاكة الإسلام على نفس الأسس التي حوكت عليها « المسيحية الغربية » وهي غير المسيحية السمحة الأصلية ، خطأ فادح ومناطلة أكيدة . فليس الإسلام تراثاً . وليست تركيا العثمانية هي الإسلام »

(م - ٧ الفكر العربي المعاصر)

وليس الإسلام عبادات وعلاقات بين الإنسان والله غصب ، وليس في الإسلام طبقة معينة تدعى رجال الدين لهم في علاقتهم بالإسلام حقوق أو تقود ليس لغيرهم ، وإنما يوجد في الإسلام علماء متخصصون والإسلام في صورته الحالية محجوب بالمسلمين ، فليست حياة المسلمين الآن تمثل الإسلام ، وليس هناك اتصال بين الإسلام والعروبة ، وقد اعترف بذلك مورويبرجو (أستاذ الشرق الأدنى بجامعة برستون) في كتابه العالم العربي اليوم حين قال « إن العروبة تعني الإسلام ، وأن الإبتعاد بالعرب عن الإسلام معناه انقصال البناء عن أساسه . وقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعني قوة الإسلام .

وقد دعا الإسلام أقدس دعوة « الإخوة العالمية والإنسانية » .

والإسلام منذ ظهر إلى اليوم وهو عامل مؤثر في جميع أحداث التاريخ ولم يكن الإسلام خادماً للمجتمعات والدعوات بل كان متميزاً بطابعه الواضح ومقوماته الأساسية ، ولقد كان ولا يزال مصدراً لكل حركات الحرية والتخلص من العبودية وتجربته في الجزائر وفي وسط أفريقيا تؤكد هذا المعنى .

رابعا : القول بأن نقل الحضارة يستدعي نقل الثقافة ، وهذا خطأ وعموه فليس نقل الحضارة يستدعي مطلقاً نقل الثقافة وفي رأى إجماع الباحثين - ماعدعاة التريب والشعوبيين - أن الحضارة بطبيعتها قابلة للانتقال من أمة إلى أخرى ، أما الثقافة فهي خاصة بكل أمة على حده . فالثقافة فكر أمة مرتبط بروحها وضميرها ، أما الحضارة فذات طابع مادي وهي ملك مشاع للأمم . وهناك خلاف واضح بين « قيم » الفكر العربي الإسلامي وقيم الفكر الغربي ، أساس الأولى زواج الروح والمادة ، بينما يعتمد الفكر الغربي أساساً على النظرة المادية ، فضلاً عن أن الفكر العربي يشقيه بقيم أسس مقوماته وقيمه ومفاهيمه على مادية النظرة إلى الكون والحياة والإنسان ، وهناك خطأ واضح هو القول بأن الفكر العربي الإسلامي فكر رוחي لاهوتي خالص ، وأن قوتنا في إغناء الجانب الروحي وحده ، والحق أن فكرنا العربي الإسلامي يمثل امتزاج الروح بالمادة « والعقل بالقلب ، بينما تمضي ثقافة الشرق روحية داخلية وثقافة الغرب مادية خالصة .

وهناك فرق أيضاً بين العلم والثقافة ، فالثقافة مستقرة في الشهور راسخة في الفطرة ،

والفطرة في الفرد كما هي في الأمم لها ميزات خاصة في الذوق ولها اعتماد خاص لفهم الحياة والتمتع بها ، أما العلم فشاع لكل الأمم وكل الأفراد .

والواقع أن مقومات فكرنا العربي الإسلامي الأساسية تدفعنا إلى أمرين يسيران جنباً إلى جنب .

(١) أن نفتتح نوافذنا للفكر الإنساني الوافد فلا تتجاهله ولا تقف منه حوقف الخوصومة .

(٢) أن نأخذ منه وندع على قاعدة الرشد الفكري .

وليكن موقفنا موقف الغرب من الفكر العربي الإسلامي عند ما ترجمه ونقله عن أول النهضة ، فقد أخذ منه ما يتفق مع شخصيته ومقوماته الأساسية ، أخذه مجرداً وحوله إلى كيانه ، ولم يأخذ « طابع » الفكر العربي الإسلامي ولا شخصيته ، ومعروف أن توماس الأكريني عمل على غربة الثقافة الإسلامية وهو يترجمها وثار ضد نظرية ابن رشد بوضد القديس أوغسطين حتى يستطيع تصفية ثقافة الغرب مما يراه فكراً عربياً إسلامياً .

وقاعدة الفكر الإسلامي العربي أن يواجه المؤثرات الأجنبية على قاعدته فهو لا يقبلها مطلقاً ولا يدعها تسيطر عليه أو تنير ملامحه ، ولكنه يقبلها على قاعدة المعرفة المفتوحة والآفاق ، لا على قاعدة أنها عقائد أو ثقافات ، وعنده أن التوقف عن قبول المؤثرات الأجنبية مظهر للعجز ، وقبولها بدون تحفظ مظهر للنقص ، وفكرنا لا يريد أن يسقط عن إحدى رذيلتي : العجز أو النقص .

ونحن ننظر إلى تجارب الآخرين وعيوننا على بلادنا وظروفها الخاصة ، ونستفيد من التجارب الإنسانية مع تفريق بين النظريات وواقع الحياة .

ومن هنا يبدو تفسير واضح لأزمة القلق التي يعانيها المثقفون اليوم في العالم العربي والإسلامي ، والتي مصدرها الجنوح عن القاعدة الأصلية للفكر العربي الإسلامي ومواجهون النظريات والمذاهب العالمية ، إنهم يسبحون بعيداً عن الشاطئ دون أن يكون معهم طوق النجاة ومن هنا يصابون بالدوار . إن الخطأ هنا في إقامة فكرنا على أساس « النظرية الجزئية أو الفهم الغربي » .

أن سر القلق هو انفصال العقل عن الروح وهو لب لباب فكرنا العربي الإسلامي .
(خامساً) لا بد من إعادة النظر في بصائر التغريب في الفكر العربي قبل أن تتحول
إلى جذور ، يكون من شأنها أن تدمر القيم الأساسية أو تحل مفاهيم جديدة بدلا من
المفاهيم الأصلية ، فقد تصادف أن سيطر النفوذ الغربي على العالم الإسلامي والعربي في فترة
ضعف ثقافي وسياسي وعسكري ، وفي ظل هذا الضعف استطاع الغرب أن يفرض بعض
مفاهيمه أو يترك بعض بصائره .

ولا شك أن هذه البصائر ستحول دون كمال الشخصية الأساسية وامتدادها وقدرتها
على الإصالة وتكون بمثابة نفرة يستطيع النفوذ الغربي التأثير والتحد .

فمن ذلك أننا نسمي عصارات فكرنا ومنايا Legace و ما زلنا نسمي الإسلام
Religion مع خطأ هذه التسميات المستوردة ، أما عصارات فكرنا ومنايا من أدبه
وتشريع وفلسفة فأنها مستمرة التأثير في فكرنا للتطور الحى ، فلا يمكن أن يوصف
بكلمة تراث إلا من توقف عن الحياة والحركة ، وهذا التعبير مأخوذ من الفكر الغربي
في نظرته إلى الفكر اليوناني والروماني القديم المكتوب باللغة اللاتينية التي دخلت للتحفة
وفصل بينها وبين الفكر الغربي الحديث ألف عام ، أما في فكرنا العربي الإسلامي فليس ثمة فاصل
بين مراحلها فضلا عن أن لغة هذا الفكر ما زالت حية متصلة نامية .

أما كلمة Religion فليست تعني في الفكر العربي كلمة دين التي تعنيها الكلمة العربية
وإنما تعنى مفهوما قريبا من أعمال الخير والبر .

(سادسا) خطأ مما كتننا إلى فترة الضعف في دورة التاريخ للأمة العربية والعالم
الإسلامي ، فالفكر العربي الإسلامي محجوب بأهله ، بعد أن انفصلت القيم عن الواقع ،
وكل ما يرى من وجوه الضعف في شخصية الإنسان العربي الإسلامي ليس مصدره
مقومات فكره الذي يمزج القيم بالواقع والذي استطاع أن يبنى حضارة ضخمة
حيث حملت لواء الحرية والمساواة والعدل والأخاء إلى العالم كله سبعة قرون كاملة كانت
أوروبا خلالها تعيش في الظلمات ، وكانت حضارة تطبيقية عملية للفكر العربي الإسلامي
الحى الثامى ، وإنما تتمثل الصورة التي قامت للمجتمع في العالم العربي والإسلامي في فترة
الضعف على أسس الانفصال بين هذه المقومات وسقوط بعضها والبالغة في بعضها الآخر ،

ومن هنا يمكن القول بأن مرحلة الضعف في العالم الإسلامي لا تمثل جوهر الفكر العربي الإسلامي كما هو في الحقيقة .

ففي خلال القرون الثلاثة الأخيرة انفصل العالم العربي الإسلامي عن مقومات فكرة وواقعتنا اليوم ، فلم يعد يعطى حقيقة هذا الفكر أو جوهره ، فقد كانت حقيقته مضبوطة وكانت تجربته متطورة ولولم تقف في وجهة الحواثل لحقق نتائج إيجابية عدلت من اتجاه الفكر الانساني .

ومع أن الدولة أنهارت فقد ظل هذا الفكر حياً قوياً قادراً على الحياة والبقاء . ولقد كشف عن قدرة كاملة على الحركة والتطور ، وعلى البناء والتوليد ، وعلى الأخذ والعطاء ، وعلى امتصاص ثقافات الشرق والغرب وتحويل عصارتها إلى كيانه الحي المستمر النمو .

وما تزال الثقافة العربية الإسلامية عنصراً أساسياً من أهم عناصر الثقافة الإنسانية لها طابعها الواضح المميز بين ثقافات اليونان والرومان والهند والفرس والغرب .

وليس في فكرنا طابع الانهزامية واليأس والضعف والاستسلام ، أو التجرد عن الدنيا والترهيد فيها والخلع منها أو الدعوة إلى الرهبانية وليس في فكرنا طابع الجنس واللذة وعبادة الشهوة ، وكلاهما عليه دخيل ، أما طابع فكرنا الأصيل فهو الإيجابية والمقاومة واليقظة مما يتمثل في قول أقبال : « نهض فقد آن لآدم أن نهض » .

(سابعا) خطأ محاكمة فكرنا إلى مفاهيم الغرب في كلمات تجري كالصطلحات منها كلمة « الهلال » التي تطلق على العالم الإسلامي أو الإسلام . والواقع أن هذا الاصطلاح مردود ، فقد كان الهلال أساساً شعار من الخشب أو المعدن اتخذهُ الرومان البيزنطيون شعاراً لدولتهم وأخذهُ عنهم الاتراك فهو شعار دولة وليس شعار أمة أو دين .

وخطأ الهجوم على « آسيا » واتهامها بالتأخر ، وهو قول لا يثبت للنظرة العلمية فقد قدمت آسيا للعالم سلسلة من الحضارات العريقة في المجد ، كالحضارة الأكادية والشميرية والبابلية والآشورية والهنينية والهندية والصينية ، كما قدمت للإنسانية الدعوات البوذية والبرهمية والأديان : اليهودية والنصرانية والإسلام وخطأ الاصطلاح الذي يقول : شرق أدنى أو شرق أوسط ، فإما ذلك اصطلاح قائم على أن مركز السكون هو الغرب وذلك موقفنا بالنسبة إليهم ، لذلك نحن نرفض هذا الاصطلاح ونفضل عليه « الشرق العربي الإسلامي » .

بين الثقافة والمعرفة

ومازات أعتقد أننا في حاجة إلى كشف الفرق بين المعرفة والثقافة ، فإن التفريب يحرص على أن نحل أحدهما محل الأخرى ، وكل الذين تعلموا في مدارسه وبثانته أحسوه بمحاولة إحلال مفاهيم غربية بدلا من مفاهيمهم بالنسبة لكل القيم .

وأمانا عديد من هذه التجارب « فاحمد سكوتورى في قلب إفريقيا يقول : لقد تعلمنا نحن المثقفين الإفريقيين في مدارس الإستعمار تاريخ فرنسا وحروب النال وحياة جان دارك و نابليون وقرأنا أشعار لامرتين ومسرح مولير ، ودرسنا التنظيم الإداري لفرنسا كما لو كانت بلادنا إفريقيا دون تاريخ ودون واقع جغرافي « ودون ثقافة ودون قيم ودون أخلاق .

وقد قدم الإستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذي يرى إنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعلم الإستعمار ، لقد أراد المستعمرون للعلم الإفريقي أن يطل في سوية ثقافية منحطة حتى يخرج تلاميذه على يديه أشد انحطاطا ، ولقد أراد المستعمرون للمثقفين الأفريقيين أن يفكروا بديكارت برغسون ، ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم و تراهم الأفريقي ، لهذا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرن الأفريقيين ، وإذا استمر الأمر بنا على هذا النحو فلن نستطيع أن ننمى شخصيتنا الافريقية التي هي الطريق الوحيد للتنهضة في إفريقيا »

٢ - وفي الهند يقول « هايون كبير » : كثيرا مايقال إن اللغة الإنجليزية والآداب الإنجليزية هما خير هبة وهبتها إنجلترا للهند ، ولاشك إن ذلك صحيح إلى حد بعيد ، فالتأثير الإنجليزي في أزيائنا وعاداتنا وتقاليدها الاجتماعية ، كان تأثيراً كبيراً ، ولكن التنوير الذي حدث في تكويننا الفكري والروحي كان تنيراً بعيد الأثر ، أننا ننظر إلى الغرب بمنظار إنجليزي ، ولا تتصل الحياة الفكرية في أوروبا إلا عن طريق أنسكترا ، ولا تتدوق الأدب الأجنبية الا كما يتدوقها الإنجليزي . بل أننا ننظر إلى الآداب الشرقية بمنظار إنجليزي »

٣ - وفي لبنان يقول امين الريحاني « إن في أكثر المدارس السورية اليوم روحا

اجنبيا من شأنه أن يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان «
لو استطاع لأبعدهم كذلك عن اللسان لقتل فيهم حب اللغة العربية « وفي البلاد اليوم سياسة
تعصد المدارس في خطتها فتوسع الثلثة بيننا وبين العرب وبلادهم ، والمدارس تشر
في لبنان : ان فرنسه أعظم ام الأرض ، هي أشرفها واغناها وأرقها ، بل هي قطب
المدينة وعاصمة النور ، كذلك كانت مدارسنا مثل امهاتنا تسقينا العلم في كؤس التوبة ، هي
كؤس الجهل . ونسيت فرنسا إلا في آدابها . تلك الآداب التي زادتني ضغفا وترددا في مضار
الحياة « صرفتني عن حقائق الوجود المادية .

« - وفي الجزائر يقول بلقاسم النعيمي : لقد تخلصنا من الاستعمار الأوربي ولكننا
لم نتخلص من القيود المادية ، فتأثير الحضارة الأوربية من الناحية الروحية والثقافية
ما زال موجودا « فنحن لا تزال تستعمل لغة مستعمرينا الأقدمين وعاداتهم وأخلاقيهم
وطرائقهم في التفكير والعيش « وهذه العناصر قد تغفلت في تكويننا الروحي إلى حد
بعيد بحكم التقليد وطول المباشرة . ولا يبدو أن هناك اتجاها جديا لتصحيح هذا الوضع
ووضع الخطط للتحرر الروحي والمقائدي بعد التحرر الاقتصادي والسياسي .

والسبب الرئيسي في أزمنا يمكن في التصادم الحاصل بين قوتين متعاكستين تجذبنا
كل منهما إلى جهة معاكسة ، وإن شدة التناقض بين هاتين القوتين هي من الفاعلية
والتأثير بدرجة تكاد تفشل معها محاولات التوفيق والتلاؤم ، التي وقعت منذ عشرات
السنين بين الحضارة العربية الإسلامية وبين الحضارة الأوربية « ويؤدي هذا التصادم
إلى الرجوع إلى الماضي لنعرف كيف جرى الالتقاء ولماذا لم يفلح التعايش بينهما .

فالحضارة الأوربية منذ نشأتها عند اليونان والرومان يلاحظ أن الطابع الأساسي
لإنسان هذه الحضارة أنه ملتصق بالأرض وتكاثر تكون صلاته بالسما والاهية ، ذلك
لأن البيئة الطبيعية الأولى التي نشأ فيها وكونت قسما كبيرا من مقوماته النفسية والعقلية
وطبعت حضارته بطابعها الخاص كان بيئة قاسية المناخ والتربة يسودها البرد والضباب
معظم أيام السنة « وتكتنفها الغابات القاتمة والثلوج المتركمة . كان هم الإنسان في هذه
البيئة التغلب على الطبيعة القاسية ، وحين احتاج إلى عون روحي مساعدة في كفاحه المرير ،
خلق ألوهة تمثل القوى الطبيعية التي تخيفه وترهبه وقدم لها القرابين والضحايا ليطمئنها

ويستدر عطفها ، ولم يحط الأوربيون خطوة واحدة إلى الأمام عن طريق التوحيد كما فعل الشرق ، ولكنهم لم يرو ماننا من اعتناق الديانة المسيحية التي وفدت إليهم من الشرق بعد أن حولها من عقيدة تراقب ضمير الإنسان وسلوكه إلى مجرد طقوس تعبدية يلجأ إليها الإنسان ليكفر عن خطاياها أو يستدر عطف الآلهة ولم يحملوا للدين تلك الفعالية اليقظة التي تسير عمل الإنسان كما هو الشأن في الإسلام .

٥ - ومن المغرب يبدو جانب آخر من الصورة يقول : ادريس الكتاني « أن التفسك الخطير الذي يجتازه التفكير الوطني في بلادنا اليوم هو بداية تمار التعليم الفرنسي اللاديني الميطم بالسموم المدسوسة الذي حضر بعناية للقضاء على طاقاتنا الروحية والخلقية والفكرية التي هي عناصر استقلالنا وقوتنا ووحدتنا .

لقد مرت ثلاثة أعوام على استقلالنا لم يتغير فيها وضع اللغة العربية الدليل الأقل إلا أننا تحصنت اللغة الفرنسية في مراكزها أشد من تحصن الجيوش الفرنسية في ثكناتها . فلم تتخل عن شبر واحد من امتيازاتها وتقوذا ، لا في المدرسة الابتدائية والثانوية الإسلامية ولا في إدارات الدولة ومصالحها ولا في الشركات والمؤسسات العمومية ولا في أعماء الشوارع والأحياء المغربية ، فاللارشا ليوطي لا يزال قائما على فرسة وسط المدينة « وتمثال الهزيمة المغربية مازال منتصبا أمام تمثال ليوطي فضلا عن احتلال ألف وثلاثمائة من الأعلام الفرنسيين لشوارع عاصمة المغرب يقضى بالموت على ألف وثلاثمائة علم مغربي عربي .

وشوارع هكتوبور هيجو في الدار البيضاء يسكن فيه مائة منزل (٧٠٠ من المنارية) يذكرون هذا الاسم كل يوم ، في خطاباتهم ، والطلبة في مدارسهم ، في أوراق وملفات الحكومة وسعاة البريدو ويحمد تلاميذنا أنفسهم مدفوعين للاهتمام بدراسة شخصية فكتور هيجو باعتباره أحد معارفهم في الحى .

أن الشاعر الفرنسي فكتور هيجو لم يمت في فرنسا ولم يمت في تونس ، ولم يمت في الجزائر ، ولم يمت في المغرب ، إنه حى في أوروبا وأفريقيا وفي كل مكان توجد فيه

فرنسا « مسكين أبو الملا المعري لا يعرفه أحد من سكان حينا ولا التنبي ، ألف وثلاثمائة من مواطنين أفرنسيين على واجهات شوارعنا وتغصب لهم التماثيل ، أدباء وعسكريون ورواد الاستعمار الأوائل .

وفي الغرب ١٨٠ ألف من اليهود المغاربة عمل الاستعمار على عزلهم عن الشعب المغربي وفرنسهم لغة وعاطفة ، وإخضع تعليمهم لإشراف مدارس الاتحاد الإسرائيلي ، وهي مدارس تابعة للاتحاد والمالي لجمعيات OR الذي يوجد له فروع في ٣١ دولة ليس بينها أي دولة عربية باستثناء تونس والجزائر والمغرب .

ونظم التعليم في بلادنا (١٩١٢ - ١٩٥٣) جعلتنا نعيش داخل قنينة بلعومها لا يكفي لمجرد إلقاء نظرة واحدة على ما يجري في العالم والتبعية اللغوية تستلزم تلقائيا التبعية الفكرية طالما أن الإنسان يفكر بواسطة اللغة » .

* * *

ولا شك أن هذه الصور المختلفة للتغريب الثقافي تعطي صورة الخطر التي يهدد الفكر العربي الإسلامي من ناحية قصور التفرقة بين المعرفة والثقافة وفي مدى الأثر الذي تحققه سيطرة التغريب بعد سيطرة النفوذ الاستعماري باعتبارها امتداد له .

وليس معنى التنصيص على هذا أثر التغريب يعني الانفصال عن الفكر الإنساني أو إغلاق الفكر العربي الإسلامي . ولكننا ندعو إلى أمر واحد هو بقاء شخصيتنا مستقلة أساساً ومقومات فكرنا قاعة أصلاً ومفاهيمنا سليمة ، دون انزالية في التفكير ودون ذوبان في الفكر الأثمي . وصدق ساطع الحصري في قوله « أن الذين حاربوا بشدة السيطرات الثقافية التي فرضتها القوى الأجنبية على البلاد ، كانوا بعيدين جداً عن الانزال ، ورغبتهم في الاستفادة من ثقافات العالم لم تكن أقل من طموحهم إلى رؤية العالم العربي متمتعاً باستقلال ثقافة قومية عصرية موحدة » .

وغاية الأمر في هذا كله : (أولاً) هو أن تفكر بلمتنا أساساً ولا تفكر بلغة غيرنا ، والاستعمار الفكري يتسرب عن الاستعمار اللغوي ، باعتبار اللغة هي نافذة الفكر .

(ثانياً) أن ترتبط بمقومات فكرنا أساساً وفي ظل هذه المقومات نواجه الفكر الإنساني وتأخذ منه وتترك .

(ثالثاً) أن نحفظ بالحدود والتراث قاعدة لنا ، أن التطور لا يتم إلا على شريط ممتد من الماضي إلى المستقبل ، أن بناء الحاضر والمستقبل يقوم على قاعدة من الماضي وأن الذين ينكرون الماضي هؤلاء الذين ليس لهم تاريخ ، أن بعض الأمم الكبرى بدأت من القرن السادس عشر أما العالم العربي والإسلامي فله تراث ثلاثة عشر قرناً ولا يمكن أن يبدأ من القرن العشرين .

بين التسامح والتعصب

إن للقيم الإنسانية في كل ثقافة مفهوماً أساسياً تختلف عن مفهومها في الثقافة الأخرى . ففي مجال الحرية مثلاً نجد المفهوم الغربي يختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم الفكر العربي الإسلامي . فالغرب يؤمن أساساً في جذور فكره بنظرية قديمة منذ أيام الحضارة الرومانية تقول « إن العالم هو روما وكل ما عداه عبيد » وقد تطورت هذه النظرية في ظل الحضارة الغربية على نحو تمثل في نظريات متعددة .

(١) الرجل الأبيض : فالإنسان الأبيض لا الإنسان عامة هو وحدة تاج الخليقة وأن النصر له في كل صراع بينه وبين عدة من الأجناس الملونة ، وعبرة الكاتب الأمريكي الأشهر شتاينيك في هذا هي « الرجل الأبيض لا يغلب » وهم حين يكتبون تاريخ الحضارة ينقلونها بين الشعوب البيضاء ابتداء من شعب اليونان إلى الرومان والاطليان والجرمان ثم ينكرون فضل الفراعنة والبابليين والعرب والمسلمين ، وعندما أن أى شعب ملون يسيطر على قيادة العالم لا بد أن ينهار ، لأن أصحابه ليسوا من الجنس الأبيض . وقد كان ذلك موقفهم من العرب والمسلمين والصين .

(٢) السامية والإدارية : وقد استخدم الاستعمار الغربي هذه النظرية على نحو مقتعل . وقد كانت أساساً نظرية لغوية ولكنه نماها وأعطاه القوة ونشرها بوسائله ليثبت أن الجنس الأرى الذى منه الغرب أرقى من الجنس السامى الذى يستعمره الغرب .

أما الحرية في الفكر العربي الإسلامي فتتمثل في تساوى النظرة إلى الأبيض والأسود والعربي والأعجمي . وكون المفاضلة إنما تكون بالعمل .

وأبرز مظاهر الحضارة الغربية أنها تجعل نموها لأهلها وثقافتها لأهلها وقد أكد كثير من الباحثين على أن الثقافة الغربية في محتواها العلمي والأدبي والفني والصناعي لا ترمى إلى خدمة « الإنسان » من حيث هو بشر بل إلى خدمة الإنسان الغربي قبل غيره وعلى حساب غيره .

ومن غرور الإيمان بسيطرة الفكر الغربي على الفكر الإنساني كله والفكر العربي الإسلامي بوجه خاص أن يمتدق الغربيون بأن نظرياتهم ومذاهبهم حقائق زاهية يجب على العالم أن يتقبلها ، بينما هم أنفسهم مضطربون بين قبولها ورفضها وبين التحول من نظرية إلى نظرية دون إقرار شيء .

ومن نظرة الغربيين إلى العالم وتقسيمه إلى رومان وبرابرة ظهرت فكرة التعصب الغربي والعداء للفكر العربي الإسلامي والدعوة إلى التغريب والتبشير والفزوا الثقافي في محاولة لإخراج العالم الإسلامي والعربي من مفاهيمه الأساسية لكل القيم الإنسانية .

ولقد يتحدث الفكر الغربي كثيرا عن التسامح والتعصب . فالتسامح دعوة جميلة يدعوننا إليها دائما ، والتعصب اتجاه ذميم ولكن متى كان الفكر الغربي متسامحا غير متعصب .

إن تعصب الغرب يبدو في عشرات من المسائل . يبدو في إخراج العرب والمسلمين من أوروبا ، ومعارك تصفية الأندلس ومعارك تصفية أوروبا من الأتراك معروفة لكل باحث ، وإيمان الغرب متعصبا منه بأن لا يكون في أوروبا فكر عربي ولا عرب ولا مسلمين أمر لم يعرفه العرب والمسلمون في بلادهم وكان في مقدورهم أن يعملوا ذلك بالنسبة لغير العرب والمسلمين .

وتعصب الغرب في إنكار دور العرب في الحضارة وأثرهم فيها ومحو أثر العرب من العلم العربي عند نقله إلى الغرب بدل دلالة واضحة على ما يتميز به الفكر العربي من تسامح .

وليس الحديث عن المساواة والاخاء والحرية والتسامح في الفكر الغربي إلا باعتبار واحد ، هو أن هذه القيم خاصة بالجنس الأبيض وحده « هؤلاء الصفوة الذين وكلت إليهم قيادة العالم .

وصورة التعصب والتسامح تبدو واضحة في النظرة إلى الخلاف بين المذاهب « فقد اختلفت المذاهب في العالم العربي الاسلامي دون أن يكون ذلك مدعاة لأى صراع ، أما في الغرب فقد كان الصراع بين المذاهب يصل إلى ذروة التعصب ، وقاتل الكاثوليك والبروتستانت الذى امتد سنوات في هولندا لاتحاد الحركة البروتستانية معروف « وقد قتل ٢٥ ألف بروتستانتي في فرنسا ، وكذلك حرب الامبراطور فردينان لمحو البروتستانية من ألمانيا ، وما أدى إليه من تدمير خمسة أسداس القرى والمدن الألمانية وقتل ١٢ مليون نسمة « هذا بالإضافة إلى الصورة البشعة التى سجلها التاريخ لحاكم التفتيش ، كل هذا من شأنه أن يعطى صورة التسامح والتعصب بين الفكر الغربى والفكر العربى الاسلامى .

وتبدو صورة التعصب الغربى واضحة في قول مونتيكيو :

« إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزوج عبيدا فإننى أقول أن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بدا من أن تستعبد شعوب أفريقيا لكي نستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة ، وهذه الشعوب ما هى الاجماعاء سوداء البشرة . لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله وهو ذو الحكمة السامية قدخلق روحا طيبة في جسم حالك السواد » .

وقد صور هذا التعصب « جوستاف لوبون » حين عرض لدور العرب والمسلمين في الحضارة الانسانية وقال : أن حربة الفكر في الغرب تحتفى لدى الأوربى عندما يمتد فكمرة إلى بحث فكر العالم الاسلامى « فلفهم الصليبي العميق الأثر في النفس الغربية يحول دون حرية الرأى في الاسلام ويحول دون قيام أى محاولة حرة لاعطاء الاسلام والفكر العربى الاسلامى ما يستحق من التاريخ والحياة .

وقال : أن الدراسات الإسلامية التي تناولها الأوروبيون منحرفة ومشوبة بما ينافي منهج العلم من الذاتية والتعصب .

ويبدو مفهوم التعصب والتسامح في موقف الفكر العربي الإسلامي من الفكر الغربي وبالعكس . ففي الوقت الذي يواجه الإسلام والعروبة واللغة العربية بالأزدراء والنقد والتشكيك على ما فيها من صلابة وتعاسك وقوة لا يوجه الفكر العربي الإسلامي مثل هذا الأزدراء والاحتقار إلى الفكر الغربي ولا إلى أوروبا ولا إلى المسيحية الغربية . وفي الوقت الذي يعمل الغرب على تمزيق القيم العربية الإسلامية وإثارة الشبهات حولها لا يجري فكرنا على نفس التيار ألا يقدر ما يحاول الرد على ما يهاجم به .

نعم ؛ لم يقف الفكر العربي الإسلامي موقف التعصب والبحث عن الثغرات بل أبدى التكريم للمسيحية والتقدير لروائع الفكر الغربي واختلف مع جوانب معينة وهذه آية التسامح الحق .

وتبدو صورة التعصب والتسامح واضحة في موقف الغرب من العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية إلى اليوم ، يبدو ذلك في إقصاء روح الفكر العربي الإسلامي عن الفكر الغربي مع الانتفاع بكل ما أضافه الفكر العربي وإنكار فضل العرب والمسلمين . وتحويل منهج الفكر العربي الإسلامي في البحث العلمي إلى منهج غربي مع عدم الاعتراف بفضل الحضارة والثقافة العربية الإسلامية . ويطلقون كلمة القرون الوسطى المظلمة على فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية « مع إنكار مرحلة الحضارة العربية الإسلامية الوسطى بين الحضارة الرومانية والحضارة الغربية » هذا إلى تتبع القضايا الفكرية العربية الإسلامية بالتشكيك والاتهام والاستنقاص . وإثارة حملة من الشبهات حول الإسلام « واللغة العربية » ، والتشريع الإسلامي والوحدة الفكرية بين العالم العربي ، والدعوة إلى هدم الأخلاق والقيم ، إثارة دعوة الاقليمية والأمية والحداد والعلانية والاباحة .

ثم محاولة الحكم على الاسلام بأنه دين لاهوتي ، وإنكار كونه حضارة وثقافة ومجتمع .
ثم محاولة فصل الفكر العربي الاسلامي في جوهره عن الحياة في مجال القانون والاجتماع
والاقتصاد واتهام الفكر العربي الاسلامي بالتجريد والغيبية ، وتحريف تاريخنا وتحطيم
أعلامنا وتحويل تيار الترجمة . من الإيجابية إلى الإنحراف .

ومن أساليب التعصب والتسامح في الفكر الغربي قولهم أن الفلسفة العربية ليست
إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية وعشرات أخرى من الاتهامات الجديدة
بالكشف عن وجه الحق فيها . . .

محاولات التغريب

لماذا حرص الغرب على غزو الفكر العربى الإسلامى وإخضاعه لسيطرة يوسائله
الثلاث : التيشير والتغريب والشعوبية ؟

للإجابة على هذا لا بد من العودة إلى عام ١٩١٨م عندما وقف اللورد اللنبى فى « القدس »
بعد أن دخلها جيوش الحلفاء وأعلن كفته الغربية التى أثارت الدهشة : قال : « الآن
انتهت الحروب الصليبية ».

وكانت الحروب الصليبية قد انتهت عام ١٢٩١م ومضى عليها أكثر من سبعة قرون
غير أن الغرب لم ينس أنه مطالب فى يوم من الأيام بإعادة السيطرة على العالم الإسلامى
مرة أخرى ، فإذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت فى ذلك من قبل ، فإنها استطاعت أن
تحقق ذلك عام ١٩١٨ حينما أتمت قوى الإستعمار الغربى : الفرنسى والانجليزى والاطالى
والهولندى سيطرتها على العالم الاسلامى .

والواقع أن هذه السيطرة العسكرية كانت الخطوة النهائية لحمة ضخمة قام بها الغرب
فى سبيل تأكيد تفوقه منذ أوائل القرن التاسع عشر بفزوا بريطانيا للهند وهولاندا
لا أندونيسيا ، وفى العالم العربى عام ١٨٣٠ حين دخلت فرنسا والجزائر . ثم كيف أحيطت
الدولة العثمانية بنفوذ خنى وسلطان دخيل فى مختلف أقطارها وحول مقر الخلافة نفسه .

ولقد كان الغرب منذ بدأت نهضته الصناعية قد ربط بين الحضارة والاستعمار
وولى وجهه نحو العالم الإسلامى كجال حيوى للسيطرة على موارد الخامات وسوقا لبيع
منتجاته . ومن هنا كان من الضرورى عليه أن يسيطر سيطرة كاملة على هذه المنطقة
التي تقوم فيها الثقافة العربية الاسلامية بمجذورها المتصلة بالاسلام واللغة العربية
والقرآن ، وحيث كانت هذه المنطقة مهبط الأديان السابوية الثلاث وكان الإسلام بطابعه الواضح

فى المزج بين المادية والروحىة على نحو لم يعرفه الغرب الذى تقوم ثقافته وحضارته على المفهوم المادى الخالص ، وحيث تبدو صورة الشرق (وهو ما يسمى الأقصى) وثقافته تقوم على أساس المفهوم الروحى الخالص .

ولقد كانت ثقافة العالم الاسلامى المستمدة من مفاهيم الاساسية تقوم أساساً على روح الحرية والعزة والقوة والجهاد ومقاومة كل من يحاول السيطرة عليها أو اغتصاب مقدراتها . ولذلك فقد كان النفوذ الغربى حفيّا بأن يقضى على هذه المقومات الاساسية بافسادها وإدخال الشبهات والشكوك والزيوف إليها على نحو على دقيق منظم .

ومن هنا بدأت حركة « التغريب » تنمو فى ظل التبشير والاستشراق ، وتجربى محاولتها الاساسية فى إفساد مفاهيم الاسلام واللغة العربية والقرآن وتزييف التاريخ . وإدخال مناهج ومفاهيم مضطربة مختلفة متناقضة ودعوات متعارضة تحمل ألوية الأحاد والإباحة والتحلل والشعوبية ، وتدعو إلى الاقليمية والقومية الضيقة والجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية وتخلق دعوات الهرعونية والبابلية والأشورية والفينيقيّة والبربرية على نحو مثير غريب لاحد لاندفاعه ونحوه .

ومن خلال حركة « التغريب » برزت دعوة « الشعوبية » التى تقوم أساساً على احتقار التراث العربى الاسلامى ، وبث الشكوك فى التاريخ والأدب واتهام الاسلام بالقصور ، والعروبة بالنقص .

ومن هنا تداخلت حركة التغريب والشعوبية تداخلا خطيرا . وفيها يحمل اللواء كتاب غربيون ومستشرقون ويتعمم كتاب من العالم العربى والاسلامى ، وتقوم عليها صحف واسعة الانتشار ودور نشر ضخمة فى بعض العواصم العربية تُصدر مؤلفات أنيقة ومجلات رائجة ، وتظاهرها هيئات ثقافية ودور تعليم ومعاهد وجامعات .

وأبرز ما تهدف إليه حركتى التغريب والشعوبية تغيير المفاهيم الاساسية والقيم الأصلية للأمة ، وإلقاء بذور الشبهات حول كل قيمة ومفهوم ، فى مجال الفكر والدين والاجتماع والتاريخ .

وهي تحاول أمرين خطيرين :

الأول : إدخال مفاهيم الغرب للقيم الأساسية .

الثاني : إحلال قيم الفكر الغربى محل قيم الفكر العربى الإسلامى فى مجال المجتمع والمرأة والدين والنظم السياسية والاقتصادية .

وليس شك أن محاوله فرض مفهوم واحد من مفاهيم الغرب لقيمة واحدة من قيمنا كالدين مثلاً ، من شأنه أن يخلق أثاراً بعيدة المدى فى كل مجال الفكر والمجتمع والحياة .
فالدين فى المفهوم الغربى يختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم الفكر الإسلامى « فضلاً عن أن الإسلام ليس ديناً فحسب ولكنه دين وفكر وحضارة .

وليس شك أن كل قضايا الانسان والحياة والمجتمع فى نظر الفكر العربى الإسلامى الذى يقوم على أساس المزج بين الروح والمادة يختلف عن وجهة نظر الفكر الغربى الذى يقوم أساساً على المادية ، هذا الاختلاف الجذرى من شأنه أن يجعل لنا وجهة نظر مختلفة عن الغرب فى كل مسائل الثقافة والتربية والمجتمع والأخلاق .

ومن هنا يبدو مدى خطأ قبول مفاهيم الفكر الغربى للقيم الأساسية .

• • •

وقد امتدت حركة التغريب فى ظل حركات التبشير والاستشراق ، واستطاعت أن تسكون لها مراكز وقوى ودعاة وأعواناً فى ظل قيام النفوذ الاستعمارى « فلما بدأ ينحسر هذا النفوذ باستقلال أغلب دول العالم الإسلامى اليوم بدأ نفوذ التغريب أشد قوة فى ظل الدعوة إلى التجديد والتطور والعلمانية والحضارة « وقد وجد فيها منافذ إلى فرض وجهة نظره وتأكيد هدفه فى مقاومة بقاء القيم الأساسية للفكر العربى الإسلامى بما يمكنه التشكيك فيها وتدميرها . وإفساح الطريق لفرض قيم جديدة .
وهذا ما أطلق عليه الغزو الثقافى أو الاستعمار الفكرى ولا شك أن محاولات التغريب وجدت طريقها فى ظل بعض الأفلام السينمائية الأجنبية المتحللة والكتب الغربية المترجمة

والروايات والصحف والمجلات وأن تجد من كثير من ذوى النفوذ في بعض أقطار العالم العربى من أدباء ومشرعين واقتصاديين وأساتذة في الجامعات ورؤساء تحرير الصحف ركائز لها وأدوات للانطلاق والبث .

وقد استطاعت حركة « التغريب » في مرحلة السيطرة العسكرية والسياسية على العالم العربى الاسلامى أن تحقق كثيرا من النتائج . وإذا كانت قد بدأت أول أمرها بالتبشير الذى أثار كثير من الاضطراب ، وواجهه العالم الاسلامى والأمة العربيه بالمقاومة والتحدى ، فإن التغريب لم يلبث أن غير خطته وأخفى هدفه وراء مظاهر البحث العلمى وأضمر محاولته فى ظل مخطط ضخم قوامه الفكر والأدب ، وفى هذه المرحلة حرص على أن يتفادى الاصطدام بالواجهة أو المعارضة . وإنما اتخذ أسلوبا من الخداع دقيق المدخل ، ومن هنا تحولت كتابات المستشرقين والمبشرين إلى ابراز مظاهر الاعجاب والتقدير للغة العربية والاسلام والشرق والترب ، فى مقدمات تستطيع أن تخدع البسطاء ، ثم لا تلبث هذه الدراسات أن تتسلل إلى الهدف بالتشكيك فى القومات الأساسية وإثارة الشبهات والريب فى العقائد والقيم .

وقد استعانت حركة التغريب فى هدفها هذا بمئات من المخطوطات والمؤلفات والكتب القديمة التى اغتصبت وسرقت من بلادنا على فترات طويلة فى ظل النفوذ الغربى وأرسلت إلى مكاتب لندن وباريس وغيرها ووضعت تحت تصرف الباحثين الذين كانوا يعملون وفق خطة مرسومة فى وزارات الاستعمار الغربية . فقد استغلت كثير من الأبحاث والمؤلفات التى كتبها الشيوعيون التقدمى فى حملتهم على الفكر العربى الاسلامى ، وهى مؤلفات بادت فى الأغلب ، ورد عليها الباحثون العرب كالجاحظ وأبو حيان التوحيدي وغيرهم وفندوا ما فيها من اتهامات وأخطاء وزيف ، ومن هنا يبدو مدى تأمر بعض المستشرقين وكتاب الغرب فى استغلال هذه الاتهامات وإعادة توجيهها إلى الفكر العربى الاسلامى وإثارتها فى أسلوب جديد على أنها قضايا أساسية . وإتخاذها سلاحا للتشكيك وإثارة الريبة بين المعاصرين عن ماضيتهم وتاريخهم وقيمهم .

هذا فضلا عن ما قصد إليه دعاة التغريب من إبراز جوانب معينة من الثقافة العربية الإسلامية والدعوة لها . وآية ذلك الاهتمام بكتاب الأغاني (للأصفهاني) ومحاولة اعتباره مرجعا أساسيا للأدب العربي القديم بل وللتاريخ الإسلامي، مع أنه واحد من كتب الترف والترفيه . ولم يقصد كاتبه قط إلى أن يجعله مرجعا للبحث العلمي . ولكن التغريب استطاع أن يجد باحثا كالكتور طه حاول أن يرسم من خلاله صورة للعصرين الثاني والثالث الهجري فيقرر على ضوء دراساته لبعض الشعراء الماجنين كأبي نواس والضحاك . . . أن هذا العصر كان كله عصر شك ومجون .

ومن هذا يبدو الاهتمام بالأساطير المتصلة بالسيرة النبوية وإعادة بعثها وأحيائها خلق. الاضطراب والشبهات حول حياة النبي ومنايع الاسلام . وكذلك ما أولى التغريب من اهتمام بربايعات الخيام وكتاب ألف ليلة وليلة وخريات أبي نواس الذي كتب عنه أكثر من عشر دراسات تحليلية وصدر عنه أكثر من عدد خاص من مجلات كبرى وكان فنه هو أبرز موضوعات مؤتمر المستشرقين بروما عام ١٩٦٤ وكذلك الشاعر بشار ، وفي مجال « التصوف » أولى التغريب اهتمامه بالشخصيات المضطربة المثيرة ، البعيدة عن حقيقة التصوف ومفهوم الاسلام كالجلال وابن عربي والسهورودي . ثم ما اتصل بذلك من هدم شخصيات ضخمة في الفكر العربي الاسلامي كهجامة المعري وابن خلدون والتنبي ، فقد وضعت دراسات « علمية » حاولت التشكيك في عظمة هذه الشخصيات الثلاث وإتهام بعضها بالاضطراب . وقد عنى الدكتور طه حسين بأن يهدم المتنبي من ناحية الشك في أبوته واعتباره لقيطا ، كما حاول من التهوين من قدر ابن خلدون ومكانه في التحليل التاريخي وريادته في علم الاجتماع .

• • •

ثم جرت المحاولات إلى التفريق بين العرب والمسلمين في مجال الحضارة الإسلامية وإثارة نزعات العنصرية الجنسية التي لم يعرفها الاسلام . ثم محاولة رد التراث العلمي الاسلامي العربي إلى أصول بعيدة كالفرس والهنود واليونان والبيزنطيين وإثارة نظرية السامية والآرية والتركيز عليها وتوجيهها إلى العرب وعقليتهم وفكرهم . ثم إثارة عمليات الكشف الأثرى واستغلالها في تمزيق وحدة العالم

الإسلامي والأمة العربي في محاولة لتصوير تاريخ كل قطر وكأنه مستقل عن القطر الآخر أصلاً ، له مميزاته وتاريخه ومظاهره وحقائقه . مع أن هذه الأمة كلها ذات تاريخ واحد له طابع واحد أساسه فسرهما العربي الإسلامي الموحد ، وأن ما يبدو من خلاقات إقليمية ليس إلا مظاهر طبيعية في تباين البيئات لا ترقى إلى درجة الفوارق العميقة الجذرية . ثم اتجهت دعوة التغريب إلى الماضي القديم السابق للتاريخ الإسلامي في كل قطر ، فأولت المغاربة الاهتمام بالماضي الفينيقي والروماني ومصر بالماضي الفرعوني ولبنان بالماضي الفينيقي * والعراق بالماضي الأشوري .

ثم كانت محاولة ربط عبقرية أعلام كل وطن بالأرض لأبالتقافة الاسلامية العربية الموحدة قالقردوسي والغزالي فارسيان الفارابي تركي ، وهكذا .

ثم جرى التغريب على خطة الاهتمام الواسع بدراسات عن العالم الإسلامي قبل الإسلام وإبراز مخلفاته التاريخية ومذاهبه وأديانه وفرقه ونحله والاهتمام بالحركات الهدامة في تاريخ الإسلام كالباطنية والفرامطة والخزمية والبابكية والتوسم في دراستها . ثم الاهتمام بالزعات التي لا تتصل بجوهر الإسلام لإثارة الشكوك والاضطرابات ، ومن هذا التركيز على زعات التصوف المتطرفة والفلاسفة المفرقة ودعاة الإلحاد والحلول والفرق المنحرفة المنسوبة إلى التشيع اهتماماً بالنها .

ثم نجد من المحاولات التغريبية ما يذهب إلى أبعد مدى ، فهناك من يسقط المدنية العربية الإسلامية إسقاطاً كاملاً ، ويرى أن العالم لم يشهد بعد حضارة الرومان غير حضارة أوربا . وأن الفترة بين الحضارتين ما هي إلا (القرون الوسطى المظلمة) ثم هناك أنكار وتجاهل لأوليات الفكر العربي الإسلامي في مجال الجغرافيا والطب والفلك ، ثم إنكار فضل الفكر العربي الإسلامي في الفلسفة والعلم . وكل ما يتصل بالفكر ، وإبراز النظرية التي تقول أن اليونان هم أصحاب الفضل على الفكر العربي ، ثم إثارة زعات الفلكلور ، وإقليمية الأدب واللاهجات العامية والكتابة بالحروف اللاتينية . والدعوة إلى الأممية والعالمية وإفساد خطة الترجمة بتحويلها عن الجانب العلمي إلى جانب القصص المكشوف .

وأثارة دعوات جديدة كالبهائية والروحية الحديثة ، وتمزيق وحدة الفكر العربي

الإسلامى بعزل الأخلاق عن التربية ، والدين عن الأدب ، وإثارة عشرات من الدعاوى ،
الإلحادية والإباحية ، ومحاولة ترتيب نهضة العالم الإسلامى والعربى على الغزو الغربى .



وهكذا جرت حركة التغريب وفق مخطط منظم لتدمير القيم الأساسية للفكر العربى
الإسلامى بمحاولات متعددة مستهدفة أن يكون التغريب هو حل العالم الإسلامى
على قبول ذهنية الغرب ومذاهبه وقيمه ، بدلا من ذهنيته ومذاهبه الأساسية
وذلك بتزييف التاريخ وتشويه مبادئ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية وانتقاص الدور
الذى قام به فى تاريخ الحضارة الإنسانية وخلق الشعور بالنقص والشك فى النفس العربية الإسلامية .
ومحاولة حلهم من هذا الطريق على الخضوع لوجهة النظر الغربية ، وذلك بالعمل على
إنكار القومات التاريخية والثقافية والروحية فى ماضى هذه الأمة مع الاستخفاف بها
ومحاولة ذمها ، وكذلك توهين القيم الإسلامية والمغض من اللغة العربية الفصحى وتزويق
الروابط بين أجزاء العالم العربى الإسلامى . ومحاولة غرس مبادئ التريبة الغربية حتى
تشب الأجيال الجديدة مستغربة فى حياتها وتفكيرها وحتى تخف من نفوسها موازين
القيم العربية الإسلامية .



وقد عنيت حركة التغريب بأن تصور مرحلة بمرحلة مدى ما وصلت إليه من نتائج ، ومنذ ثلاثين
عاما صدر كتاب «وجهة الاسلام» الذى كتبه المستشرق هاملتون جب ومجموعة من زملائه فتحدث
عما وصلت إليه حركة التغريب من إبدال النظم والقوانين وطرائق العيش ، وأشار الدكتور
هيكل — إذ ذاك — إلى « أن تغريب الشرق إنما يقصد به إلى قطع صلة الشرق بماضيه
جهد المستطاع فى كل ناحية من النواحي ، تمزق صلة التفكير والعقيدة بين الماضى
والحاضر » وصيغ ماضى الشرق بلون قائم مظلم يرغب عنه أهله ويرون فيه عارا لهم ومن
هنا يرون أنهم عيال على الغرب يتطلعون إليه فى إعجاب وتقديس وعبادة ويزورون خضوعهم
له شرفا كبيرا . »

وقال الدكتور هيكل « أحسب أن كتاب الغرب قد نجحوا إلى حد كبير فى تصوير
تاريخ أمم الشرق بلون قائم ، وجعل أبناء الشرق أنفسهم يحسون أن بينهم وبين أيام مجدهم

الوفا من السنين تقصت كانوا أثنائها خاضعين لألوان من الذلة لا يستطيعون اليوم معها أن يشعروا شعوراً صحيحاً بمعنى الحرية أو بمعنى الدزة القومية وأن هذا التصوير زائف في نظر التاريخ النصف .

وأشار الدكتور هيكل إلى محاولة حركة التغريب في تزييف تاريخ الشرق وإحلال النظم الغربية والتفكير الغربي في الشرق وإفناء شخصيته ، وقطع صلة حاضره بماضيه في التاريخ والعلم والتفكير ، وكذلك تزييف العقيدة حيث وكل إلى المبشرين أن يقوموا بهذه المهمة الخطيرة . وأن يحملوا المسلمين على الاعتقاد بأن هذه العقيدة هي سبب تأخرهم وعدم بلوغهم مبلغ الغرب في حضارته .

وأشار إلى ما ذكره «شيخ المبشرين» زويمر في مؤتمر المبشرين الذي عقد في فلسطين عام ١٩٢٧ عندما أشار إلى أن التبشير قد وصل إلى اسمي غاياته في مهاجمة الاسلام ، وأنه أدى المهمة على أكملها ، وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية . وقال زويمر : أنه ليس غرض التبشير المسيحي هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين ، فالسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ، والتجارب دلت على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التي ترمي إليها هي إخراج المسلم من الاسلام فقط ليكون ملحداً أو مضطرباً في دينه ، وعندها لا يكون مسلماً أى لا تكون له عقيدة يدين بها فلا يكون للمسلم من الاسلام إلا اسمه ، والملاحد هو أول من يحتقر الاسلام والمسلمين ، وقال أن هذه هي اسمي مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية .

وقال زويمر : لقد قضينا على برامج التعليم في الأقطار الاسلامية منذ خمسين عاماً فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الاسلام ، ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التي تخلق فيهم العقيدة الوطنية والاخلاص والرجولة والدفاع عن الحق .

وقال : الواقع أن القضاء على الاسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جئنا منه أعظم الثمرات المرجوة « ا . ه .

وهكذا تتمثل دعوة التغريب في مرحلتها الأولى بعد أن انفصلت عن «التبشير» وهي تخطيط

عن طريق (١) تزييف التاريخ وتزييف العقيدة وتزييف الفكر العربى الاسلامى بإثارة الشكوك فى المقومات الأساسية كاللغة والدين والتاريخ .

(٢) القضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى والقضاء على الدين بالذات كمقوم أساسى منها ، واثراع الإسلام من مكانه كقوة ذات فعالية فى الثقافة والمجتمع .

(٣) إفساد وتحويل أنظمة التربية والتعليم والقضاء على اللغة العربية والفصحى وعمود الشعر ، والتركيز على الاقليميات الضيقة والهياث المحلية ومحاولة تصويرها بأنها ذات طابع خاص فى كل وطن وقطر وإقليم (٤) الفصل بين القيم الأساسية للفكر وتزيق وحدة الإجتماع والأخلاق والأدب والدين والتربية .

وقد استطاعت حركة التغريب أن تركز على إقصاء كلمات «الإسلام» والدين والروحية ، كما استطاعت أن تزرع عشرات من الدعوات والمذاهب كالوجودية ، والشيوعية والقومية الضيقة والعلمانية ، والبهائية ، والفرعونية والفينيقية والشرقية والطورانية وظهر من مفكرى العرب والمسلمين من يدعو إلى وضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمجرات والحياة الآخرة موضع البحث وإخضاعها لقواعد علم النفس الحديث (آسف على فيضى) أو الدعوة إلى أن المدينة الأوربية كل لا يتجزأ ومن المحتم قبول الحضارة والفكر الغربى مما « أحمد غايف (تركيا) وطه حسين (مصر) » .

ويبدو هدف التغريب أساساً متمثلاً فى القضاء على كيان وشخصية الإنسان فى العالم العربى والاسلامى بالقضاء على مقومات فكرة العربى الاسلامى الأساسية . ذلك أن دعوة التغريب كانت تقوم على أساس (١) التشكيك فى القيم (٢) تحويل المفاهيم (٣) الدعوة إلى الاندماج الكامل فى الحضارة الغربية (٤) القضاء على التاريخ والدين والتراث واللغة .

والواقع أن الفكر العربى الاسلامى فى جوهره ومنابهة الأولى فكر طليق متحرك قابل للتطور ، متفتح للحضارات البشرية والثقافات الإنسانية ، يأخذ منها ويعطى . ولأنه واجه الحضارة والثقافة الغربيتين بجرية لأخذ منها وأعطى دون أن يحدث الانحراف الذى كان نتيجة النفوذ الأجنبى الذى فرض عليه بتقديم وجهات نظر تتعارض مع مناهجه وعقائده عن طريق التعليم الأجنبى والصحافة الخاضعة للاستعمار وهو ما تحررت منه مصر وبعض الأقطار العربية وما تزال بعضها الأخرى خاضعة له .

وأساس الخلاف بيننا وبين فكر الغرب أننا لا نرى الاسلام ديناً وحسب كما يرى الغرب المسيحية . وإنما الاسلام دين وفكر ومجتمع . وأننا لا نرى خلافاً بين العروبة والاسلام فهما وجهين لحقيقة واحدة . ونحن لا نرى الحصاراً كالثقافة ، فالحصار ملك للإنسانية كلها ولكن الثقافة ثمرة روح الأمة ، والثقافة هنا تختلف عن المعرفة ، فالمعرفة عامة إنسانية والثقافة خاصة ونحن لا نؤمن بأن نقل الحضارة يعني نقل الثقافة . ولسنا نؤمن بأن ننقل أو نقبس ، إلا على قاعدة فكرنا الأساسية وعلى ضوء مقومات شخصيتنا وفكرنا فنأخذ ما يزيدنا قوة وحياة ونرفض ما سواه .

وينكر الفكر العربي الإسلامي « الأمية » ، والجري مع التيار عما يمسح بشخصيتنا ، كما ينكر الجود ، وعنده دائماً من المرونة والحيوية ما يمكنه من التطور والتجدد دون تبعية أو اندماج . ودون أن نكون ظلاً أو عملاً لثقافة ما من الثقافات ، فلنا ثقافتنا بمقوماتها وقيمها الإنسانية العالية . وليس فكرنا تراث قديم ولكنه ثقافة حية متطورة مستمرة التأثير والفعالية . وليست لغتنا راكدة ولكنها حية قادمة على الاستجابة ، وقد قام فكرنا أساساً على وحده شاملة لكل مقوماته ، فهو مرتبط بالتوحيد مؤمن بالإنسان سيداً للسكون في ظل الله ، وقد اتسق فكرنا على أساس مزيج رائع من العقل والقلب والعلم والدين والروح والمادة فليس هو روحية صرفه ولا مادية خالصة .

ومن هنا كان موضع الخلاف بينه وبين الفكر الغربي القائم في كل مناهجه ومفاهيمه على المادية وبالرغم من أن معركة التغريب واجهت الفكر العربي الاسلامي في مرحلة الغزو السياسي والعسكري وفرضت عليه الغارة فرضاً ، وأعطت المعركة وسائلها الضخمة في مجال التعليم والصحافة والكتابة وغيرها ، فإن فكرنا لم يستسلم وقاوم بكل قوة واستطاع أن يثبت وجوده ويؤكد شخصيته وقد اعترف دعاة « التغريب » بأن الخطأ الذي توقعوه لم يحقق هدفه كاملاً ، وقال الفرد كاتول سميث في كتاب (الاسلام) في التاريخ الحديث :

« لقد فشلت تجربة الغرب في الاحتفاظ بتقدير الشرق ، فشله في أن ينشر مثله العليا وقيمه الفكرية وطريقة حياته فشله في تغريب الشرق . وقد كانت الطرق ممهدة حين ابتداء المسلمون في إصلاح أحوالهم فكروا أولاً مثل كل أمة لها تاريخ وليس لها حاضر في العودة إلى التاريخ ، فبرزت الاتجاهات السلفية إلى العصر الذهبي في الاسلام فظهرت دعوتان سلفيتان هما محمد بن عبد الوهاب والشاه ولي الله في الهند ثم ظهرت الدعوة الثالثة التي هزت أرجاء العالم وهي دعوة جمال الدين (الأفغانى) في منتصف القرن التاسع عشر فخلق جيلاً ضخماً من المفكرين المسلمين كانوا يعيشون بقلوبهم مع الإسلام وعقولهم مع الغرب . غير أن الغرب قضى على نفسه بنفسه ، وتحول الشعور بالاعجاب بالغرب إلى تقيضه حين تسمم جرح الكبرياء بالأحداث » .

الشعوبية الفكرية الحديثة

تتمثل الشعوبية الحديثة في الفكر العربي الإسلامي في صورة تختلف عن الشعوبية التاريخية . فهي تحمل معارضة صريحة للقيم الأساسية لفكرنا ممثلة في الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث ، وهي من أكبر ركائز التغريب والنفوذ الأجنبي ودعامتها ومن هنا تتشابه الشعوبية الحديثة مع القديمة في الهدف فقد كانت تلك تقذف آداب العرب وفكرهم بالاتهامات والشكوك وتنثر حوله الأحقاد ، وهي اليوم تتمثل في بعض الهيئات والمؤسسات والمنظمات المبسوطة في العالم الإسلامي والتي تحاول هدم الدين أو اللغة عن عقيدة أو تعمل في خدمة النفوذ الأجنبي والاستعمار .

وقد ظلت آثار كتاب الشعوبية القديمة مصدراً للحملة التي تودع على الفكر العربي الإسلامي إذ تثار اليوم نفس القضايا وتلقى نفس الشبهات والشكوك وتعلن نفس الجواب والاتهامات والإسرائيليات المدخولة إلى التاريخ أو السيرة .

وقد واجه الجاحظ وابن قتيبة وابن دريد وابن عبد ربه وغيرهم هذه الاتهامات وردوا عليها بما يكشف الحقيقة ، ولكن الشعوبية الحديثة تتجاهل الحقائق وتحجبها وتعيد إثارة الشبهات وحدها . فالشعوبية اليوم هي « ثمرة » التغريب وأدائه ، وهي ليست صراعا بين ثقافتين وسلطانين كما كانت الشعوبية القديمة بين العرب والفرس .

وإذا قيل أنها تمثل صراعا بين ثقافتين وسلطانين فإننا تمثل الشعوبية حملة ألوية التغريب ومحاولة فرض المفاهيم الغربية على القيم العربية الإسلامية ، وفي كل ما تعرض الشعوبية من

أبحاث إنما تقصد به إلى التشكيك وإثارة البلبلة والنقض من قدر التاريخ واللغة العربية والإسلام والإعضاء عن فضل العرب والمسلمين على الحضارة ، والانتقاص من بطولة الأبطال وعظمة الأعلام في مجال الفكر أو الحكم أو الحرب والإعلاء من شأن القيم الغربية والمفاهيم الغربية ، وفرض النظريات والمذاهب والدعوات الغربية التي تقضها الغرب عن نفسه ، والعمل على تجزئة الفكر العربي الإسلامي والقضاء على روح وحدته والفصل بين الدين والتاريخ والأدب والتربية ، والفصل بين الماضي والحاضر ، وفرض المفاهيم الغربية في مجال الدين والقومية والديمقراطية والاشتراكية وإذاعة قدر كبير من الفلسفات والنظريات والمذاهب الغربية المتعددة المتضاربة ، وخاصة ما يتصل منها بالتشكيك في القيم الروحية والمثل الإنسانية ، والتي تحاول أن تفرص : المادية ، والجنس ، والفرقة ، وتعريه الإنسان وتؤكد حيوانيته .

وعندنا أن حملة لواء هذه الدعوات هم شعوبيون ، وأن هذا العمل الذي يقوم به مستشرقون وكتاب من العرب أو غيرهم منشون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي إنما هي الشعوبية وليدة التغريب التي تمثل المرحلة الثالثة للغزو الثقافي وكان التبشير حلقتها الأولى . فالحملة على تراثنا ، والتشكيك في تاريخنا ، والدعوة إلى العامية ، كلها حلقات من مخطط الشعوبية ما دامت تحمل طابع (١) الانتقاص (٢) الحقد (٣) التشكيك ، وكل كلمة لا تتوافر فيها صدق النظرة وإخلاص الرأي ووضوح الهدف ، تصدر عن قلم مجرح له ماضيه أو اتصالاته المشبوهة فهي دعوة شعوبية واضحة الهدف .

وفي هذا المجال يكشف علم « الجرح والتعديل » عن الكتاب والفكرين ومن تاريخهم وماضيهم يحكم عليهم ، فن كان تاريخه مرتبطاً بالتغريب - على أن يكون ذلك مؤيداً بالدليل والسند - فهو من دعاة التغريب .

وقد جرت محاولات الشعوبية وهي ممتدة في مجال الدراسات المختلفة في المعاهد والكتابات والجامعات في الوطن العربي والإسلامي إلى ما أسماه طه حسين « انتزاع الدراسات العربية من حضارة الدين والقرآن » وإلى الترويج للهجات المحلية وفرضها ودراستها في الجامعات والجامع اللغوية ، ومن شأن الشعوبية إثارة الخصومات كما فترت ، وإحياء الخلافات والشبهات كما أسقطت بالرد عليها . وهي عاملة على التفريق بين أصحاب الأديان في الوطن الواحد ، وبين أصحاب المذاهب في الدين الواحد ، وبين الأفطار والأوطان والأقاليم . بإثارة المارك والخلافات ، كما تعمل على إبراز دعوات الإلحاد والإباحة والتفرقة بالرأى ، وخلق وسائل الخلاف وإثارة الخلافات المذهبية والمنصرية والدينية وهدفها من ذلك كاله تمزيق وحدة الأمة ، والقضاء على وحدة الفكر .

وتتفق الشعوبية الحديثة مع الشعوبية القديمة في أنها تريد أن تحول الفكر العربي الإسلامي عن طابعه وشخصيته وبساطته وأصلته ووضوحه ووحدة مقوماته .

وقد عمات الشعوبية على التشكيك في الدين عامة والإسلام خاصة وذلك بالتحريف ونشر الآراء الأجمعية وإثارة الشبهات وتقليب الدعوات المنحرفة والمذاهب المضللة . والتشكيك في الحضارة العربية الإسلامية وإنكار فضلها على حضارة الغرب الحديثة، والتشكيك في قيمة كل نتاج فكري عربي إسلامي وتفضيل النتاج الأجنبي ، ومحاولة التماس الوسائل لنسبة كل قول عظيم أو رأى حكيم أو نظرية إيجابية في مجال الفكر أو التاريخ أو العلم لغير العرب والمسلمين ، وكذلك التشكيك في الأخلاق والقيم ، وفي اللغة العربية وقدرتها على التعبير ، وفي قدرة العرب والمسلمين على القيادة والتوجيه ومحاولة تشويه التاريخ العربي الإسلامي .



وقد تناول كتبنا معركة الشعوبية الحديثة في عديد من الدراسات^(١) ويرى محمد المبارك

(١) عبد العزيز الدروى : جذور الشعوبية الحديثة . محمد جيل بيهم : العرب والشعوبيات الحديثة ، محمد المبارك : الأمة العربية في معركة تحقيق التراث . الدكتور عبدالقادر حاتم : الشعوبية العربية الحديثة .

أن الشعوبية في مرحلتها الحاضرة تتمثل في ثلاث تيارات (١) تجزئة البلاد العربية (٢) إذابة العرب في بوتقة كبيرة كحوض البحر الأبيض أو الشيوعية (٣) تجزئة الشخصية العربية بدلا من تجزئة الأرض .

ونحن هنا في مجال دراسة الشعوبية الفكرية يهمننا هذا الجانب فتجزئة الشخصية العربية تهدف إلى « فصل العرب عن تاريخهم وحضارتهم وتجريدهم من مثلهم ومبادئهم بصياغة فلسفة خاصة لقوميتهم تجافي روحهم وتقطع الصلة بماضيهم وتقيم بين حاضرم وماضيهم حواجز لا تخترق ، فتفصل شخصيتهم الحاضرة فصلا تاما عن شخصيتهم التاريخية حتى في أشكالها الصافية وصورها الزاهرة . وتقيم من فلسفة فيخته ونيتشة ومازيني أو فلسفة الوجوديين فلسفة يقدمونها للأمة العربية لتستبدلها بفلسفتها الأصلية وأجهااتها الفكرية ومفاهيمها الاعتقادية وعقائدها الدينية » (١) .

• • •

وفي خلال مرحلة نهاية الاحتلال للعالم العربي وقيام دعوة القومية العربية ومحاولات الوحدة بين أجزاء معالم العربي ، أخذ مخطط الشعوبية الفكرية يبرز على صورة أشد وضوحا وقوة ومضى يركز عمله على قضايا سبعة من أبرز قضايا فكرنا العربي الإسلامي .

(١) اللغة العربية: وذلك بالدعوة إلى تحريرها من الإعراب، ومحاولة إحلال عامية الجماهير محل العربية . وفي هذا ظهرت دعوة سعيد عقل إلى الكتابة بالحروف اللاتينية . ودعوة غيره إلى أن تأخذ اللهجات العربية طريقها لتصبح لغات وإلى إلغاء الإعراب في اللغة العربية وصيحتهم هي « هشموا الجملة العربية واستعملوا الأساليب الضعيفة عربيا » .

(٢) القرآن : وقد ترددت أقوال الشعوبية في وصفه بأنه « خلاصة تركييبة لمختلف الثقافات التي نشأت قبله .

(٣) الإسلام : وقالوا عنه أنه أصاب المنطقة العربية بالعمى لأنه دين صحراوي أقليمي .

(٤) العرب : وهم موضع اتهام الشعوبية بالانحطاط واعتبار حضارتهم حضارة رمال والرمز للعرب بالرمل والتراب .

(٥) التراث : وقد جرت في شأنه نظرتان : محاربة التراث الاسلامي والاعتراف بالتراث العربي الجاهلي وكل تراث قبل الاسلام وإلقاء الشكوك والشبهات حول التراث العربي الاسلامي القديم وتحطيم القمم العالية فيه كآبي الغلاء وابن خلدون .

(٦) الدين : وقد دعت الشعوبية إلى رفض الدين ومشتقاته من الآلهة والقيم والأخلاق .

(٧) الشعر : الدعوة إلى هدم عمود الشعر ونبد القصيدة العمودية لاتصالها بالتراث العربي .

(٨) التاريخ : محاولة تزييف التاريخ وإضافة صفحة بطولات إلى بعض الخونة وتزييف بطولات بعض المجاهدين .

(٩) بروز ظاهرة « الرموز النربية » .

وللشعوبية شق آخر ، هذا الشق هو رفض الحضارة الانسانية ومحاولة فرض مفاهيم قائمة على التعصب في المجال الاجتماعي والسياسي بينما يقوم الفكر العربي الإسلامي في جوهره على التسامح والاقناع المنطقي ، وهو كما يشجب التحلل والالحاد ، فهو يشجب أيضاً التعصب وفرض أى نظرة أو مفهوم بالقوة والعنف .

فالفكر العربي الاسلامي المفتوح لتقبل كل النظريات والمذاهب لا يحتقر الفكر الانساني ولا يخاضعة ، ولكنه يأخذ منه ويعطيه على قاعدة الرشد الفكري ، ويقدر له الثروة الضخمة التي أغنى بها البشرية ، كما لا يرفض الحضارة بل يعتبرها حضارة عالمية ويزاها ملكا لكل الأمم والشعوب ، وليست الديمقراطية والاشتراكية والقومية نظرات جديدة عليه بل إن لها جذوراً عميقة في فكره وله فيها مفهوم تقدمي مستمد من جوهر فكره ومرتبطة ببيئته وروح العصر .

...

وقد ظهرت هذه الدعوة مؤيدة بمجلات وصحف وكتب أنيقة ضخمة تصدر في بعض العواصم العربية استكتبت بعض الكتاب من العالم العربي كله . وتقوم عليها منظمات

ترتبط بالنفوذ الغربي والصهيونية. وقد اتخذت هذه الدعوة من كلمة ليق أشكول قاعدة لعملها، هذه الكلمة تقول :

« إننا لن نسمح بوجود لغة واحدة وشعب واحد ودين واحد في الشرق الأوسط »
وفي ظل هذه الدعوة ظهرت عديد من المؤلفات والدواوين الشعرية تحمل على الإسلام والعروبة واللغة العربية .

وقد واجهت القاهرة هذه الحملة بمقاومة علمية منهجية تمثل فيها الإيمان الصادق بمقومات الفكر العربي الاسلامي والأمة العربية الواحدة « وكان لها الدور الأكبر في رد كل دعوة شعبية أو تفريبية وإعلاء قيم القومية العربية ومقاومة الشعبية والتغريب المبتذلان في التعصب والجمود من ناحية أو التحلل والاغراق في مهاجمة التراث والقيم من ناحية أخرى ، هذه المقاومة تجرى وفق مفهوم واضح لا يميل ولا ينحرف مستمد من ميزان يؤكد أننا نعيش بفكر مفتوح ولكننا لا نستورد ولا ننحرف .

وقد ركزت كتابات الشعبية المهجوم على الجوانب الأخلاقية والفكرية والروحية ، على نحو يحمل طابع السخرية والتشكيك في مجال الشعر والقصة والنقد والدراسة الأدبية .

ومن كثير من النماذج والكتابات بدا طابع المهجوم على فكرة « الله » والسخرية من الأديان ، وإبراز الرموز الوثنية والكنسية من أجل تخويه القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي والأدب العربي .

ويقول الشاعر أنسى الحاج في ديوانه « لن » : أننا منذ ألف عام ونحن عبيد وجهلاء وسطيجون، والغلاص في العمل الثوري هو (قصيدة النثر) التي تقوم في جوهرها على رفض كل القديسات والبناءات المتعارف عليها وفي مقدمتها « الأخلاق » فالأخلاق تحد من ممارسة الإنسان لانسانيته وتخنمه من تفتتح ذاته ونحوها .

وتعتمد هذه الحملة على عبارة إسرائيل « أن القومية الحقيقية في الشرق الأوسط هي القومية الأفليمية وليست القومية العربية » وقد أعلن سعيد عقل في مقدمة قصة « جنار » التي

كتبها بالعامية اللبنانية ، أن لفة الشعر ليست هي صور الألفاظ وإنما هي موسيقيتها . ومن ثم يسهل استبدال الدراجة بالعربية ، وإستبدال رسم الحرف اللاتيني برسم الحرف الذي ورثناه . ومن خلال كتاباته يبدو اتجاهه الواضح إلى الإقليمية الفينيقية ، حتى أنه يقول أن دمشق كانت عاصمة فينقيا اللبنانية . ويجرى في تيار أسماء « ميثولوجية لبنان » وتعطى كل هذه الكتابات التي تمثلها هذه الحملة (سعيد عقل . نزار قباني . علي أحمد سعيد (أدونيس) ، يوسف الخال) طابع « القومية السورية » التي حمل لوائها أنسى الحاج وهي بهذه الصورة تتحول من ميدان السياسة إلى ميدان الفكر ، وتقوم على رفض الفكر العربي الإسلامي ومقاوماته الأساسية : العربية والعرب والإسلام ، التشكيك في التراث العربي الإسلامي والتركيز على القول بأخطا العرب وتشجيع الرفض لجوهر الدين ، والحملة على الإسلام باسم الفرعونية والوثنية ورموز المسيحية في ظل الامبراطورية الرومانية والفينيقية .

وقد أولى « جاك برك » في مقدمة كتابه مختارات من الأدب المعاصر اهتماما كبيرا لهذا التيار التغريبي الشعبي وقال أنه توجد في بيروت مدرسة تعمل على التخلص من الفصحى وتطارد أي نوع من العروبة تشتم منه رائحة التراث ، وهي تقبل التراث الجاهلي والمسيحي وترفض التراث العربي الإسلامي .

...

وتحمل الشموية الحديثة الدعوة إلى وصل ما تقطع بين العرب واليونان وقبل اليونان عبر المسيحية ، على اعتبار أن هذا التراث « المتوسطي » هو نخيرة الحضارة الإنسانية ومهداها .

...

ولا شك أن هذه الصورة تكشف هدف « الشموية » الفكرية الحديثة التي لا تخرج عن مفاهيم التغريب ودعاوية في كل ما يتعلق بالدين واللغة والتراث . وهي تعطى في مجموعها صورة الخصومة الحاقدة لكل قيم الفكر العربي الإسلامي سواء كانت هذه الخصومة مستمدة من فهم أو من تبعيه ، وهي على كل حال خصومه ليست ذات طابع علمي ولا تقوم على منهج واضح في مواجهة الحقائق أو نقدها . وهذا ما يجعلها غير جديرة بالنظر إليها أو احترامها .



الكتاب الرابع

نحن والحضارة الغربية



نحن والحضارة الغربية

لكي نفهم الحضارة الغربية المعاصرة علينا أن نسأل :

ما هو هدف الحضارات في حياة الإنسانية . والجواب معروف ، هو إتاحة أكبر فرصة للإسعاد الإنسان وترقيته ورفاهيته وتوسيع نطاق أفاق الخير والإنماء والسلام والحرية ونقله من البشرية إلى الإنسانية ، ومن هنا تمثلت الحضارة قديماً علينا في محاولة تكوين الإنسان الكامل أو الإنسان الأعلى « السوبرمان » فإذا كان هذا صحيحاً — وهو صحيح — فإلى أي حد بلغت الحضارة الغربية في تحقيق هذا الهدف .

إن الحضارة الغربية قد بدأت دورها منذ أوائل القرن الخامس عشر حيث كانت الحضارة العربية الإسلامية قد أوشكت أن تبلغ نهاية الدورة التاريخية لها . ونحن لا ننكر فضل الحضارة الغربية ولا معطياتها الباهرة لإسعاد الإنسان ورفاهية ولم يرفض الحضارة الغربية باحث منصف أو متمدن عصري ، ولكننا ندرس هنا ما طرأ من انحرافها عن خدمة الإنسان إلى تدميره ، ونراجع أوجه الخلاف بين مذهبها المادي وضورها الروحي ، وما وقع نتيجة هذا الانقسام من أزمة كبرى يدرسها اليوم أساطين الفكر وهي « أزمة الإنسان أزاء الحضارة ».

ومنذ القرن الخامس عشر إلى اليوم (١٤٠٠ — ١٩٦٥) يمكن أن يسمى ذلك عصر الحضارة الغربية التي لم تلبث أن أصبحت الحضارة العالمية لارتباطها بالاستعمار وفرض سلطانها وتقوؤها على العالم كله . ولنا إلى الحضارة العربية نظر ثان : هل أسمدت أهلها ، وهل أسمدت الإنسانية .

ولكي نستطيع أن نعرف ذلك ، علينا أن نستعرض تاريخ هذه المرحلة وتطوراتها . فقد بدأت الحضارة الغربية وهي تجمع بين الدين والعلم ، ثم لم تلبث أن انفصلت عن الدين إلى العقل إلى التجربة ومن المادية الداروينية إلى المادية التجريبية ، كادية هيكل وماركس ، وبرزت دعوتها إلى ديانة الإنسانية ، فعبادة الطبيعة فعبادة الإنسان في تحولات مستمرة لم تتوقف .

وقد كان لنجاح العلم التجريبي وظهور كشافه الضخمة مادفع العقل الغربي الذي يقوم

على أساس وراثيات الوثنية الاغريقية والحضارة الرومانية والروح المسيحية أن يفسر مفاهيمه الاغريقية في عبادة الانسان والرومانية في اعتبار كل ما غير روما عبيد وهنا غاضت روح المسيحية السمحة تحت تأثير قيود الكنيسة وقصور مفاهيمها عن الانفتاح على العلم وتطوره ووقوفها إزاءه موقف الخصومة .

ولم تكن الحضارة الغربية في جذورها إلا ثمرة للحضارات الانسانية التي مرت بالبشرية منذ فجر التاريخ، وهنا يصدق القول بأن الحضارة كالنهر يحتفظ باسمه على طول مجراه ولكن أمواجه وشواطئه هي التي تتغير وتتبدل ، بتغير محطات الطريق التي تتمثل في المصريات الفرعونية والبابلية والفينيقية والهندية والصينية والآشورية والفارسية واليونانية والرومانية والاسلامية العربية .

وقد كان قوام الحضارة الغربية أساساً تلك الأوليات والكشوف التي حققها الحضارة الاسلامية العربية ، ومن هنا كان اتصال الحضارة الغربية بالحضارات التي سبقته والتي تصادف أنها بدأت في الشرق (مصرية وفينيقية) ثم وصلت إلى الاغريق والرومان (الغربية الاسلامية) ثم عادت إلى الشرق ككرة أخرى متمثلة في الحضارة الغربية : ومن هنا كان هذا الاتصال مؤكداً أن هذه الحضارة قد شاركت فيها الأجناس والأمم المختلفة .

وقد كان من الطبيعي أن تكون الحضارة إنسانية النزعة ، وأن تعمل على نشر لوائها بحقق الارتفاع بالحياة الانسانية ويمطى أكبر قدر من عوامل الرقي في مختلف مجالات الحياة المادية والاجتماعية بما يزيد قدرة الانسان من السيطرة على الطبيعة مع ترقية النفس والفران ومنح الانسان إنسانيته وروحيته إلى جانب ماديته وبذلك يتحقق عطاء الحضارة للعقل والروح والجسد معاً .

غير أن الحضارة الغربية لم تكن كذلك فقد ارتبطت منذ يومها الأول بالاستعمار فكانت قوتها الجديدة وسيلتها للسيطرة على الأجزاء غير — الغربية — وما سوى أوروبا من العالم واتخاذها مناطق قوذها ، وبذلك آتمت السيطرة على أفريقيا وآسيا وكان العالم الاسلامي والعربي هو مجال التركيز الضخم والأقوى .

وهنا تمثل الحضارة في السيطرة العسكرية والسياسية على هذه المناطق وتجريد هذه الأجزاء — التي تمثل الشعوب الثلثة من حريتها ومن مواردها . فأصبح العالم الإسلامي العربية جزء منه والأمة مصدراً للوارد الخام والتوابل والبتروال والمادن والمطاط وكل الخامات التي تتخذها وسيلة لإدارة مصانعها .

ثم تصبح هذه المناطق بعد ذلك أسواقاً لتصدير منتجاتها إليها « وكان الاستعمار خفياً بأن لا ينقل إلى هذه المناطق المحتلة والتي أطلق عليها اسم « المستعمرات » إلا قشور الحضارة » التي تركزت على المحور والزينة ووسائل إثارة الفرائز المختلفة كجزء من مخطط تفريبي مدرّوس يرمي إلى تدمير قوى هذه الأمم وقتل معنوياتها والسيطرة على ثرواتها في مجال المجتمع ، وقد حققت هذه المحاولات فعلاً سقوط معظم ثروات الأمم في أيدي المرائين وأصحاب الحانات الذين كانوا في الأغاب من الأجانب .

وبذلك توسع نطاق السيطرة الإقتصادية ، فإذا أضيف إليه الغزو العسكري والسيطرة العقلية عن طريق تحويل برامج التلميم والصحافة وبث قصص الجنس والمذاهب والنظريات الأدبية والاجتماعية والسياسية المضطربة تبين إلى أي حد كان هدف الاستعمار باسم الحضارة خلق قيادات جديدة خاضعة للاستعمار مرتبطة به ، وتبين كيف كانت الحضارة ذات أثر بعيد في استغلال الشعوب والأمم باسم الانسانية وحرية تمدن الشعوب :

وقد جرى اتجاه الحضارة على هذا النحو في ظل مفاهيم أساسية هي أن « الجنس الأبيض » هو الذي يحمل أمانة الحضارة وتمدن بين الشعوب وأنه لا بد أن يحتفظ بسلطانه وسيطرته ، وأنه لتفوقه العقلي وسلطانه المفروض بالقوى العسكرية والاختراعات لا بد أن يعيش في ذروة الشرف والرفاهية وأن تكون مختلف الشعوب الملونة في صفوف العبيد ، وأن تظل بلادها مصادر للخامات وأسواقاً للإنتاج .

وقد صورت هذا الاتجاه الكاتبة الفرنسية « مدام سنت بوانت » حيث يقول : إنى أهم المدينة العربية بأنها قصرت عن القيام بالهمة إلى ترعم أنها أقيت على عاقبتها في الأجيال الأخيرة ، أعنى المهمة التي ترمى إلى نشر تماالم الانسانية وتعيمها على وجه

الأرض بحيث تؤدي إلى الاتحاد ، ويمكن للإنسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غير ، وهما وسيلة حب الذات ووسيلة حب الغير ، أما الغرب فإنه لم يقع اختياره إلا على الوسيلة الأولى : وسيلة الأنانية وحب الذات « وكان اختباره لها جريئة » ، وكان ذلك سبب ضياعه واضمحلال ثقوده ، لأن الوسيلة التي لجأ إليها ملعونة : إن الأنانية تقضى على الخير وتلتهم كل بر ، ولقد أراد الغرب أن يوحد العالم ، ولكن تحت سلطانه ولصلحته ، والعالم لا يساس إلا بالعدل والمحبة وبالإخاء وبرد الحقوق إلى أهلها ، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة ، واعتمد على القوة وحدها ، وعيث بالشرائع الدينية « وخالف تعاليم المسيح عيسى الذي أمر بحبة الناس أجمعين . لقد أضاع « الشرق » دياجير أوروبا بنور تعاليمه » ، وما هذه العلوم التي يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق وليس الذي يحجب النور عن الأنظار هو مدينة الشرق القديم ، بل الوحشية الغربية ودين القوة وحب الذات والأنانية التي يعمل بها الغرب . لقد اختار الغرب الرذيلة على الفضيلة وأنه . بالتجائه إلى الوسائل التي لا تعرفها الانسانية قد أثبت أن مدينته أفلست .

ولقد ظلت حضارة الغرب تعامل البشرية الانسانية على نحو يختلف عما تعامل به أهلها . فهي تحتجز الحرية والكرامة والرفاهية لأهلها . وبينما هي تحقق مزيدا من الترف والرق لأهلها تفرض على الأمم اللونة - وخاصة العالم العربي الاسلامي - أشنع صنوف الاذلال ، فتمتص نتاج أوطانهم وثرواتهم ، وتقاوم بالتدمير أى حركة من حركات الدعوة إلى الحرية . والحضارة الغربية تقول بالحرية ولكن لأوروبا والغرب والرجل الأبيض « أما في آسيا وأفريقيا فإن أهلها ليسوا إلا عبيداً وليس لغير الرجل الأبيض الحق في حمل أمانة عمدين هذه الشعوب المتخلفة .

أما موقف الحضارة من إسعاد أهلها وترقيتهم ورفاهيتهم فقد بلغت في ذلك غاية المدى ولكنها عجزت عن المحافظة على القيم الانسانية للحضارات « فهي قد قامت أساساً على المادية ومن ثم تطورت مفاهيمها في ظل عوامل ذات فاعلية إلى تغليب مفاهيم إطلاق الفرائز وتعزيز « حيوانية » الانسان ، ثم اندفعت في تحريره الحرية على النحو الذي لم يبق لها حد تقف عنده .

ولعل « الدوس هكسلى » حين يصور هذه الزاوية يكشف حقيقتها بوضوح حين يقول : أن الحضارة قد دفعت الناس إلى التمرد من حياة الروح والاندفاع وراء المادة وقصر جهودهم على التمتع والرغبات وإعراضهم عن المثل العليا ، وأن اندفاع العالم إلى الاستمتاع قد شاع في أقوال المؤلفين والشعراء والخطباء والمثليين المتأدى في سبيل الدعاية للحياة المستهتره والأباحه ، وقد بالغوا في مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مزروله مبهوضة كالسم الذى ينقلب داء بعد ان كان دواء . وإن المثل العليا حقيقة زاهية لاشك فيها لأنها ضرورية للعالم وهى الوسيلة الوحيدة للتقضاء على الفلسفة المادية التى أعجب بها هواة اللذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها ، وأن النفوس البشرية لتضيق في سبيل هذه اللذات وتفتقد الثقة بالفضائل ، وقد أجمعت أرق العقول في سائر الأزمنة والأمكنه على أن غاية الانسانية هى السلام والمحبة والعدل ، ومن المحبة الاخوية نشأت فكرة الوطنية وهى فكرة إذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الأوطان » ويقول لاسكى : « لقد فقدت الحضارة ثقها في نفسها وإيمانها العميق بحبوية القيم الثقافية السائدة وعجزت عن تحقيق الوفاق بين عالم المثل الأعلى المتمثل في كتابات الانسانيين وبين حقائق هذا الواقع الحافل باهوائه وأطماعه وخصوماته ، إن الحضارة تمر بمحنة من عن الشك والخوف والاحاد وتبمع للماير الثقافية والقيم الأخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير في حياة الفرد وحياة الجماعة » .

وقد عرض لهذا المعنى كثير من الباحثين ، يقول ألبرت شفايتسر في كتابه : « فلسفة الحضارة » : بعد تجربة طويلة تبين أن الحضارة في جوهرها قضية أخلاق وإننا لن ننجح في بناء حضارتنا على أسس سلمية إذا لم نرجع إلى المفاهيم الأخلاقية .

ويرى ألبرت شفايتسر أن غلبة الجانب المادى في الحضارة على الجانب الروحى هو مصدر أزمة الحضارة والانسان في هذا العصر ؛ يقول : أن تقدم الحضارة المادى أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحى ، لقد اختلف توازنها ، فالأكتشافات التى جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفها على نحو لم يسبق له مثيل قد أحدث ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض وبين الجماعات والدول ، والواقع أن معارفنا قد آرت ، وأن قوتنا قد ازدادت إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله ، نحن نعالى في تقدير إنجازاتها المادية

ولا تقدر أهمية المنصر الروحي في الحياة حق قدره . إن الحضارة التي لا تنمو إلا في التواحي المادية دون أن يواكب ذلك نحو متكافئ في ميدان الروح ، هي أشبه ما تكون بسفينة إختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها ، ذلك أن الطابع الجوهرى للحضارة لا يتجدد بإيجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان وتحسين الأحوال المادية والسياسية للشعوب وللإنسانية في مجموعها . وليس المنصر الحاسم في تقويم الحضارة ما أنجزته من أعمال مادية بل يتوقف مصيرها على كون الفكر يسيطر على الأحداث أو لا يسيطر . والأمر في هذا شبيه بما يحدث في السفر ، فإن نتيجة الرحلة لا تتوقف على كون السفينة كانت أسرع أو أبطأ قليلا بل على كونها تسير في الاتجاه الصحيح وأن قيادتها في يد أمينة .

وهذا الذى يقوله ألبرب شيتسر في كتابه (فلسفة الحضارة) ليس جديدا فقد رددته من قبل «أوزفالد شبنجلر» في كتابه سقوط الغرب (The Decline of the west) حيث قال : إن الحضارة الغربية مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وأنها تعاني أعراض الشيخوخة والانحلال الفناء .

وقد عارض نظرية شبنجلر التطور وأثبت أن الانقلابات الهامة في تطور الكائنات والمجتمعات والأنظمة والفنون والعلوم بل والمقائد إنما كانت فجائية أملاها القضاء المحتوم وأن الناس والمجتمعات مسوقة بدورة محتومة لا تدير فيها للإرادة الذاتية .

وإن كل حضارة خاضعة لقانون الميلاد والنضج والتدهور والفناء ، وأن كل حضارة تقضى وتذبل بعد أن تكشف عن خصائصها مثل القوميات وصور الحكم وأن الاشتراكية هي آخر مراحل هذه الحضارة .

وقال شبنجلر : إن أوروبا ستقضى على حضارتها التي هي بمثابة عملاق يترخ (Alattering giant) بفعل الجمر والمرض والانحلال .

ويتنبأ رومان رولان لآسيا بالحضارة القادمة « وستغلبنا آسيا كما غلبتنا رومية وأثينا قديما » ويقول راتسو : أن الليل ينجم على أوروبا ونحن نولى وجهنا شطر الشرق . ويرى الدكتور باكيه أن أعمدة الحضارة الجرمانية اللاتينية تتداعى وأن الشرق أخذ يستيقظ

ويجد نظاما أخلاقيا روحيا . وأعلن « برتراند رسل » أن أوروبا محتاجة إلى حضارة جديدة أو حضارة تختلف عن حضارتها الحالية وأن علينا أن نتفهم بدروس الطريقة الذي يحل بها الشرق مشاكله .

وقال « جود » : لقد وهبنا العلم قوى لم يكن تعلم بها أجدادنا السالفون ، ولكننا نستخدمها بعقول الأطفال والمتوحشين ، وأن لا شيء يسد الثغرة التي تفصل قدرتنا عن حكمتنا غير إحياء القيم الأخلاقية العليا وذلك بإحياء العقيدة الدينية في النفوس . وأن المطلوب هو سد الثغرة بين العلم والأخلاق .

وقال « مالك بن نبي » : أن اعتماد الحضارة على العقل وحده آثار بعيدة المدى في الحضارة ، فالعقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز ومن هنا تشرع الغرائز في التحرر من قيودها ، وتنطلق الغرائز بقدر ما تصنف سلطة الروح .

...

وبالجملة فإن أزمة الحضارة تتمثل في ذلك الإغراق البلى وصلت إليه في المادية والإباحة ، ويحاول هكسلي أن يصور هذه الأزمة فيقول : إن العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان ، وتعيش في ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد والمادية البحتة التي تجرد الإنسان من كل مشاعر الإنسان بلا حب ولا تعاطف . وأنها تتبادل الاتصال الجنسي على نحو ما تفعل السائمة . وأن العالم يمارس الحياة بطريقة غريزية لا تقوم على منطق أو تفكير ، وعنده أن المجتمع الذي تحل من قيود الزواج ولم يعترف بالأمومة ، وكل شيء عنده تصنعه الآلات ، إنما يستهلك مائة سنة في خمسين سنة ، بالعقابر والإجهاد المصبي والخروج على الطبيعة وخاصة حين يكبت امتعالاته الحقيقية ويظهر بالكذب والنفاق .

وعنده أن طريق الخلاص هو العودة إلى عالم الروحانيات ، وأن على الغرب أن يتعلم الكثير من عزوف حكماء الشرق عن الدنيا وزهدهم في المادة ، وفهمهم العميق لتلك التجربة الصوفية التي تتيح للإنسان أن يجد الله في قلبه .

ودعا « كيرس لنج » أوروبا إلى حضارة جديدة يستمد منها روحانية الشرق .

وقد أشار كثيرون إلى طغيان المادة على الإنسان الحديث بحيث لم تمد أمامه قيم روحية يرمى عليها سلوكه ومعاملاته ، وأن جميع القيم قد أخذت تتأرجح .

ويرى «أرنولد تويمبي» أن الدين هو عماد المجتمعات وبه تقوم الحضارات وأنه العامل الوحيد لإنقاذ الحضارة الغربية من السقوط ، وعنده أن الحضارة الروسية الحديثة هي جزء من الحضارة الغربية واحتجاج عليها في ذات الوقت وأنها ليست طريق الخلاص للحضارة الغربية وأنها مرحلة وليست خاتمة ، وأن الخلاص هو العودة إلى الدين .

...

ويستعرض مستر سوروكين (أستاذ الاجتماع بجامعة هارفارد) أزمة المدنية الغربية في بحث مستفيض^(١) فيقول إن الأزمة العنيفة التي اجتازها الحضارة الغربية الحديثة هي أمر غير عادي ، وهي نتيجة لتفكك الأسس التي قامت عليها الحضارة . وقال أن هناك نقاط ضعف تهدد الحضارة لأن استهدافنا للذمة والتمتع يؤدي إلى انحلال القيم الاجتماعية والحضارية ويجعلها مجرد وسيلة للذة في المستوى الوضع والنوع الخسيس ، كما أن محاولتها تصوير الواقع كما يظهر لحواسنا يؤدي تدريجياً إلى الركائز والاهتمام بالمظاهر بدل التعمق في البواطن . ثم أن الفنون الحسية تهتم بالظواهر والأغراض فتهمل الجواهر والأعماق وتكون سطحية ليست لها أفكار أو مثل تستهدفها من وراء الصور التي تعرضها . والعب أنها تركز اهتمامها على الأنواع العليا من الأشخاص والحوادث سواء للصوم أو المجرمين أو المحتالين أو النساء الساقطات أو ما يصور أوضاع الظاهر وأسيوأها .

ومن دلائل الانحلال في الفنون الحديثة الاهتمام بالكمية قبل النوعية والعناية بالوسائل قبل النبوغ والإبداع ، فنحن نقيس عظمة البناء بكبره ، وجودة الكتاب بكثرة ما يباع منه والجريدة بسعة انتشارها .

وقد ضعفت روابط الأسرة فكثرت حوادث الطلاق والافتراق وتضاءلت الروابط التي

(١) ترجم البحث الدكتور صالح أحمد البلي (بغداد) مجلة الكتاب المصرية يناير ١٩٥٢ .

تربط الأطفال بالآباء وذلك لادزياد نسبة الزواج الذى لا يرافقه أولاد ، وأصبحت الأسرة لا تقوم بتربية الأطفال ، كل هذا أدى إلى زيادة الجرائم بين الأطفال وحط من الأخلاق .
وأضعف الشعور بالواجب الاجتماعى والمسئولية .

وكانت حرية النشر والرأى دعوة إنسانية نبيلة ، ولكن لما انحطت الأخلاق انتشرت الدعاية المتطرفة وزادت الصحافة الصفراء والروايات المكشوفة وأصبحت سموما اجتماعية أسوأ من حرمان الحرية ، وإذا لم يكن للفرد اعتقاد قوى بالله وبالحق والعدل وإذا سيطرت على أعماله الرغبة فى اللذة بدل احترام الالتزامات التعاقدية ، فإن أعماله تصبح مبعثا الشهوة ولن يميته عنها أو يوقفه عن الإضرار بالآخرين سوى القوة .

والمجتمعات التى تكثر فيها أمثال هؤلاء تصبح عرضة لصراع داخلى عنيف وثورات وتفكك . والسعى وراء اللذة يحطم التوازن العقلى والأخلاق لدرجة أن الجهاز العصبي لمعظم الناس لا يحتمل الضغط الرهيب الذى يمرض له فيفتسكك ، ولما لم يكن للإنسان فى مثل هذه الحضارة مثل عليا وكانت حياته يكتنفها صراع مضطرب فإنه يقع فريسة للأوهام والدوافع ويكون كالريشة فى مهب الريح ، فيفقد أثره ويزداد تفككه ويمرض لرجات عنيفة تحطم أعصابه . والاضطراب العقلى فى الغالب يرافقه الاتيحاد لأن أسبابها واحدة وهى الاضطرابات الاجتماعية . وقد تزايدت رغبات الناس التى لا يمكن إشباعها إلا بالاستخدام بالآخرين الأمر الذى يجعلهم يعيشون فى جو مليء بالخسومات والعداء .

ولما كانت الحضارة حسية فقد قامت على التقدير المادى واستخدمت كل طاقتها للحصول على أكبر ما يمكن من التلذذات وتوسلت بالعلوم والفنون إلى زيادة الإنتاج والتجارة واستطاعت ذلك بتسليمها الشعوب الضعيفة امكانياتها .

ولما أشار إلى تناقض الحضارة فقال أنها تنادى بالمساواة بين البشر ولكنها تخلق كثيرا من عدم المساواة العسكرية والحلقية والعقلية والاقتصادية والسياسية ، وهى تتنوع إلى

مساواة الفرص بين الناس ولكنها لا تحقق من ذلك شيئاً ، وهي تنادى بحكم الشعب بنفسه
لبنفسه ولكنها عملياً تطبق النظام الدكتاتوري وهي تثير الحاجات والرغبات ولكنها
تمنع إشباعها .

ومحور التناقض قائم على كون حضارتنا تسمو بالإنسان وتمجده ، ولكنها في الوقت
نفسه تحطم من القيم الإنسانية وتخفضها ، وقال إن الدليل على ذلك إن حضارتنا الحسية قد تضاعف
إنتاجها للمبدعين منذ أواخر القرن التاسع عشر فإنه لم يظهر في السنوات الأخيرة في الموسيقى
أمثال باخ وبتهوفن وفي الأدب أمثال تولستوى ودستوفسكي ويرون وديكنز وجوته وبزلك
وفي الفن أمثال رامبراندت وفي الفلسفة أمثال هييجو وشلبخ وشوبنهاور وسنبر ونيتشه » .

وقد اطالت النقل من الكتاب الأمريكي بالإضافة إلى مقاله غيره من الباحثين لأضع
تحت يد الثقافة العربي الإسلامي مفاهيم مفكرى الغرب بالنسبة لحضارتهم التي تلقى إعجاباً
وتقديراً كبيراً بين دعاة التغريب والشعوبيين حيث يتوالى دعوتهم إلى الارتباط بالحضارة
الغربية ارتباطاً كاملاً .

* * *

ولسنا نحن من خصوم الحضارة الغربية المعاصرة ، ولكننا من خصوم مفاهيمها
واعتقد أن قد استطعنا أن ننقلها على قاعدتنا ومفاهيمنا نحن ، وأن نحقق بذلك ما يتطلع
إليه نوابغ الغرب وفلاسفته فقد كانت قاعدة فكرنا دائماً هي ذلك المزيج من الروح السادة
والمقل والقلب والدين والعلم .

وقد كانت قضية الحضارة الغربية موضع البحث منذ وقت بعيد في الفكر العربي
الإسلامي . وكانت هناك الدعوة الخاطئة المضللة المستمدة من جنود التغريب والشعوبية
التي تدعونا إلى أن نسير سيرة الغربيين ونسلك طريقهم لتكون لهم أنداداً وشركاء ، ولقد
كانت قيمنا ومفاهيمنا الأساسية تمارض أبرز مقتولين من مقاتل الحضارة الغربية وهما : فصل
القيم الأخلاقية عن الحضارة والتفريق بين الأجناس وتميز الرجل الأبيض بالسيطرة وبقاء

غيره خدماً وعبيداً . فنحن تؤمن بوحدة الإنسانية والمساواة والأخاء ونجعل القيم الأخلاقية ظهراً للقيم الحضارية .

ولما كان هدف الحضارة هو تقديم الرقي والسعادة والرفاهية للإنسان فإن تدمير هذا الإنسان باطلاق غرائزه وشهواته على النحو الذي تدفع إليه الحضارة الغربية هو ليس وسيلة لترقيته وإنما تهدف إلى القضاء عليه وقد أصبحت أزمة الحضارة الآن هي الفائق والفراغ والضياغ وتوسع نطاق الأمراض النفسية والجرائم وتقلك الأسرة وتدمير الروابط الاجتماعية .

وقد أشار إلى هذا المعنى عباس العقاد حين قال : إن هناك خطر على الحضارة أخطر من القذائف والآلات الجهنمية هو إفساد الطباع ومسح العقول وتلويث الأخلاق وتعميد الناس أن يسخرُوا من كل نبيل جليل ، مع تهالك على المتاع الزائل وتهافت على الشهوات الجنسية . وفي رأى عبد الوهاب عزام أن الناس قاسوا الأخلاق والآداب وسنن الجماعات وروابط الأسر والعقائد والمذاهب على السيارات والطائرات وإن علينا أننا أنكرنا أنفسنا وحرقنا ما عندنا وعظمنا ما عندنا وهجرنا الهندسة العربية في الأثاث ثم حاكينا في الإعجاب بها فأنخذها بعد أن سمينها (أربسكا) .

ويرى محمد المبارك أن الحضارة لم تبذل أى عناية لتهديب النفس البشرية ولم تخفف ما في الإنسان من أثره وحب للذات وطمع في كل لذة وشهوة ، في الجاه والمنصب وأن الضمير البشرى لم يزد حساسية للحق ، وقد أخفقت عاطفة الإيثار والرحمة وقد غلبت الناحية المادية ولم توجد التوازن بين الفكر والحضارة .

ويرى سير جون وودلف في كتابه دفاع عن ثقافة الهند : أن الدولاب الآلى الدائب الدوران في حضارة الغرب بفعل البخار أو الكهرباء أو الذرة قد غدا في ذاته قيمة أساسية تقاس بها كل القيم في مجتمع الغرب .

لقد سيطرت حضارة الآلة الديناميكية سيطرة عمياء بلهاء لا هدف ولا ناموس إلا مجرد التطور ، هذا التطور الذى يسن لنفسه قانون حركته مستقلاً عن روح الإنسان ومعنوياته كلها مع أنها تراث الآلاف من السنين

ويقول توفيق الحكيم : لقد قدمت الحضارة للناس بعض الراحة في أمور معاشهم ولكنها أخرجت البشرية وسلبتها طبيعتها الحقيقية وشاعريتها وصفاء روحها . نعم كسبنا السرعة وخسرنا ثروة النفس التي تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة ، كل شيء في المدينة الحاضرة يتآمر على قتل الفصائل الإنسانية العليا وصفاتها الأدبية السامية ، ولا ننس أن أوربا هي الوحيدة التي أعدمت في يوم ما علماءها حرقاً واتهمتهم بالسحر والجنون وخفت حرية الرأي حتى في شئون الأدب والفن وجعلت من المسيحية التي تبشر بالحب سلاخاً للفتك أمام عاظمي التفتيش ، ولكن أوربا اليوم أربع قلائل من ذى قبل ، فهي تجند إخفاء حيوانيتها تحت ريش صناعى يثمل أجنحة ملاك سماوى . أما اليوم فهي تمر بأخطر أزماتها ، لقد ظهرت من تحت الريش ثياب الخنازير البرية . وقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة لا قلب لها ولا ضمير وأن مآلها السقوط ممزقة الجسد تحت موائد العربدين .



وفي اعتقادى أن اليقظة التي يعيشها العالم العربى في ظل قاعدة أساسية من قيمه ومفاهيمه وانتفاع على الحضارة العالمية في اختراعاتها وعلومها التكنيكية وميادين الصناعة والذرة والقذائف الموجهة ، سيحقق ظهور (نموذج جديد) قائم على مفاهيم الفكر العربى الإسلامى الذى يأخذ الحضارة و يقيمها على أساس ثقافته الأصيلة ، دون أن يذوب فى الاممية أو يكون تابعا للفكر الغربى .

الكتابُ الخيامسُ

نحن والفكر الغربي

تتمثل مقومات العرب الإسلامي المعاصر في : « اللغة » « الأدب » « الدين »
و « التاريخ » و « الثقافة » و « التراث » فهي في مجموعها ترسم وحدة الفكر في أمتنا
العربية وعالمنا الإسلامي وقد انصبت حملات التغريب والفتور الفكري والشعوبية عليها
جميعا محاولة تغيير مفاهيمها ، وتحريف مضامينها ، بوصف هذه المفاهيم ممثلة أساسية لدعائم
قيمنا ومثلنا وروح أمتنا وطابع شخصيتنا .

وقد ثارت من حول « اللغة والدين والتاريخ والثقافة والتراث » معارك ضخمة تستهدف
تجزئة المفاهيم التلافية في وحدة كاملة . كما ثارت شبهات متعددة حول القومية ونظرية الأجناس
وقد انصبت هذه الحملات على عزل الإسلام عن العروبة ، والدين عن التربية ، والعامية
عن الفصحى والعلم عن الدين ، والروح عن المادة ، في محاولات ترئيف ضخمة تقصل بالقضاء
على التراث وتعميق دعوة مضللة تدعو للانفصال عن الماضي أو إثارة الشكوك حول
بعض المواقف أو الأحداث في التاريخ العربي مستهدفة إسقاط قيمه الأساسية وبتولائه
ومواقفه الخالدة .

ولقد كان أبرز ما واجه إلى مقومات فكرنا من دعوات التدمير ، ما أطلق عليه « نظرية
التجزئة » هذه النظرية التي يحمل لوائها دعاة دها ، يستهدفون بها عزل الدين عن المجتمع
وعزل الأدب عن الأخلاق ، وعزل التراث عن الثقافة وهكذا .

وقد غاب عن الذين جروا وراء هذه النظرات مدى الهدف البعيد الذي ترمى إليه ، ظنا منهم
أن التجزئة تخصص وأنواعا من عوامل ازدهار الفكر ورتقيته -- وهو كذلك فعلا -- ولكن
ليس على الوجه الذي يحملنا على تجزئة كل قضية فكرية إنسانية بين علوم الإجماع والنفس
والأخلاق والدين . دون أن ينظر إليها نظرة شمول تردّها إلى مصادرها الحقيقية في بناء
الشخصية الإنسانية أو علاج أزماتها .

الثقافة

لكي نعرف مفهوم الثقافة التي تمثل المفهوم العربي لكلمة (Culture) الغربية يجب أن نضع في تقديرنا عدة أمور :

(الأول) أن الثقافة تختلف عن التعليم والتربية وتثل الدرجة العليا للتربية كأن المعرفة هي الدرجة العليا للتعليم .

(الثاني) أنها أقرب إلى العقائد منها إلى المعارف .

(الثالث) عدم الارتباط بينها وبين الحضارة في مفهوم الاقتباس أو النقل .

...

وهذا اختلفت آراء الباحثين حول مفهوم كلمة الثقافة ومضمونها ، فمن ناحية مفهوم الكلمة ومدلولها في الفكر العربي نجد أن مصدرها هو القرآن الكريم « قاتلوهم حيث ثقفتهم » وهي تدل على معنى العثور بعد البحث والتصدى ، وفي المصباح المنير :

ثقفت الحديث فرمته بسرعة ، وثقفته أقت الموع منه « وفي أساس البلاغة بمعنى طاب المعلوم والمعارف ، وفي القاموس المحيط للفيروزبدي : تفت كسكرم وفرح « ثقفا وثقافة صار حاذقا خفيفا فطنا ، وثقفه تثقيفا سواء .

وأول من استعمل كلمة الثقافة ابن خلدون ، وفي العصر الحديث حسن توفيق العبدل في كتابه (سياسة الفحول في تثقيف العقول) .

كما اتفقت الآراء على أن الثقافة هي الوجه المقابل للحضارة .

فحيث تشمل الحضارة الماديات والصناعات والتجارة والصناعة الآلية تتمثل الثقافة^(١) في الأخلاق والمبادئ والأمور الذهنية والمعنوية .

فالحضارة^(٢) تنتقل من أمة إلى أمة وهي قابلة للانتشار بين الأمم بسرعة ، أما الثقافة فتبقى خاصة بكل أمة على حدة ، وإن أثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها في بعض قليلا أو كثيرا .

أما من ناحية المضمون فإن الآراء كلها تجمع على أن ثقافة أية أمة تشمل دينها وأدبها ونظمها وأخلاقها وتقاليدها وأساطيرها . وأنها تمثل طريقة الحياة إجمالا . وأن التربية^(٣) والتعليم هي واسطة من وسائط المحافظة على الثقافة وميراثها من السلف إلى الخلف ، أي أن الثقافة ملك للأمة والتعليم ملك فردى .

ومن عشرات التعريفات للثقافة يبدو صلة الثقافة بالأمة هي أساسها الأول . وأنها تتصل بالعقل^(٤) والروح ، وأن لكل مجتمع ثقافته الخاصة التي يتسم بها ويميش فيها . كما أن لكل^(٥) ثقافة مقومات مادية ومعنوية ، أما المادية فتتألف من طرائق العيشة . والمعنوية هي المادات والتقاليد التي تسود المجتمع وأن لكل ثقافة ميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها .

* * *

وبالجملة فإن الثقافة في أمة من الأمم تتصل بقيمها وشخصيتها ومقوماتها الأساسية . ومن هنا تسكاد تجمع الآراء على أنها لا تستورد . وإن كانت تتلقى وتمتص من الثقافات الأخرى ما يضيف إليها القوة والحياة .

ومن هنا يبدو الفارق بين « المعرفة » والثقافة في كل ما تتلقى الأمم من فكر الأمم الأخرى وثقافتها ، ومن هنا يصدق الرأي الذي يربط بين الثقافة والمثل الأعلى للإنسان في بيئته وفكره .

(١) في مراجعة شاملة لآراء (سلامه موسى) . (٢) سامح المصري .

(٣) في مراجعات لآراء تالور وعبد الطيف الطيباوى واطن جمه وستيوارت وسامح المصري وأرثر أربري وهاري شايبو .

فالمعرفة تضم المناهج والنظريات المتصلة بعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد وهي مجموعة من الآراء تتطور وتغير وتتعارض ، ولما كان النظر فيها ضروري لمتابعة خطو الفكر الإنسانى فإن ذلك يتبع النظر منها لخلال باب المعرفة الرحب الواسع ولا يمكن أن تتحول هذه المعرفة إلى « الثقافة » إلا فيما يتلاقى منها مع الأسس والمشخصات الأصلية ، ذلك أن ثقافة كل أمة لها طابعها الخاص فى الحياة ونظارتها إلى المشاكل الأساسية ولكن الثقافات تتلاقى وتأخذ وتدع ومن هنا أيضا يبدو صدق النظرة التى تفرق بين نقل الحضارة ونقل الثقافة باعتبار أن الحضارة مادية والثقافة ذهنية ، وعلى ضوء هذا الفهم لا يكون « الدين » من عناصر الحضارة بل من عناصر الثقافة .

نصل من هذا إلى القول بأن هناك « ثقافة عربية اسلامية » تختلف فى جذورها ومفاهيمها عن الثقافات الشرقية والغربية المتعددة .

وإن هذه الثقافة تتميز بشخصيتها وأسلوبها وأن هناك خلاقات جذرية بين ثقافتنا وبين ثقافة الغرب التى كانت أشد اتصالا بنا بحكم سقوط العالم الإسلامى العربى تحت سيطرة الاستعمار الغربى (الفرنسى والبريطانى) على وجه الخصوص .

ويمكن القول بأن اثقافة العربية الاسلامية (فى العالم العربى) هى وريثة الثقافات القديمة المصرية والفينيقية والآشورية والبابلية ، وأن بلاده كانت مهبط الأديان الثلاثة وأن الفكر العربى الإسلامى قد قام على أساس الاسلام (وهو دين وفكر وحضارة) واللغة العربية بعد امتصاصه للثقافات الفارسية والهندية والإغريقية وقد بدأ طابعه ممثلا للأنوهمية ، واعتبار الدين جزء من المجتمع وتمثل قيم الاخاء والعدل والسلام والحرية .

وقد تثبت اثقافة العربية الإسلامية فى تجربة شملت دورة كاملة من التاريخ « وأثبتت فى عصور ازدهارها قدرتها وفاعليتها على تحقيق أهدافها وتمثل قيمها » أما فى فترة ضعفها فليس على قيمها يقع الحساب ، إنما يقع على العوامل التى أدت إلى تخلفها . هذه التخلف التى لم يلبث أن تحول إلى يقظة جديدة حتى لم يكن القول بأن الثقافة العربية الإسلامية

لم تمت وأن تولاهما الضعف والاضطراب ، وأنها أستطاعت أن تواصل الحياة بغير سناد من سلطان الحكم وقيام الدولة التي تحمل مبادئها ، وقد استطاعت أن تقاوم الغزو الغربي . هذا الغزو الذي حاول القضاء على مقوماتها أو تحويرها واقتصاصها على قاعدتها وتحويل ملامح شخصيتها وأبرز الخلافات الجذرية بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافة الغربية :

(١) أن الفكر الغربي يحل مشاكه على قاعدة القوة بينما يحل الفكر العربي الإسلامى قضاياه ومشاكه على القاعدة الأخلاقية .

(٢) انفصال الفن عن العلم .

(٣) سيطرة المادة على الفن .

وفارق آخر بين الثقافة الغربية والثقافة العربية الإسلامية ، فالثقافة الغربية تطلق النرائر والحريات إلى أقصى مدى بينما الثقافة العربية الإسلامية يؤمن بالزج بين الروح والمادة واعتبار الخلق قوام الحياة .

وفارق ثالث هو قيام السياسة في الفكر الغربي على أساس الانتهازية ، بينما يقوم في الفكر العربي الإسلامى على أساس الخلق والضمير .

وفارق رابع : هو أن الفكر الإسلامى العربى يرى الناس سواسيه ولا فضل لأبيض على أسود ، بينما يرى الفكر الغربى سيادة الأبيض والآرى وأن كل ما سوى الغرب عبيدله ، مع اقتناعه بشرعية فرض سيطرته على الشعوب والعمل على تسخير جنس من البشر لخدمة جنس آخرو أنه وعدم إيمانه بالقانون الأخلاقى فى معاملة غير أبناء جنسه .

ويقول قسطنطين رزىق : أن الثقافة الحديثة فى الغرب تقوم على أساس الإيمان بالانسان حيث كانت الثقافة فى العصور الوسطى المطبوعة بالمسيحية أو الاسلام تدفع البشر إلى التطلع إلى العالم الآخر وترهدهم فى هذا العالم الآخر . وانقلب الايمان بالله والعلم

الساوى إلى إيمانه بالطبيعة والانسان القادر بمقله على السيطرة عليها واستغلالها . . .
وأن هذه الثقافة لم تتمكن من إحراز تقدم محسوس في حل مشا كل الانسان الأصلية بل أنه
يجابه نتيجة لهذه الثقافة ذاتها إخطاراً أشد هولا وقطاعة من أخطار الماضى وذلك بالانتاج
المادى ، وما ولدته الحضارة في الانسان من تكبر وتجبّر واعتقاده بأنه سيد مصيره .

والواقع أن هذا الرأى يمثل الفارق الواضح والعميق الجذور بين الثقافة العربية
الاسلامية والثقافة الغربية .

أما من ناحية الفكر العربى الاسلامى فقد عرف بالجمع بين الدين والدنيا وأنه لم يكن
مطلقاً داعياً إلى التزهيد في العالم الأرضى على النحو الذى صورده السكاتب ، فلم يكن الفكر
العربى الاسلامى داعية زهاده ، وأن ما دخل عليه في عصور الضعف من بعض هذه
المفاهيم لا يمثل قيمه الأساسية وأصوله الأصلية .

وقد كشف البحث عن فشل هذا الاتجاه الذى جرى عليه الفكر الغربى غير أن
الفكر العربى الإسلامى يجمع بين القيم المادية والروحية ويمزج بينهما في مختلف نظراته
إلى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو النفس .

وإذا كانت الفلسفة تهدف إلى البحث عن السعادة فإن الثقافة الغربية لم تستطع أن
تحقق منذ القرن الخامس عشر إلى اليوم مفهوم السعادة ، بينما استطاع الفكر العربى
الاسلامى أن يعطى هذه السعادة في مفهوم واضح هو إيجاد وفاق طبيعى بين الروح والعقل
والجسد يتمكس على الزمان والمكان .

وإذا كانت ثقافة الاغريق والرومان في صيغتها عقلية وأن ثقافة الهند والشرق
الأقصى في صيغتها روحية وأن ثقافة الغرب (بشقيها) في صيغتها مادية المصدر ، فإن الثقافة
العربية الاسلامية وحدها دون ثقافات الإنسانية جميعا هي التى تحمل ذلك المزيج المتفاعل
التكامل المتوازن : بين الروح والمادة والعقل والقلب والجسم ، والدين والعلم .

وأن الثقافة العربية الاسلامية هي إنسانية الأساس والقيم والأهداف .

ولعل هذا هو السر في امتدادها بهذه السرعة الغربية التي عدها المورخون خارقة لنواميس الكون وتطور الحضارات ، ولعل ذلك يرجع إلى بروز روح الوحدة بين قيمها المختلفة وعدم انقسامها إلى مفاهيم مستقلة تتضارب وتختلف ، كما يحدث في الفكر الغربي حين تختلف مفاهيم علوم النفس والاجتماع والأدب والدين والاقتصاد التربية والعلم التجريبي ، فلكل علم مفاهيمه التي قد يتعارض مع مفاهيم العلم الآخر بينما المفروض أنها جميعها تلتقي في خدمة الإنسان أساساً وتدور في فلكه باعتباره ميزان الأشياء .

• • •

وقد كان من نتيجة ذلك أن اختل التوازن في المدينة الحاضرة بين نمو القوى المادية ونمو القوى الروحية ، فقد بلغت الحضارة قمتها في العلوم التجريبية بينما بقيت القوى الروحية ضعيفة متخلفة .

وقد ألقى جوستاف لوبون هذا السؤال : ماذا يحدث إذا استمر العقل في النمو وظلت العواطف ثابتة لا يتغير ، لقد درسوا كل شيء في العالم ، ما خلا الرجل فلم يدرسوه ، كشفوا الغطاء عن أسرار السماء ولم يكشفوا عن أسرار القلب ، لأن أمكننا أن نقول أننا ممدنون فإنه يفتقنا الجوهر .

• • •

وعلى ضوء هذه المفاهيم تبدو فكرة الجوهر والعرض في الثقافة ، فإن القيم الأساسية للثقافة وهي جوهر كل ثقافة تظل أساساً لكل قابلية جديدة في مجال التحول ، ومن هنا تسقط نظرية التطور الدائم لكل قيم الثقافات . والغربيون أنفسهم لم يسقطوا جوهر ثقافتهم عندما اتصلوا بالثقافة العربية الإسلامية ونقلوا منها .

ومن هنا تبدو أهمية تقدير هذه النظرة في الاقتباس أو الافتراض أو النقل أو الاستمارة من الثقافات الأخرى ، فلا بد للاقتباس أو الافتراض أن يكون قائماً في نطاق العرض لا الجوهر ، ولا بد أن تكون هناك قدرة كاملة على الامتصاص ، والفهم أو التمثل .

فإذا لم تكن هناك هذه القدرة ضعفت شخصية الأمة وملامح ثقافتها الأصلية وانحرفت .

وليس ضير على الثقافات أن تفرض أو تختص من ثقافات الأمم الأخرى ، ولكن العبرة بتقدير الثقافة المختصة على التمثيل وتحويل المستعار إلى كيانها لعملية هضم سليمة دون أن يفلق قائما كأنه شيء مستعار ، وهذا يرجع إلى قوة الثقافة الآخذة وقدرتها على الهضم وقد كانت الثقافة العربية الإسلامية من بين الثقافات الشرقية والغربية من القدرة والنضوج على الإستمارة والامتصاص ، غير أنه في فترة قيام النفوذ الغربي عجز فكرنا طويلا عن عملية الهضم .

فقد كان موقفنا إذ ذاك غاية في الضعف إزاء العلوم والأفكار المختلفة التي حملتها ثقافة الغرب والتي كانت أولياتها أساساً من منابعنا فقد ظلت سنوات طوالاً وهي لا ترتبط بجذورها الأولى ، وكأنها من مستحدثات فكر الغرب حتى أصاب شبابنا إذ ذاك ذلك الإحساس بالقصور والعجز وكان لابد لنا أن نربط تطورات علم الاجتماع والاقتصاد والنفس والسياسة وغيرها بجذورها الأولى المستمدة من فكرنا أساساً ، وهذا ما استطعنا أن نصححه مفهومه بعد اليقظة .

ومن ناحية أخرى فنحن قد افترضنا في الماضي في مجال لدينا فيه تراث ضخم .

والواقع أن الافتراض من الثقافات الأخرى دون قيد أو مراقبة يحدث في الثقافة المقترضة حالة « عسر هضم » مما يؤدي إلى القصور عن بلورة العناصر الدخيلة أو المستعارة وتحويلها إلى كيان الأمة ونقلها إلى القوالب القومية .

وبما كانت الثقافة الغربية (بشفيها) تستمد جوهرها من المادية فإنها تنكر الروحية التي هي عنصر أصيل في الثقافة العربية الإسلامية هذا بالإضافة إلى أن نظرية الفلسفة البرجماتية في القضاء على الضعفاء يتعارض مع نظرية التكامل الاجتماعي التي يؤمن بها الفكر العربي الإسلامي^(١) .

الدين

إن النظرة إلى « الدين » تختلف اختلافا جذريا بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي بشقيه . ففى أساس وقاعدة متصلة ومنتجة بمقومات فكرنا ، على نحو لا سبيل إلى انصاله أو تجزئته ، بينما هى فى الفكر الغربى أمر منفصل ، على قاعدة هذا الفكر فى التجزئة . والفصل بين علوم النفس والإجماع والاقتصاد والنفس والدين .

وفى فكرنا العربى يبدو الدين متصلا أساسيا فى النظرة الكلية الشاملة إلى الحياة وفى الرابطة بين الإنسان والله ، والإنسان والإنسانية ، وليس امتزاج الدين عاملا من عوامل الضعف أو التخلف بل هو عامل من عوامل اقوة والإيجابية .

ولما كان الفكر العربى الإسلامى يقوم أساساً على إمتزاج الدين والدنيا والعقل والروح فإن الدين ليس إلا أحد وجهى الحقيقة الواحدة فنظرة فكرنا ليست روحية صرفه ، ولن تكون عقلية صرفه ، وإنما هى نظرة شاملة قوامها العقل والروح .

ذلك أن الفكر العربى الإسلامى يستمد من الإسلام ، إنما يقوم على أساس أن الإسلام ليس ديناً فحسب ولكنه دين وفكر وحضارة ومجتمع . ولذلك فهو لا يمثل الجوانب الروحية وحدها ولا يرتبط فحسب بالعلاقات التى تربط بين الإنسان والله . ولكنها تتمثل فى شمولها جناحى علاقة الإنسان بالله والإنسانية فى تفتح ومرونة .

ومن هنا تسقط أمام فكرنا قضايا الخلاف بين العلم والدين ، فقد كان الفكر العربى الإسلامى قادراً على الانفتاح على الحضارة والعلم والفكر الإنسانى متقبلاً لكل تطورات المعرفة قادراً على مواجهتها ، بالإضافة إلى قدرته فى الالتقاء بحضارة الأمم المختلفة فى العصور المختلفة .

(١) اقرأ فصلا معاولا عن الدين فى كتابنا « الفكر العربى المعاصر فى مركز التفریب والتعبية .
التناقضات » .

أما الفكر الغربي فقد استبعد « الدين » استبعاداً كاملاً من مفاهيمه وأصول ثقافته وجذورها بعد أن اصطدم بالمسيحية الغربية التي لم تكن من غرس بيئته الوثنية أصلاً .
والتي كانت أمانتها لجذورها الإغريقية والرومانية قوية ، إلى الحد الذي حال دون تعمقها المسيحية الوافدة من الشرق . ومن هنا تكونت صورة جديدة للمسيحية ، هي مسيحية بولس بكنيستها وطقوسها وكهنيتها وما كان لها من دور في حماية قطائع وقرى نفوذها عن طريق صكوك الفهران ، في ظل هذه الصورة من المسيحية - التي هي ليست المسيحية الحقيقية في سماتها وإشراقها - كون الفكر الغربي مفهومه عن الدين وانفصل عنه وأقام قاعدة فكره على المادية الخالصة . وقد تابعه الفكر الماركسي في نظريته إلى الدين ، على اعتبار أن قاعدة الماركسية هي المادية أيضاً .

ومر هذا عندنا أن المسيحية الغربية كانت ديناً روحياً خالصاً ، لا يرتبط بنظام مجتمع . ومن هنا استكملت حاجتها هذه من فلسفة الرومان ، ووثنية اليونان ، وكذلك فإن الفكر الديني الذي عرفته أوروبا بكهنيتها وكنيسته وقيوده ، لم يكن قادراً على تقبل النهضة والحضارة ، والالتقاء معها ، بل على العكس من ذلك كان معارضا عنيف المعارضة لها محافظة على نفوذه وسلطانها أساساً وعجزاً عن إحراره خصوصية الأفق المفتوح التي عرف بها الفكر العربي الإسلامي الذي كان قادراً على الالتقاء مع كل حضارة وفكر والذي لم يكن لديه كهانة أو نفوذ .

...

وقد واجه « الدين » هجوماً عنيفاً لا حده من الفكر الغربي والفكر الماركسي على السواء . متابعاً في ذلك الفكر الإغريق الذي عرف بازدرائه للدين وهجوم أفلاطون عليه في قوله : « أن الأديان لم تمنع انتشار الشرور في البيئات غير الموحدة ولم تردع الخلق عن ارتكاب أنواع الموبقات وكل محرم ومكروه ، وإن الأديان اتخذت وسيلة لارتكاب أعظم استبداد » .

والمعروف أن الإغريق هم أول من قالوا بتحديد سلطة « الإله » ومنعها من الدخول إلى البحث

العلمي أو الأدبي ، ومن ذلك قول أرسطو أن « الإله » لا تستطيع أن يبدل نوايس الكون وقد انتقلت هذه النظرة إلى الفكر الغربي فقد وجه كثير من المفكرين الغربيين حملات عنيفة إلى « الدين » ممثلا في المسيحية الغربية في مقدمتهم : ريتان ونيتشه وبرتراند رسل ، وغيرهم من الكتاب وهي حملات كانت تتمثل فيها روح الإلحاد .

كأوجه كثير من المفكرين طعنات قاتلة إلى الدين على نحو علمي ، لا يتجه إلى مهاجمة المسيحية الغربية أو الدين أساساً وإنما يبرز من خلال دراسات علوم النفس والاقتصاد والإجتماع وفي مقدمة هؤلاء فرويد وماركس ودور كايم .

وتقوم هذه النظرات على أساس لا دينية الحياة ، وتحرير الإنسان من قيود الخلق والقيم .

وهذه عبارة سلامه موسى في تصوير مفهوم الغرب للدين : يقول « إن هذه الحضارة لم تعرف الطريق الصحيح إلا بعد أن حطمت قيود الكنيسة التي فرضتها على الفكر ، وتخلصت من استبداد رجال الدين الذين حبسوا العقاية الفردية داخل نطاق التعاليم المسيحية الروحية التي تخالف اتجاهات الغرب التي تميل إلى المادية فكانت حركة النهضة التي قامت على أساس بحث ثقافة اليونان واستغلال مقوماتها في خلق حضارة جديدة » .



أما الفكر الماركسي فإن موقفه من الدين واضح في عبارة ماركس الصريحة « لا إله والحياة مادة » واعتباره أن الدين أفيون الشعوب معللا انتشار الأديان بالظروف المادية التي عاشها الإنسان الأول ، الذي كان عاجزا أمام الظواهر الطبيعية مما أداه قصوره عن فهم أسباب هذه الظواهر إلى ردها لإرادة عليا « فضلا عن أن النظام الإقطاعي قد حمل الناس على الخضوع لقوة مجهولة لإكمال السيطرة عليها .

وقد كان في نظرة ماركس وهو مهاجم الدين نفس مفاهيم الفكر الغربي ونظرتة إلى المسيحية الغربية وتصرفات الكنيسة وسيطرة الكرادلة والباباوات .

وعنده أن ليس هناك روحية، وأن الروحية مصدرها المجهول والضعف، وأن الأخلاق والقيم إنما هي وسائل لحفظ المجتمع وهي مجرد انعكاس الوضع الاقتصادي وهي قيم متطورة متغيرة، ويقول ماركس أن « حقيقة العالم تنحصر في ماديته » وبذلك تنكسر الفلسفة الماركسية الألوهية والأديان والرسالات .

وبذلك يؤمن الفكر الغربي (بشقيه) بالالحاد الذي يعتبر جزءاً أساسياً منه فضلاً عما دعت إليه الشيوعية من الحرب ضد الدين .

...

غير أن الفكر الغربي بشقيه لم يقف عند حد محاربة الدين ، بل حاول إيجاد بديل له يتمثل في دعوات كثيرة منها البشرية (Humansim) والتي تجعل الآداب مردداً للنفس البشرية والدعوة إلى الإيمان بالإنسانية بدلاً من الإيمان بالله حيث تعتبر « البشرية » الإنسان غاية لا تعرف غاية وراءها *man is incurably religious* .

وانسكرت البشرية الإيمان بالله أو الخلود أو العبادة ، وقالت أنه ليس من شرط الدين أن يكون للمؤمنين رب ، والبشرية تقول أن الفضائل ليست مراسيم الهبة وإنما هي اختبارات إنسانية وهي في تطور لا ينقطع ، وعندها أن أساس « الأخلاق » الاختبارات الإنسانية التي تدلنا بتوالي الزمن وتكرار التجربة — على المفيد والمضر من أساليب المعاملة . وتلجأ البشرية إلى النفسانيات الحديثة والتحليل النفسي في حل مشاكلها .

ومن هذه الدعوات ما حمل لوائه « برجسون » في نظرية التطور الخالق ، كما اعتبر الفكر الماركسي « الماركسية » بديلاً للمسيحية :

وقد ظهرت عشرات من الدعوات والأديان التي اتخذت من المادية أساساً والتي غلبتها على النظرة الروحية الخالصة ، أو النظرة التي تجمع بين الروحية والمادية وهي في مجال الأخلاق تحمل نفس النظرة التي دعا إليها فرويد .

ولا شك أن تطور الفكر الغربي واعتماده على المادية كجذور أساسية لنظراته

في فلسفات الأخلاق والتربية والسياسة والإجماع قد حال دون أن تعود النظرة إلى الدين إلى مفهومها الأساسي .

فقد فصل الفكر الغربي الدين والأخلاق عن مفاهيمها وفلسفتها السياسية حين قال ميكافيل « إذا كان الدين سيطلب الأمانة والصدق والرحمة فللسياسة باعتبارها علماً أو فناً الحق في أن تستخدم الغدر والخيانة والرياء » .

وفي مجال التربية فصل ديوى نظريته عن الدين أساساً واعتبر الأساس المادى هو العامل الرئيسى في إقامة مناهج التربية .

وفي مجال علم النفس فصل « فرويد » النفس الإنسانية عن الدين .

وفي مجال علم الاجتماع قامت نظرية دوركايم على فصل الدين عن المجتمع .

* * *

بل إن الإصطلاح الذى يستعمله الفكر الغربى في التعبير عن الدين لا يمثل مفهومنا للدين فكلمة Religion مشتقة أساساً من كلمة Religare اللاتينية ومعناها المماثلة الاجتماعية . وكل ما يتحدث به علماء أوربا اليوم عن الدين لا يصل إلى الإيمان بالله أو الأديان السماوية أو اعتبار الدين عاملاً أساسياً في الفكر والحياة وإنما هي دعوة إلى التماس عقيدة فكرية لا تكليف لها ولا مسئولية ، أما الدين بمفهومه فهو — في نظرهم — مرحلة تاريخية مرت بها البشرية قبل أن يستدير عقلها وأنها انتهت بظهور فكر الحضارة .

* * *

أما نحن في الشرق للإسلامي ، وفي الفكر العربى بالذات فالدين لدينا ضرورة اجتماعية لا يستغنى عنها ، وهى جماع بين السلوك الأخلاق والفهم العقل المستدير وشعور بالتفوق بين الإنسان والله والإنسان الكون والإنسان والإنسانية .

وللدين مظهران : عبادات ومعاملات . وتمثل المعاملات في الشرائع التى تنظم علاقات الناس :

ومن هذا المفهوم تنتفي من آفاق فكرنا دعوات الشك والقلق والفراع والضياغ ولقد كان امتزاج الروحية والمادية العقل والقلب والدين والعلم في الفكر العربي الإسلامي مصدراً من مصادر القوة والإيجابية فقد رفض الفكر العربي الإسلامي « المادية المفرقة » كما رفض « الزهد المفرق » . وهذا ما عجز الفكر الغربي عن تحقيقه حين تحول من الروضه إلى المادية وعجز أن يجمع بينهما في مزاج معتدل وقد هاجم هكسلي المسيحية الغربية من هذه الناحية ورأى إنها لاتصلح مطلقاً لأنه تكون عاملاً مدنيا ورد جميع نظرياتها . وارتكزت فلسفة سبنسر على قاعدتي المادية واللاادارية وكذلك فعل ولاس ودارون من قبل سبنسر وهكسلي . وكان ريفان حرباً على المسيحية التاريخية ، وكانت نظرتة إلى الكتاب المقدس على إنه أثر من تكامل الخرافات والأساطير وكذلك وضع الفكر الغربي التوراة والكتب المقدسة على بساط النقد المادى الخالص . وهاجم ينتشه أخلاق المسيحية ، وصارعت المسيحية أصحاب الراى الحر وفي مقدمتهم جاليو ثم دارون وظل الفكر الغربي يعمى في هذا الطريق حتى تلبت طاقاته المادية على الطاقات الروحية واصبحت عضلات العالم أقوى من عقله .

* * *

أما الفكر العربي الإسلامي فقد كان غير ذلك تماماً . فقد أعلن برتراند رسل في كتابه الثقافة والنظام الإجتماعي أن الإسلام دين سياسى ، موجه إلى الجماعة متوغل في حياة الفرد والمجموع توغلاً كلياً على حين اعتبر الأديان الأخرى ديانات أفراد أى ديانات غير سياسية .

وأعلن جورج سارطون بأن الإسلام حرر العقل وحث على النظر في الكون ورفع قدر العلم وأن حيوية الإسلام كانت في مرونته . وأن هزائم المسلمين السياسية لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم .

ولقد كانت أصالة الدين في فكرنا العربي الإسلامي حقيقة كاملة ، فقد بدأ العامل الدينى وانحاً مشاركاً فعالاً في توجيه الأحداث التاريخية للعالم الاسلامى والأمة العربية وتقرير مصارها .

وليس من اليسير فهم الفكر العربي الاسلامى بعيدا عن التفسير الدينى « فالدين متصل بمتجز متمزجا تماما بدراسات السياسة والاقتصاد والاجتماع والفريية ، وهو لا ينفصل عن المقومات الأساسية .

ولقد كان الفكر الاسلامى أثره فى مقاومة أكبر ثلاث أخطار تعرضت لها الأمة العربية وهى التتار والحروب الصليبية والغزو الغربى الحديث ومن هنا كانت حملة الاستعمار والغرب والشعوبية على الدين ضاربة عنيفة ممتدة .

وبرى يوسف الحورانى أنه ليس من تفسير لبقاء الاسلام محتفظا بفعالياته الاجتماعية فى عموم المجتمعات الاسلامية إلا « لأن هذا الدين يعرئ قضايا الأرض كما يعرئ قضايا العالم الآخر » فليس منفصلا عن واقع الحياة بل هو يعالج كل القضايا وقد رسم سلوكا مدنيا خاصا .

* * *

وحين انتقلت إلى فكرنا العربى الاسلامى مفاهيم الفكر الغربى فى « الدين » حاولت أن تصبغ « الاسلام » لتضمه تحت نفس المجرى ، ولتحكم عليه نفس الحكم . وقد كان الدافع إلى هذا تغريبى محض ، يستهدف « تحرير » الفكر العربى الاسلامى من « الدين » واطلاق التيارات الغربية المختلفة التى تحاول أن تجرده من شخصيته ومقوماته ، وتدفعه إلى بؤرة التميع والتحول والتحلل . والهدف من ذلك إذا تحقق هو تمكين النفوذ الأجنبى من السيطرة على كيان الأمة . وتحويلها إلى العبودية الكاملة فى فكرها وروحها .

ولقد يمكن القول أن التابعين للاستشراق والتغريب (ولا أقول تلاميذ المستشرقين فإن كثيرا منهم هم من أخلص المفكرين لروح العروبة والاسلام إيمانا بوطنهم وأمتهم .) لم يفهموا الفكر العربى الاسلام أصلا ولم يتممونه قبل أن يتصلوا بهذه البيئات ، وظنوا أن ما ينطبق على المسيحية الغربية — ولها تاريخها الطويل فى الخلاف مع العلم والحرية والانطلاق الحضارى والانسانى — يمكن أن ينطبق على الفكر العربى الاسلامى الذى كان دائما قادراً على الحياة والحركة والتطور .

(م — ١١ الفكر العربى المعاصر)

ومن هنا تأثر الكثيرون على النحو الذى تكشفه النصوص^(١) ، وتجمع عليه حركتى التغريب والشعوبية ، والأولى تهدف إلى القضاء على مقومات الفكر العربى الإسلامى لتعزيز النفوذ الأجنبى وتمكينه من السيطرة ، والثانية تهدف إلى القضاء على الإسلام واللغة العربية :

ولعل هذه التجربة من أصدق التجارب فى مجال التغريب :

يقول الدكتور محمود عزمى أنه حين كان يدرس الاقتصاد السياسى بمدرسة الحقوق كان يتعلم : أن « الربا » أصل كل نحو اقتصادى ، لأن الفائدة التى تعود على صاحبه هى وحدها التى تدعوه إلى أن يقرض ماله اشترا كما منه فى الجماعات المالية الكبرى ، وكان يرى أن هذا القول فى علم الاقتصاد يزيد دلائل الواقع ، ولكنه كان يستطيع أن ينسى أن الله قد أحل البيع وحرم الربا وكان لا يستطيع أن يوفق بين الأمرين ، فقصد إلى ناظر المدرسة الأستاذ الفرنسى « لامبير » وأفضى إليه بما يشغله « الربا حلال فى الاقتصاد السياسى حرام فى الشريعة الإسلامية » فكيف التوفيق فأجابه الأستاذ : حين يدرس الاقتصاد السياسى لا تفكر فى الشريعة الإسلامية ، وحين تدرس الشريعة الإسلامية لا تفكر فى الاقتصاد ، ولكن هذه الإجابة لم تقنعه . وبعد أن أتم الدراسة أرسل إلى « السربون » وكتب له أن يحضر ثلاث سنوات متوالية محاضرات الأستاذ « دوركايم » فى علم الاجتماع وكان من نتيجة ذلك أن انطبعت فى ذهنه طريقة تفكير الأستاذ وتحليله وتدليله ، وكان من نتيجة انطباع هذه الطرائق التى لم يذكر اسم الله فيها إلا نادراً ، واسم « الدين » لإعترافاً مبجلاً على اعتبار أنه حدث « عمرانى » له قدره « التاريخى » فحسب ، يقول « ثم أصبح فتناً عن طريق الاقتناع العقلى الشاقى يؤمن بالعلم وبالعلم وحده . مع اعترافه بأن الحقائق العلمية نسبية فهى معرضة لأن تتغير ، كما درس فى محاضرات العلامة البيولوجى لود أتتيك أستاذ علم الحياة فى السربون ، وخرج من ذلك كله بأن « التدين » وعدم التدين إنما هى حالة عقيدة وإيمان يتوافر فيها الاستعداد فى بعض النفوس ولا يتوافر فى البعض الآخر .

(١) اقرأ مزيداً من النصوص فى كتابنا « الثقافة العربية المعاصرة : قضاياها ومعاركها »

ولا تحملان دليلاً على صحة أحدهما أو عدم صحة الآخر ، فكما أن الدين لا يستطيع أن يقدم الأدلة القاطعة التي تثبت وجود الإله وهو أساس الدين ، فإن العلم لا يستطيع هو الآخر أن يقدم بالأدلة القاطعة التي تثبت عدم وجوده^(١) ولكن للعلم ميدانا وللدين ميدانا « هذه هي صورة التعرّيب في محاولته تجاه « الدين » متمثلة في تجربة الدكتور محمود عزى ، حيث يهاجم الدين هجوماً علمياً ، والدين هنا هو الدين في مفهوم لامبير ودور كايم ، وهو مفهوم يختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم الفكر العربى الإسلامى « فإن « الله » و « المال » و « الثروة » تلتقى كلها في مفاهيمنا ولا تتعارض .

ومن حيث يلتقى العقل والروح في مقومات فكرنا تحل مشكلة الدليل على وجود الله حيث نلتمسه عنهما معا ، وليس عن طريق أحدهما ، وهو العقل وحده . ويرجع هذا أساساً إلى أن مفهوم « الدين » في الفكر العربى الإسلامى لم يكن واضحاً أساساً عند الدكتور « عزى » .

* * *

ولعل الدكتور طه حسين ربيب الأزهر والتربية الدينية الإسلامية الخالصة أن يقول هذا وأكثر منه فإنه أساساً من أخلص تلاميذ « دور كايم » فيلسوف الاجتماع اليهودى ربيب النظرية المادية الدارونية مترجة بالنظرة الماركسية :

فالدين عنده « ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لم ينزل عن السماء ولم يهبط به وحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها » وأن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمناً وكافراً في وقت واحد « مؤمناً بضمير » وكافراً بعقله ، فإن الضمير يسكن إلى الشيء ويطمئن فيؤمن ، أما العقل فيغير ويبدل ويفكر أو يعيد التفكير من جديد فيهدم ويبنى « ويبنى ويهدم »^(٢) .

ومن هنا تبرز فكرة الفصل بين العلم والدين والعقل والقلب ، وهي نظرية أساسية في الفكر الغربى القائم على الوثنية الإغريق والمادية الدارونية ، أما الفكر العربى

(١) الملل — محمود عزى (مجلد ١٩٢٩)

(٢) السياسة الأسبوعية : ١٧ يولية ١٩٢٦

الإسلامي فيمتزج فيه العلم والدين والعقل والقلب ولا تتحقق سلامة أى نظرية وعمقها ووضوحها إلا وفق هذا المزج الطبيعي بينما تكون هذه التجزئة هى مصدر الشكوك والريبة والخصومة .

* * *

ويمكن أن يطلق على هذا الاتجاه البارز الواضح عند عزى وطه : ظاهرة « الإلحاد » التى تمتد إلى الرعيل كله فى الثلاثينات . فاستاعيل مظفر فى مجلة العصور يناقش « الدين » ويقول :
هل نعتقد أن الدين غاية أم وسيلة ، أما أنا فاعتقد أن الدين وسيلة وليس غاية فى ذاته .
« الدين » وسيلة توصلنا إلى غايات أهمها معرفة الله ، إذن فكل وسيلة توصلنا إلى معرفة الله وتخلص أرواحنا من جحيم الشك والريبة يمكن أن تعتبر ديناً ، فإذا كانت « حرية الفكر » توصلنا إلى هذه الغاية فعلى لا شك « دين جديد » يمكن أن يكون لدى الأخذ بين به أهدى سبيلاً :

سنقول إن حرية الفكر قد تسوق الناس إلى الإلحاد والإنكار ، ولكن هل هى الدين الناس من الإلحاد . لم يحممهم من الإلحاد مطلقاً ، على أنى اعتقد اعتقاداً جازماً بأن الملحد الطمعن إلى المادة أعود بالنفع على الانسانية من المؤمن الذى لم يعرف من الإيمان غير التعصب لمذهب أو صورة من صور الاعتقاد .
والواقع أن الدين علاقة بين الفرد وبين الله ولا شأن له بالمجتمع مطلقاً .

والذين يقولون بأن للدين أثراً فى المجتمع واهمون « فإن المجتمع اليوم قائم على أمرين :
(١) القوانين الوضعية (٢) المعاهد والنظامات الموروثة التى ليس الدين إلا مظهماً من مظاهرها . فا دخل الدين إذن فى النظام الاجتماعى .

ومن يظهر خطأ الدعوى بأن الأديان شرائع يسير عليها الناس ، والحقيقة أن الدين نظام من النظامات الاجتماعية اكتسبت صفة القداسة ، نسبة إلى قوى تستمد مما فوق

لأنه لا أكثر ولا أقل ، أما الشرائع التي نزلت بها الأديان فليست جديدة ، بل هي شرائع مستمدة من العرف الذي جرت عليه الأقوام التي ظهرت فيها الأديان ^(١) . «
ومما يمكن القول في هذا النص فإنه مترجم عن « الفكر الغربي » على النحو الذي يفهمه « الدين » وهو لا ينطبق بتاتا على مفهوم فكرنا العربي الإسلامي للدين كدين «
ولا للإسلام نفسه كدين وحضارة ونظام اجتماعي .

* * *

غير أن دعوى التغريب والشموعية تبدو واضحة حين يهاجم اسماعيل مظهر نص « الإسلام » في الدستور فيقول : لست أعرف حقيقة الباعث الذي حدا بالدين وضعوا الدستور إلى إثبات هذا النص ، فالدولة شخص معنوي ، والنص على إن ذلك الشخص المعنوي له دين اسمه الإسلام أمر لا يخلو من التناقض لأن هذا الشخص المعنوي إنما هو شخص مجرد . ولكنني أعتقد أن هذا النص لم يثبت الاستجابة لوعى خفي مستمد من روح الإسلام وإنه دين ودولة معا « ويقول طه حسين نفس القول « أن للدولة المصرية ديناً رسمياً هو الإسلام ولو قد استشارني أولئك أو هؤلاء لطلبت اليهم أن يتدبروا وأن يتفكروا قبل أن يضعوا هذا النص في الدستور ^(١) . «

...

ويبرز هذا المعنى واضحاً في رأى « الشيخ » على عبد الرازق : في القول بأن « دين » الإسلام روحاني محض لم تكن حكومة له ولا شريعة .

...

ويعتقد هذا الاتجاه حتى تصبح ظاهرة « الاتحاد » صريحة حين يصدر اسماعيل أدهم أحد كتابه « لماذا أنا ملحد » حيث يعترض على قول بختر زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر الذي يقول إن الاتحاد هو الحضور بالله وعدم الإيمان بالخلود ويقول : ان هذا التعريف سلبى محض ، ولا أجدر بدأ من رفضه ، والتعريف الذي استصوبه وأراه يعبر عن عقيدتي

كناخد هو أن الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون ذاته وإنه ثمة لاشيء وراء هذا العالم .

ثم يردد كلمات كل زعماء المادية الفرية ، مثلاً عما نويل كانت الذى يقول « أنه لا دليل على أو على الله وجود الله وإنه ليس هناك من دليل عقلى أو على عدم وجود الله » .

ثم لا يلبث اسماعيل آدم أحمد أن يصور أسباب إلحاده فى ثنايا كتابه « لماذا أنا ملحد » الذى قدمه له وطبعه الدكتور أحمد أبو شادى فكشف عما كشف عنه الدكتور عزى من عنف التربية الأولى والفسر فى التوجيه نحو العبادة ، مما كان له أثره العكس وظهور روح التحدى ورد الفعل فى معاداة الدين جملة .

يقول « كان أبى مسلماً متعصباً للإسلام وأبى مسيحية بروتستانتية ، ذات ميل لحرية الفكر والتفكير ، توفيت فى السنة الثانية من سنى حياتى وعشت أيام طفولتى مع شقيقى فى الاستانة وكنا تلقنانى تعاليم المسيحية وتسيران بى كل يوم أحد إلى الكنيسة . أما أبى فقد انشغل بالحرب ، غير أن بعد والدى عني لم يسكن لينعه من فرض سيطرته على من الوجهة الدينية ، فقد كاف زوج عمتى وهو أحد الشرفاء العرب أن يقوم بتعليمى الدين فكان يأخذنى لصلاة الجمعة ويجعلنى أصوم رمضان وأقوم لصلاة التراويح وكان هذا يشغل كاهلى كطفل فضلاً عن تحفيظ القرآن . والواقع أننى حفظت القرآن وجودته وأنا ابن العاشرة غير إنى خرجت ساخطاً على القرآن لأنه كلفنى جهداً كبيراً كنت فى حاجه إلى صرفه إلى ما هو أحب إلى نفسى منه وكان ذلك من أسباب التهديد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه . ولكنى كنت أجد من المسيحية غير ذلك ، كنا اختاى قد درجتا على أن كل ماتحويه التوراة والإنجيل ليس صحيحاً وكنا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب وكان لهذا كاهل أثر فى نفسي . . . وكان أبى لا يعترف لى بحق تفكيرى ووضع أساس عقيدتى المستقلة فكان يعرض على آراء الإسلام والقيام بشعائره ، وقد ثرت يوماً على هذه الحالة وامتنعت وقلت له : إنى لست بمؤمن وأنا دارونى . . الخ »

ومن هنا يظهر مصدر « الأخاد » فى التربية التزمته التى تفرض الدين فتدفع إلى حربه وخصومته .

وقد اتسع هذا الاتجاه وتعمق حين أخذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى دراسة «الإلحاد فى الإسلام» محاولاً أنه يجعل «الإلحاد» ظاهرة مقررة فى كل حضارة . « ذلك أن الإلحاد نتيجة لازمة لحالة النفس التى استنفذت كل إمكانياتها الدينية فلم يعد فى وسعها أن تؤمن » وقد عرض لفلسفة نيتشة الإلحادية التى عبر عنها فى قوله « لقد مات الله » ومن قبل الإلحاد اليونانى الذى يعلن موت الآلة ، ثم ذهب من هذا إلى القول بأن الإلحاد الغربى قال « لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء » وأن النبوة هى الوسيط بين الله والإنسان .

ثم عرض لما أسماه إلحاد ابن المقفع وابن الرواندى وجابر بن حيان ومحمد زكريا الرازى . وهو فى هذا يذهب مذهبا مغربا فى القول بالإلحاد فى الإسلام ، إذ أن اختلاف رأى الفلاسفة فى النبوة أو معارضة إعجاز القرآن لا يمكن أن يسمى إلحاداً ، إذ الإلحاد متصل أساساً بإنكار الله : ولكن هذا يمكن أن يسمى شعوبية أو زندقة .

ومعروف لمن درس مبادئ التاريخ العربى الإسلامى أن الشعوبية والزندقة تمثلان حركة سياسية ترمى أساساً إلى إسقاط الحكم والسلطان والنفوذ العربى وتغليب النفوذ الفارسى عليه .

وإن كل ما أورده الدكتور بدوى على أنه إلحاد فى الإسلام هو ما يمكن أن يسمى بالشعوبية وإن كل الأسماء التى أوردها عرفت بالزرعة الفارسية الهدامة للقوة العربية .

وقد عارض بعض الباحثين رأى الدكتور بدوى^(١) ، وقال أن نقي النبوة لا يتضمن نقي الألوهية ، وأن كان نقي الألوهية يتضمن نقي النبوة ، وأن الإلحاد تعبير عن نقي وجود الله ، وليس نقي النبوة إلحاداً وأن نقي النبوة لا يتضمن نقي معرفة الله . أما نقي معرفة الله فإنه يتضمن نقي النبوة .

وقد توسعت محلات المصور (اسماعيل مظهر) والمجلة الجديدة (سلامة موسى) وغيرها فى نشر دراسات الإلحاد (Atheisaw) وفى مجلدات ١ و ٢ و ٣ للمصور مقالات متعددة

تدور حول هذه المعاني وتتوسع فيها فتنتقل آراء الملاحدة أمثال برتراند رسل في كتابة (لماذا أنا ملحد) الاسم الذى أطلقه اسماعيل أدهم أحمد على كتابه .

* * *

وقد اتخذت معارضة الدين صورة « الشعوبية » في آراء رجال من الأزهر كان في مقدمتهم « على عبد الرازق » الذى كان جريئاً في الحديث عن التبشير الذى يقوم به الإرساليات الأمريكية في مصر في الجامعة الأمريكية عنها . حاولوا التهوين من شأن حركة التبشير التى ضحت لها مصر والعالم الإسلامى كله ومصوراً إياها بأنه ليست مسألة دينية وإنما هى مسألة سياسية وأخلاقية يقول « التبشير المسيحى مرض سياسى وخلق وعلى رجال السياسة والأخلاق فينا أن يبحثوا عن طريق الخلاص منه » .

وهو بهذا يأخذ بالمذهب الغربى في تمزيق القضايا وفصلها بين رجال الاجماع والأخلاق والسياسة .

ومن هذه المفاهيم الغربية قوله أن التهاون الدينى ظاهرة خلقية ينبى أن يشتمل بالبحث منها علماء الأخلاق قبل علماء الدين ^(١) .

ويصل هذا الاتجاه إلى حد أن يصرح الدكتور طه حسين في حديث له مع روم لاندو (كتاب البحث عن غد - لندن ١٩٣٨) فيقول : عندى أن الدين كقوة روحية لا أثر له في نفوس أولئك الذين يتلقون علومهم في مدارس دنيوية . وهم كثرة المتعلمين . فأت إذا تحدثت مع أى فرد منهم تجدهم جميعاً كافرين بالدين والتقاليد . وإنما هم يدينون بالفسكر . وأن شئب يؤمنون بالمادة . ذلك لأنهم بعد أن خضعوا قروناً لسيطرة الدين اهتموا في الثلاثين سنة الأخيرة إلى ما وصلت إليه أوروبا منذ قرون ، أعنى نظرية الإدراك المنطقى . وهذا الكشف ألهم تقوسهم وصرفهم عما عداه من المعبودات الأخرى ، وقال : والدين بالنسبة لطلبة الأزهر لا يعدو أن يكون حرفة يحترفونها وتدر عليهم رزقاً ، ولا شئ أكثر

(١) اقرأ المحاضرة بكاملها في كتاب « حضارة مصر الحديثة » .

من ذلك ، بل أذهب في اعتقادي إلى أبعد من هذا الحد ، فأقول أن الأزهر يدين بالمادة جبراً ، وأن الإسلام حين يستعيد قوته مرة أخرى سيكون روحياً تناولته يد التجديد^(١) . ومؤدى هذه النصوص ليس هو الواقع الذى تمثله الحياة المصرية أو العربية تجاه الدين ، وإنما هى « صورة » الحلم الذى راود حركة التغريب والشعوبية فى هذه الفترة من أوائل الحرب العالمية الثانية وقد كشفت الأيام عن غير توقع الدكتور وغير ما توقعت الشعوبية والتغريب . فكانت اليقظة المصرية العربية تحمل طابع الإيمان بالتقاء الروح والعقل . وارتباط الدين بالثقافة والمجتمع . ومن ثم توسع نطاق الدراسات الإسلامية وأتيح للأزهر أن يدخل فى مرحلة علمية جديدة وكان لإنشاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وصدر عشرات من الكتب الإسلامية المحررة وكتب التراث والمجلات الرصينة فضلاً عما أعطى الميثاق من إيمان بالقيم الروحية أثره الواضح .

بل إن هذه المفاهيم عن تصور « الدين » والمستمدة من الفكر الغربى كانت عملة زائفة لم تلق قبولا إزاء مفاهيم الفكر العربى الإسلامى إلى تمثلت فى حركة التجديد والبحث التى قام بها الرافعى وهيكىل والزيات ومنصور فهمى وعبد الوهاب عزام وسعيد العريان . والدكتور منصور فهمى واحد من عشرات من هؤلاء الذين خدعهم التغريب وألقى إليهم مفاهيم « الدين » على النحو الغربى فتأثروا به وساروا شوطاً فى ظل هذه المفاهيم ثم استطاعوا بعد أن يتحرروا منها . والمعروف أن الدكتور منصور فهمى قد كنت أطروحته للدكتوراه^(٢) سنة ١٩١٣ فى باريس تحت إشراف عالم يهودى هو « ليفى يريل » . وكانت عن « حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطوراتها » وأنه أودعها آراء التغريب فى الإسلام والدين والرسول . ثم لم يثبت أن تحول عن هذه المفاهيم وتحور عنها وهذه عبارته :

« عرضت لى الشكوك الدينية فى عهود الشباب ، أثناء إقامتى فى فرنسا لطلب العلم ، وقد نشأت هذه الشكوك نتيجة للتفكير وطلب الحقيقة ولم تكن على الطريقة التى يتظاهر بها بعض الأدعياء » حينما يريدون أن يتخذوا سمت الفلاسفة والمباقر من المفكرين والباحثين فيظنون خطأ أن ذلك يستلزم الظهور بمظهر الشك والحيرة والطمع على المقررات والمعارضة للمألوف .

(١) منبر الشرق — ١٨ نيسان ١٩٣٩ . (٢) اقرأ البحث فى كتاب للمارك الأدبية .

وقد استمرت هذه الشكوك التي حيرتني قرابة ثلاثة أعوام ، وكانت وسيلة إلى الإيمان ، وقنطرة إلى ثبات اليقين ، وبابا للسكون اللازم وقد انتهيت من شكى الدين وحيرتى الروحية إلى نتيجة حاسمة واضحة ، هي أن القيم الرفيعة والأصول الأولى التي صفقتها الأزمان وارتقتها الأديان هي أولى الأمور وأحقها بأن تكون الدعائم القوية التي نعتد عليها في شتى مسالكنا خلال الحياة » .

* * *

ومن النظرة الشاملة يتبين : أن النظرة الغربية للدين إنما هي مرتبطة أساساً بالمسيحية الغربية وبالجنود العميقة للوثنية الإغريقية التي لم تتخلص منها أوروبا وللنظرة العلمية المادية الخالصة التي تحولت إلى نظرة متحررة في مجال الفراغ وإبراز حيوانية والإنسان وتمريته .

ولقد كان لزعزعة الاتحاد في الفكر الغربى عواملها النابعة من روح العصر وطابع الحياة والفكر ، وقد زاد في تعمقها الحربيين المائتين اللتين قاست منهما أوروبا خلقيا واجتماعيا وروحيا لأحده وهو ما لم نعرفه في العالم العربى الاسلامى على ذلك النحو .

ومن هنا يبدو أن حمل هذه المفاهيم ونقلها إلى فكرنا العربى الاسلامى ليس طبيعيا أساساً وأنه لم يجد مداخله الواقعية ، ذلك أن فكرنا العربى الاسلامى قد استطاع أن يقضى على الوثنية تماماً ، ولأننا ما زلنا فى « أساس فكرنا » نؤمن بامتزاج الروح والمادة والقلب والعقل والدين والحياة وبذلك لا تقوم لدينا تلك الشبهات والشكوك ، ولا تتأثرنا روح الفلق والضياغ التي تتفشى في الفكر الغربى .

ومن هنا يبدو ، أن « اقحام » قضية الدين وفق المفهوم الغربى إنما هي محاولة خطيرة تدفع إليها دعوة التغريب وزرعة الشموبية وهما يسيران في خط واحد ويستهدفان القضاء على المقومات الأساسية للفكر العربى الإسلامى .

وليس فكرنا العربى الإسلامى فى إصالته ينكر الحضارة ، ولا يخاصم الفكر الغربى ولا ينفق أبوابه أمام الفكر الإنسانى جملة بل على العكس من ذلك أنه يفتتح له ويأخذ منه ويدع ، ولا شك أن الحضارة الغربية قدمت للانسانية رفاهية وترقية وتنويراً لأحده

وكذلك الفكر الانساني في جوانبه المشرقة اللامعة المضيئة حين قدم روائع خالدة في عوالم الأدب والفن والاجتماع والنفس والاقتصاد، ولكنها بالقياس إلى فكرنا لا تقبل كليات ولا تفرق فكرنا فيها تماماً . ولا تأخذها أخذاً معممًا . وإذا تعدت الحضارة فإنما ينقد انحرافها عن رسالتها وانفصالها عن الهدف الإنساني الدافع إلى التسامى بالإنسان وإبلاغه إنسانيته، وإذا تعد الفكر الغربى فإنما ينقد من وجهة محاولة فرض وجهة نظره وتحويلنا إلى مفاهيمه للقيم في ظل هدف النفوذ الغربى الطامع إلى السيطرة الاستعمارية باسم بديله «التغريب» وأعتقد أن من حق الفكر العربى أن يحافظ على مقوماته حتى لا يصبح شيئاً غامضاً مبهوماً مبهماً لا هو بالفكر العربى الإسلامى ولا بالفكر الغربى ولا شك أن امتزاج الروحية والمادية والعقل والقلب في فكرنا يجعل للدين مقامه ومداخله إلى مختلف عناصر الفكر وقضاياه على النحو الذى لا يحمى ولا يتحلل ، فنحن لسنا ماديّين مادية صرفه ولا روحيّين روحية خالصة ، وأن الاسلام في فكرنا العربى يشمل الروحية والمادية معاً ، ويعنى اتصال الإنسان بالله من ناحية وبالإنسانية من الناحية الأخرى .

وليس في الإسلام كهانة ومن هنا فإن نظرية الدين وتاريخه وموقفه من الحضارة الغربية على النحو الذى عرفته المسيحية الغربية لا ينطبق على فكرنا العربى ولا على الإسلام الذى ليس ديناً فقط ولكنه دين وحضارة وفكر . ومن ناحية أخرى فإن فكرنا يؤمن بنظرية الانقاع العقلى والبرهان ولا يفرض مفاهيمه بالعنف أو القوة ولا يحمل طابع التمسك أو النظرة الضيقة ويمارض الجود ولا يرفض الحضارة ولا ثمرات الفكر الانسانى بل يأخذ فيها ويدع ويبش في مستوى الركب الانسانى صاعداً معه على الطريق . .

* * *

وفي هذا المجال نعرض لنزعة « العلمانية » التى يحاول الفكر الغربى فرضها على فكرنا العربى .

* إن العلمانية (secular) تعنى أساساً كلمة لاديني وقد حرص النفوذ الأجنبى على بثها في مجال فكر الأمة العربية، مرتبطة بالتطور والنهضة، وبناء الحضارة، غير أن يقظتنا العربية المصرية استطاعت أن تتحرر من هذا الاتجاه ، ولم تر فيه ضرورة ولا حاجة ، وقد أصرت بإيمان على أن تحمل الأديان والروحية عاموداً أساسياً من أعمدة بناء النهضة والحضارة ، ولم تر تعارضاً في الجمع بين مقتضيات الحضارة وبين الروحية المستمدة من الأديان ورسالات السماء .

وبذلك فوتت على الغرب هدفه في محاولة ربط الحضارة بالعلمانية . ومحاولة جعل تركيا مثلاً لهذه التجربة ، ولقد أشار مستر جب إلى هذا المعنى من قبل حين قال « إن الفكر العربى الإسلامى لن ينفصل عن مقوماته الروحية كما فعلت تركيا » ولقد كان جوهر الإسلام ولا يزال قابلاً للالتقاء بالفكر العصرى بل لعله لا يكون من المبالغة القول بأن مذاهب الديموقراطية والاشتراكية والقومية وهى مذاهب عصرية مستحدثة لها جذور بعيدة الأعماق فيه فهو يتقبلها من خلال ضميره بفاهيمه ولا يرى فيها تعارضاً كما ترى بعض المذاهب الغربية فهى فى جذور فكرة تمثل الشورى والعدل الاجتماعى والتجمع الوطنى ومقاومة كل تقوؤ أجنبى .

وهنا تبدو قدرة فكرنا العربى الإسلامى ومرونته فى تقبل هذه القيم الإنسانية والانفتاح لها لأن لها مصادر مستمدة منه أساساً ، وإذا وقع الخلاف بين عالمنا العربى الإسلامى وبين العالم الغربى ، فإنما يقع فى مفهوم هذه القيم ، فنحن لا نأخذ مفهوم الغرب لهذه القيم أساساً ولكننا نستمع مفاهيمها من تراثنا وشخصيتنا وبيئتنا وزاوى فيها ظروف العصر والبيئة . والتقديمية فى التطبيق .

* * *

وإذا كان الغرب قد اتخذنا مذهب العلمانية فإن مصدر ذلك راجع إلى ما احتاج إليه من تحرر من الدين فى رسم مناهج الإصلاح أو المذاهب الاجتماعية ، أما فى الفكر العربى الإسلامى فليست هناك ضرورة أو حاجة ملحة إلى (العلمانية secular) حيث يتدفع الفكر العربى الإسلامى لتقبل كل إصلاح وتحقيق كل تطور دون أن تقوم أى معوقات أو قيود تحول دونه ، فهو مفكر مفتوح قادر على الحركة ، قادر على التلقى والمواجهة ، والأخذ والعطاء وقد مرّن على ذلك منذ ألف وأربعمائة عام « واجه فيها العديد من الحضارات والنهضات فأخذ منها وأعطى دون أن يجمد أو يتوقف أو يصطدم .

ولقد ارتبط قيام العلمانية فى الغرب بقيام الالحاد ومعاداة الفكرة الدينية ، ولذلك فنحن فى العالم العربى الإسلامى الذى يعتبر الدين ورسالات السماء والروحانية جزءاً أساسياً من فكره ومفاهيمه لا تقبل العلمانية ولا نقرها ، بل يجدد فكرنا أن الدين جزء من مقوماته الأساسية وعوامل قوى من عوامل اليقظة والحرية .

وليس شك أن العلمانية قد ارتبطت فى الغرب بوطأة الكنيسة على حياة الفكر والمجتمع وتحالفهما مع قوى الاقطاع وسلطان الأمراء ، ومن هنا تدرجت العلمانية حتى أصبحت

فلسفة وعقيدة . أما في العالم الاسلامي والأمة العربية فإنه لم يقع صدام بين النهضة والدين أو بين العصرية والفكر العربي الاسلامي وكان الاسلام قادراً دائماً على تقبل التطور والنهضة والتقدم والالتقاء بها ، فإذا قامت دعوات أو أوضاع دينية منحرفة لم تثبت دعوات الإصلاح أن تواجهها فتكشف انحرافها وتعيد الوعي إلى المفهوم الصحيح للإسلام الذي يتسم بالسماحة واليسر والتفتح للتجديد والتطور والعصرية والتقدمية والذي يبعد دائماً عن التعصب .

وإذا كان الاسلام قد اتسم بأنه دين وفكر وحضارة فإن روح الدين فيه وفي الأديان المنزلة تلتقي جميعاً في مفاهيم واضحة أساسية في العلاقة بين الله والانسان وبين الناس في المجتمع اتصلت خلال العصور ، وقد كان الشرق بيئة الأديان المنزلة وغير المنزلة .

وهي في جوهرها الأسيل تنكر العنصرية وفوارق الجنس واللون ، وتدعو إلى المساواة وترفع قدر الانسان تحت حكم الله ، وتؤمن بالوحدانية والحرية والاخاء ، والدفاع عن الأرض ومقاومة الغاصب ، والسلام والسماحة مع كل العناصر البشرية وطابعها إنساني على أساسا .

وفي الرد على ما يقوله التغريب من أن تأخر العالم الاسلامي يرجع إلى إيمانه بالروحانيات وتمسكه بالدين ، نقول أن الفكر العربي الاسلامي أقام حضارة ضخمة ارتبطت فيها الروحيات بالماديات ، ولم تقعارض ، بل التقت وامتزجت ولم يكن جانبها الروحي السمج المستنير الذي لا يؤمن بالجلود أو الانحراف حائلاً دون البناء الحضاري والتقدم في مجال البحث العلمي في مجال الفلك والطب والكيمياء والفيزياء . وقد حققت كثيراً من النتائج الايجابية ، وفي ضوء انتصارات الحضارة العربية الاسلامية في ظل إيمانها بمقومات فكرها كانت الهزيمة والتدهور في التخلف عن هذه المفاهيم وانفصال الروحية عن المادية وكان انهيار هذه الحضارة نتيجة لانصرافها عن التجدد والتطور وسيطرة الجود والتقليد فكان جنوحها عن قيمها التي تربط الروح بالمادة مما والى تبعد عن التعصب والانحراف مما هو مصدر تدهورها .

التراث

واجه « التراث » العربي الاسلامى حملة ضارية استهدفت القضاء عليه كقوة فعالة فى بناء الفكر العربى الاسلامى وبوصفه ممثلا للجذور الممتدة لفكرنا الحاضر ، والواقع أن المقارنة قد جرت فى هذا المجال بالتراث الاغريقى والرومانى ووضعه بالنسبة للفكر الأوروبى الحديث . ومن حيث أن التراث الاغريقى المرتبط باللغة اللاتينية قد انتهى وتوقف بعد تحول هذه اللغة التاريخية إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، فقد مضت الدعوة إلى اجراء المشابهة حيث لا مجال للمقاربة بالتراث الاغريقى الذى انفصل عن الفكر الغربى منذ سقوط الدولة الرومانية فى القرن الرابع الميلادى حتى بدأت النهضة فى القرن الخامس عشر . ومن هنا لم يكن هذا الفكر اليونانى والرومانى إلا تراثا انتقل جانب كبير منه إلى الفكر العربى الاسلامى ثم أعيد إلى الغرب عن طريق الحروب الصليبية أو الأندلس أو القسطنطينية مضافا إليه ما حققه الفكر العربى الاسلامى من تطوير واضافات وابداع .

فهنا يمكن حقا أن يقال أن هذا الفكر اليونانى والرومانى هو تراث بالنسبة للفكر الغربى فقد انقطع عنه ألف عام وتغير فى لغته ومضمونه ، فإذا جاء الغرب فأتخذه « فرشا » لفكره الحديث فإن كلمة « تراث » التى تعنى ترجمة كلمة Legacy تكون صحيحة حقا . أما بالنسبة للفكر العربى الاسلامى فإن الأمر يختلف كل الاختلاف .

ذلك أن « جذور » الفكر العربى الاسلامى ما تزال حية ممتدة متطورة فى مجال الدين واللغة والتاريخ والثقافة والتشريع والأدب ، هذه الجذور الممتدة المضطردة التطور والحركة لا يمكن أن توصف بأنها تراث Legacy على نفس مفهوم التراث اليونانى والرومانى بالنسبة للحضارة الغربية .

وأكبر مدعاة لنقض هذا رأى بقاء اللغة العربية قابعة وهى أم جذور الفكر وحاملته « فما تزال اللغة العربية التى كتب بها الفكر العربى الاسلامى قبل ألف وأربعمائة عام حية نابضة بالحياة متطورة مع الزمن خصبة قادرة على تقبل المصطلحات الحديثة .

وهي جذور ما تزال قائمة كالسأء والأعمدة الضخمة تحمل البناء وتمتص من مختلف الثقافات الفارسية والهندية واليونانية والرومانية والغربية الحديثة دون أن تهدم دعائها ، فهي تأخذ من هذه الثقافات وتدع « وتحول ما تأخذ إلى كيانها بالهضم والتمثل ، دون أن تقع في ازدواجية الفكر الغربى المعاصر الذى يقوم على أساس وثنية الإغريق ومسيحية الشرق هذه الأزواجية التى انصهرت بعد فى المادية الدارونية .

أما جذور الفكر العربى الإسلامى فما تزال تتمثل فى وحدة تتمزج فيها هذه العناصر وتتلاقى كأجزاء الجسم الحى .

ولا ريب أن هذه الجذور أو المنابع ما تزال تتفاعل مع ثقافتنا وحياتنا ولا ينقطع تفاعلها وما من نظرية حديثة أو فكرة الأولى فى جذورها مصدر .

وإذا كان الفكر العربى المعاصر قد اتخذ له من الفكر اليونانى الرومانى تراثا وقاعدة أطلق عليها حركة الإحياء *renaissance* فأى قاعدة أو أساس يمكن أن يقام عليه بناء فكرنا الإسلامى المعاصر إذا ما تخليصنا عن جذورنا ومنابعنا .

وفى الوقت الذى يحمل التغريب والشعوبية — والشعوبية لها دور ضخم فى هذا المجال — لواء الدعوة إلى انكار التراث وحجب القديم نرى الفكر الغربى يواصل ارتباطه بالتراث اليونانى الرومانى بعد انفصال ألف عام على نحو يكاد يبلغ درجة التقديس . حتى لقد دفع هذا الإيمان بمض المفكرين الغربيين إلى انكار فضل الفكر العربى الإسلامى والثقافات الشرقية القديمة على الفكر اليونانى وعدوا رحلة علماءهم وأدبائهم إلى الشرق ليست ذات صلة مطلقة بالافتقار من الفكر الشرقى القديم موارد بابل وأشوار والفراعنة .

وقد حاول « جوبدى » إثبات ذلك فى محاضرة مشهورا له ألقاها بالقاهرة قال فيها :

إن رحلة علماء اليونان إلى الشرق لم يكن من أجل العلم ولم يكن للشرق أثر فى ثقافتهم ، وهو قول متعصب خال من الحقيقة .

ومجرى هذه المناظرة الضخمة بالرغم من إجماع المؤرخين والباحثين على إثبات فضل الفكر الشرقى على الفكر اليونانى .

ومن ناحية أخرى حرص الفكر الغربى فى عهد الرينسانس على تنقية ما ترجمه من الفكر العربى الإسلامى من طابعنا ، ومضى المؤرخون ينكرون فضل الفكر العربى الإسلامى جملة بل ويعتبرون هذه المرحلة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية إلى بدء حركة الاحياء والنهضة فى أول القرن الخامس عشر فترة العصور الوسطى المظلمة ، وهى جرأة وتمصب وكنود للفكر والحضارة العربية الاسلامية التى غمرت العالم كله ووصلت إلى مواطن أقدام أوروبا قرب باريس وروما وعند نهر اللوار .

وفى نفس الوقت الذى يقف الفكر الغربى من رآئه هذا الموقف ، فى احيائه والاتصال به - على مدى الانفصال الطبيعى خلال ألف عام - ومحاولة انكار كل فضل متصل به على غير نحو علمى منصف ، نجد الدعوة توجه إلينا لانكار تراثنا المتصل الحى المتفاعل الذى لم يمت ولم ينقطع ولم تسقط لفته فى هوة النسيان .

ونجدنا بروح الاخلاص والانصاف التى يتسم بها فكرينا لا ننكر الروافد التى اتصلت بفكرينا ونعترف بها ، ولا نرى بأسا من أن الاعتراف بأن الفكر العربى الاسلامى كان مفتوحا على الفكر الانسانى قادر على الامتصاص منه ، مستمدا من عصاراته ، ومحوها إياها إلى كيانه ، خالقا منها - على أساس من مقوماته الأصيلة - فكراً حياً نامياً .

* * *

وقد كانت حملات التغريب والشعوبية على التراث هادفة أساساً إلى حجب الماضى التى يتمثل فى الدين والقرآن واللغة العربية والتاريخ باعتبارها الروابط الأساسية لوحدة الفكر العربى الاسلامى والضمان الأكيد الحائل دون تفتت الأمة وانصهارها فى الفكر الغربى ولما كان النفوذ الغربى حريصا على هدم هذه القومات فقد إمتدت الدعوة إلى مقاومة التراث الماضى بحجة أنه قديم بال لم يعد يصلح للحياة .

فكان من رأى الدكتور زكى نجيب محمود أن رجوعنا إلى الثقافة العربية القديمة هو أشبه شئ « بالوباء يصيب نهوضنا الفكري الذى لم يستقم بعد على قدميه ، وربما أحدث هذا الوباء فى عقولنا من الضرر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال أثره والنجاة من شره . وليت الأمر فى ضرره يقف عند حد انعدام نفعه ، بل أنه ليعمد لنا جواً فكرياً قد يضطرنا اضطراراً إلى تنفس هوائه حتى تمتلئ به رئاتنا وصدورنا فنكون عندئذ بمثابة من يعود بالزمان القهرى . ماذا يريد بنا هؤلاء الناس الذين يلوون وجوهنا وعيوننا إلى الوراء . . »

أما سلامه موسى فيرى « أن ماضياً كله سخافات وجهالات لا يصح الافتخار به » .

أما حسين فوزى فيرى « أن الثقافة العربية مانت عقب القرون الوسطى وذهب غبارها مع الثقافات الأخرى التى عرفت أوروبا بين أغلال الامبراطورية الرومانية وعصر الرينسانس ولا قيمة للثقافة العربية أكثر من أنها لعبت دور انتقال فى العصور الوسطى فكانت مستورداً لبعض مظاهر تفكير اليونان فيما قبل عصر أحياء العلوم . وقد كانت حلقة اتصال بسيطة بين اليونان وعصر البرينسانس وقد انطفأ نورها كما ينطفئ السراج الذى نضب زينه واحرق ذبائته وانكسر إناءها وعلى جميع الأمم التى تتكلم العربية أن تنصرف عن هذه الثقافة فلا نضيع وقتنا فى نبش قبور لن نجد فيها حتى ولا عظاما متماسكة وكانت وإلى التراب تمود » .

وليس فى هذا الكلام كله رأى علمى ، وإنما هو مشاعر عاطفية تحمل طابع الشجب والانتقاص والكرهية التى انتفعت بها الشعبية ورددت صداها .

فما أعرف كاتباً غريباً مهما بلغ به إنكاره للتراث هاجم التراث الغربى على هذا النحو ، بل أن كاتباً من كتاب الغرب المبعضين لم يهاجم التراث العربى الإسلامى على هذا النحو .

وإذا كان علينا أن نعرض اتجاه الذين جحدوا التراث العربى الإسلامى على مفاهيم الغرب للتراث نفسه فإننا نجد تناقضاً واضحاً ، إذ بينما يرى الدكتور عبد الرحمن بدوى يقول « إن التراث اليونانى عامل لا يزال يحيا بكل قواه فى الحضارة الغربية » .

وزى كوستاس اكييلوس فى دراسته المطولة عن مفهوم «التراث» يقول أن التراث «يبقى ويستمر عندما تتوافر منه عنصر انطلاق أصيلة . إنه يسوسنا حتى عند ما ندير له ظهرنا وأن ذكره مرتبط بفاتحة تواصل الماضى إلى المستقبل . ذلك أن المستقبل سيلاحق يوما بالماضى ، لأن الحاضر ليس إلا جسراً معلقاً بين الماضى والمستقبل وأن هذه التراثات قوى فعلية حيه رهيبه مضئيه ومظلمة ونتائجها تمضى بعيداً أبعد من المقرر والمراد » وأن ما يسمى تراثات إنما يصوغ فى وقت واحد الكائنات والأشياء » .

ويصور الدكتور طه حسين حاضر الفكر الغربى بعد الثورة الفرنسية التى تعد حدثاً جذرياً ضخماً فى هدى وارتباط بالماضى فيقول «قد ظن أصحابها أنهم قطعوا كل سبب بين نظامهم القديم ونظامهم الجديد وأنهم استأنفوا حياة لم تعدها أمتهم من قبل ، فلما سكث عنهم عنف الثورة وانتهوا إلى الإستقرار وإلى التفكير الهادى المطمئن تبنينوا أنهم قد غيروا ولم يرتجلوا ، وأنهم قد وصلوا القديم بالحديث ، وكان حظهم من الابتكار والإرتجال أقل جداً من حظهم من استيفاء القديم ووصل أسباب الماضى بالحاضر والمستقبل » .

والغريبون أنفسهم يفهمون من التراث ما يفهم ، وليس ما يفهم دعاة التغريب فهذه سيمون وابل تكتب عن الحاجة إلى الجذور (The need to roots) .

تقول أن للتراث الماضى فى عنق الحاضر مسئوليه قدسيه ، فإذا أهدم الماضى فإن عودته ضرب من المحال ، ومن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ماورثوه عن أسلافهم من تراث ، فاعلياً إلا أن نجعل همنا الأكبر الاحتفاظ الذى يبق لنا من تراث الماضى .

هذه الجذور ليست نزعاً عاطفياً معناها الرجعية والجود ، وإنما هى غريزة روحية تسكن فى نفوسنا جميعاً . وفى اثورة على الماضى دعوة إلى القطيعة بين الجذور والأعضاء » .

وفى الثقافة الهندية نرى وجهة النظر فى التراث واضحة فى عبارة « نهرو » الذى يقول : لقد ولينا وجهنا وجهتين : إلى الأمام نحو المستقبل وإلى الخلف نحو الماضى « بينما تجاوزنا كل منهما ناحيته ويشدنا نحوه » فكيف إذن نستطيع أن نوفق بين هذا الصراع ونخرج من ذلك بأسلوب من الحياة يحقق حاجتنا المادية وفى الوقت نفسه يشبع عقولنا ونفوسنا »

إن علينا أن نتطلع إلى المستقبل وأن نعمل له حاهدين عن قصد يحدونا الإيمان القوى وأن نحفظ في الوقت عينه بترائنا الماضي ماثلا أمامنا لكي نستمد منه القوة والعزيمة .

وأن التنوير أمر لا بد منه ولكن استمرار الحياة من غير اضطراب أو تقطع أمر لا يقل عن ذلك أهمية ، وخير مستقبل هو ما كان قائما على الحاضر والماضي على السواء .
أما أن ننسكركل لماضي ونزع أنفسنا منه فغناه اقتلاع أنفسنا اقتلاعا من تربتنا فنخرج منها وقد يبس عودنا وجف مافيه من عصارة الحياة الحقة^(١) .

وفي نفس الوقت الذي يرتفع الصوت من داخلنا ومن كتابنا في الدعوة إلى حجب التراث وإنكار الماضي كله . نرى كتاب الغرب يؤكدون أننا لن نعمل ذلك ولن نستجيب له .

يقول « كامفابر » : لن ينفصل العرب عن الماضي المجيد ، ليس من الممكن أن يحدث في العالم العربي شيء يشبه ما حدث في تركيا . وسيكون استعادة هذا الماضي وتجديد الحديث عنه هو أحد العوامل القوية في حركة البعث الوطني والديني ، أن حركة بعث الإسلام لا يمكن أن تنقطع أو تتوقف لأن الناس في حاجة إليها فهي إحدى مقومات نهضتهم الوطنية .

ويقول « جاك بارك » : أن مستقبل العرب يتمثل في إحياء الماضي لأن المستقبل هو في كثير من الحالات الماضي الحى أو الماضي الذي وقع أحياءه وعيشه من جديد .
ويقول « جب » ليس في وسع العرب أن يتحرروا من ماضيهم الحافل كما تجرد الأتراك وسيظل الإسلام أهم صفحة في هذا السجل الماضي إلى درجة لا يمكن أن ينفصل عنها الساعون إلى إنشاء مثل عربية عليا .

ويقول بلاشير : كما أن للشعوب العربية الاحتفاظ بتراث أجدادها القدائي ، كذلك للشعوب العربية الاحتفاظ بتراثها الأصيل وعليها أن تدرك أن كل تراث ثقافي يتضمن امكانيات التطور^(٢) .

(١) الهند : اليوم وغدا لثيرو .

(٢) مجلة الآداب (١٩٥٦) .

ومهما كان لهؤلاء الباحثين من رأى فى الفكر العربى الاسلامى فإن مفاهيمهم هذه تتعارض تماما مع ما يتهم به التراث العربى الاسلامى من نقص فى الايجابية أو الحيوية أو الارتباط بالحاضر .

* * *

ومع هذا رأى الذى أبداه مستشرقون غربيون ، فإن حركة التغريب التى يقودها النفوذ الأجنبى كانت وراء الحملة على التراث . وعندما أخذت حركة إحياء التراث تبرز كعمل إيجابى وكقوة مقاومة للتحدى ورد فعله فى الثلاثينات ، تدخل كتاب لهم نقوذ « وخصومه سابقة للتراث ، فهاجوا الأعمال التى بدأت وفرضوا أسلوبهم ومنهجهم » وظن بعض السذج والبسطاء أنهم عادوا إلى الحق ، وأنهم آمنوا بآمتهم وفكرها . والواقع أن ليس كذلك وإنما حملوا أساليب التغريب ومفاهيمه لقيموا عليها أحياء التراث وليستغلوا هذا التراث فى خدمة أهدافهم ، سواء كانت مقاومة الشيوعية أو تأييد الديمقراطية الغربية أو مؤازرته الحلفاء فى الحرب . وبذلك جرت محاولة استغلال التراث لخدمة أهواء النفوذ الغربى . فضلا عن أن الأساليب التى اصطنعت لم تكن خالصة لوجه العلم ، وكانت ذات هدف واضح فى إبراز جوانب معينة .

(١) تغليب الاسطورة على السيرة .

(٢) تأكيد بعض الاتهامات الموجهة للرسول وتاريخه واعطائها صورة البطولة .

(٣) محاولة إبراز مفهوم خاطئ بأن عظمة أعلام الإسلام مستمدة من شخصياتهم أصلا ومن يبتأتهم قبل بزوغ الإسلام وليست مستمدة من أثر الإسلام الذى كان نقطة تحول فى بناء الشخصية العربية وغير العربية وتاريخها .

والمعروف أن حركة الاستشراق التى سارت فى فلك الإستعمار النفوذ الأجنبى كانت قد أولت اهتماما كبيرا للتراث العربى الإسلامى واستطاعت أن تحصل على كميات ضخمة من مخطوطاته وأودعتها مكاتبها فى باريس ولندن وغيرها . وإنما حاولت أن تروج لجوانب معينة من هذا التراث وتغفل جانبا آخر كأن تهتم بنشر التألفه والملىء بالاضطراب أو الشعوبيات .

وكان المستشرقون الذين استقبلوا بعثاتنا قد رسموا فعلا خطة واضحة لمفاهيمهم

في التراث العربي الإسلامي والفكر العربي الإسلامي فقد أقاموا فروضهم أساساً ثم التمسوا لها الأسانيد من نصوص مبتورة أو روايات مضطربة أو بعض ما أورده خصوم العرب والإسلام والحاقدون عليه من دعاة المانوية أو البابكية أو الخزمية . . من عشرات الفرق التي كانت تسكيد للإسلام والعرب .

ومن هنا فقد فرض هؤلاء المستشرقون آرائهم فرضاً، وأماي أكثر من دليل على أن الرسائل التي كتبها منصور فهمي وطه حسين وزكي مبارك قد حملت مفاهيم المستشرقين، ثم انتقلت هذه المفاهيم مع الرواد الأول إلى الجامعات في العالم العربي والإسلامي فضت في نفس الطريق حيناً طويلاً . وكان من أقسى الأعمال أن يحاول مبعوث الخروج من هذا النفوذ الفروض والاتجاه المرسوم بأن يقول رأياً مخالفاً وقد لقي زكي مبارك وضياء الريس عنقاً كبيراً نتيجة لمقاومة اتجاهات المستشرقين وكانت الخطوط الرئيسية في هذا هي :

إن الفلسفة الإسلامية والفكر العربي الإسلامي كله مستمد من الفلسفة اليونانية . وإن الشريعة الإسلامية مستمدة من الشريعة الرومانية . وأن القرآن من نظم محمد ، وإن الإسلام سجع من الأديان السابقة له ، إن النبي محمد كان ذارجوله خارقة وهذا سر تعدد زوجاته وإن العرب قبل الإسلام ، كانوا أمه ذات بلاغة وبطولة وإن بطولات النبي وعمر وعلى مستمدة من البيئة العربية وليس من الإسلام نفسه . وقد انصهرت هذه المفاهيم الخاطئة في معظم الدراسات وكما أقيم إحياء التراث العربي الإسلامي في ضوءها وعلى مخططاتها .

فكان الاهتمام الضخم بأبي نواس وبشار من الشعراء والمحنرفين في الصوفية كالسهروردي وابن عربي والحلاج وكان من أوائل كتب إحياء التراث التي طبعت الأغاني وألف ليلة وترجمات عمر الخيام .

ولم يتوقف المستشرقون عن قذف التراث العربي الإسلامي بعشرات النظريات والأراء المدمرة منها نظرية انتحال الشعر الجاهلي ، والشك في الكتب المقدسة ، وفصل الأدب عن الدين . أما الشخصيات الضخمة في تاريخنا فقد وجهت إليها الاتهامات ، التنبي لقيط . ولا أب له ، ابن خلدون محترف .

ثم جرت الدعوة إلى اتخاذ الفلسكولوج وسيلة يستغلها التنريب لمحاولة القضاء على الجوانب

الاجبائية في التراث تحت ضغط ابراز جوانب معينة واعطاءها اكثر مما تستحق من الاهتمام. إذا عرضت في اطار التراث كله .

ولا شك أن احياء التراث العربي الاسلامي من أخطر الأعمال التي تواجه حركة التغريب لأنها ترد المثقفين إلى جذورهم وتكشف لهم عن مقومات فكرهم ، وتعطيهم زاداً فكرياً وروحياً لا حـد لقوته وأثره ، ودوافعه في الإيمان بالشخصية العربية الإسلامية والثقة بها .

ولذلك فهو لا يألو جهداً في إغراق السوق بالتافه والمضطرب والشعوي من المخطوطات ليؤكد نظرة معينة إلى التراث ، ثم هم يفرضون نظريتهم المستمدة من مفاهيمهم للفكر الغربي الوثني المادى — على تحقيق التراث ، ومن هنا يبدو قصور التحقيق العلمى للتراث .

وليس في هذا تجن أو مبالغة فإن الغربيين في مختلف أبحاثهم عن التراث يعلفون أن تراثهم يعد وجودهم بالعلمانية والإلحاد وأن التراث الهليني قد أخصب التراث اليهودى المسيحى .

* * *

وإذا كان هذا التيار قد تعمق فعلاً ، وانحرف في إحياء التراث فإن جهوداً ضخمة لتحريره وحمايته قد بذلها رجال صادقون لأمتهم وتراثها لا يمكن أن تنسى ، ولا أن تضيع ، وقد كانت حتماً في العقد الثالث من هذا القرن تمثل تياراً منصفاً سار فيه أحمد زكى وأحمد تيمور وطارح الجزائرى وعبد الدين الخطيب ثم من بعدهم وعبد الله كنون وإبراهيم الإبيارى وأبو الفضل إبراهيم وعبد السلام هارون ومحمد القاسم ومصطفى جواد .

وكان الدعوة إلى إحياء تراثنا العربى الإسلامى أساساً من اتباع حركات الاجتماع والتجديد وكان أغلبهم قد تعلموا في أوروبا — أمثال عبد العزيز شاويش وعلى مظهر ويحيى الدرديرى ولم يكن هذا الجيل خاضعاً للمستشرقين بل على العكس موجهاً لهم ، وحملت عبد العزيز جاويش على المستشرقين في مؤتمرهم عام ١٩٠٥ مشهورة وقد حملت بعض التعمصين من كتابهم على التراجع عن آرائه . أما زكى باشا وتيمور باشا فقد كان المستشرقون يققون منهما موقف

التلاميذ » وقد عرف زكى باشا بمعارضته وهملاته الضخمة على أخطاء المستشرقين وانحرافاتهم .

غير أن هذا الرعيل الذى يتمثل فيه الإيمان بالتراث العربى الإسلامى وفهمه وفق مقوماتنا قد ضاع إزاء الجيل الضخم الجديد من أتباع المستشرقين ولا أقول تلاميذهم ، هؤلاء الذين تصدوا لإحياء التراث وفق مفاهيم التغريب ، هذه المفاهيم التى بناها المستشرقون منذ وقت طويل فى ظل اهتمامهم البالغ بجمع التراث منذ وقت باكر . وروى كرد على فى كتابه « خطط الشام » أن فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولندا وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر مخطوطات عربية عن مختلف البلاد التى تبتاعها بواسطة وكلائها وقناصلها الأساقفة والمبشرين من رجال الدين . وقد باع خدام المساجد الأوراق الصفراء التى كانت تضمها خزائن المساجد ، وروى الفيسكونت دى طرازى فى كتاب « خزائن الكتب العربية » أن خادماً يدعى ابن السليمانى عين فى حوالى منتصف القرن الماضى حارساً لثلاث مكتبات كبرى فى مساجد القاهرة . وكان الرجل يستعين على رزقه ببيع عيدان قصب السكر ، وكان يقيم فى زاوية تحت سلم مسجد السلطان حسن ويضع بجانب بضاعته من القصب ألواحاً من مخطوطات المساجد الثلاثة يبيع منها لمن يدفع .

هكذا أولى الغربيون هذا التراث اهتماماً استهدف محاولتهم إخفاء جانب منه أو تحريف تفسيره أو استغلاله على نحو من الإنحاء فى مخططات التغريب وخدمة النفوذ الغربى ، ورسم خطط مقاومة آثاره أو مقاومة إحيائه على النحو الصحيح .

وتبدو المناقضة واضحة : إنه فى نفس الوقت الذى يدعونا التغريب إلى إهمال التراث يهتم به ويبذل من أجل الحصول عليه وتحليله وإعادة طبعه ونشره جهداً كبيراً ، وبينما تدعو الشعوبية إلى رفض التراث العربى الإسلامى جملة والجملة عليه ، فهى تولي اهتمامها للتراث الفرعونى والفينيقي والآشورى والبابلي وكل ما قبل الإسلام . وفى هذه الجملة مغالطتين : أولاً أن الغرب الذى يستغل به هؤلاء ، ويؤمنون بولائه قد آمن بتراته وأحياءه وأطلق على عصر نهضته « الرينسانس » أى الإحياء . والأخرى أن أعلام المستشرقين فى الغرب يعملون فى مجال إحياء التراث العربى الإسلامى ، ومع ذلك فإن دعاة التغريب والشعوبية

يصفقون لهم . وفي هذا المعنى تقول الدكتور بنت الشاطيء : « إذا اشتغلنا نحن العرب بترائنا ، اتهمنا بالرجعية ، ووصمنا بالتأخر ، وشبهنا بالهيما كل الخربة ، وإذا اشتغل بها أمثال : مرعيوت وجب وماسنيون وبروفنسال وكانياتي وكراتشكوفشكي وشاخث ؛ فهم علماء أفذاذ . » وعلى نفس النسق نرى دعاة التغريب يرون أن اهتمامنا بالتراث العربي والإسلامي عملاً مرفوضاً ، بينما إذا اهتممنا بتراث الإغريق أو بتراث العرب قبل الإسلام ، كان هذا العمل بالغ التقدير في نظرهم .

وحين يزعمهم تجديد التراث العربي الإسلامي وإحيائه ، لا يزعمهم أن يعود اليهود إلى إحياء اللغة العبرية التي ماتت منذ ألف عام .

وهناك ظاهرة بالغة الأهمية في هذه التبعية في فهم التراث أو التأثير به ، فإن كتابنا لم يكتبوا عن محمد ولا الإسلام بإنصاف ، إلا بعد أن سبقهم إلى ذلك أمثال جوستاف لوبون وأميل درمنجم . وأن تأثرهم بهذه الكتابات النصفية إنما كان جرياً على اتجاههم في التبعية ثم لم يلبث هذا الجرى أن تحرر حين سار فيه الجيل الذي تابعهم .

وفي مجال التأليف عن التراث ، بدت زعة التأثير بنظرة المستشرقين واضحة في أمثال « تاريخ المدن الإسلامي لجورجي زيدان » و « تاريخ العرب لفيليب متى » و « فجر الإسلام لأحمد أمين » و « الأدب الجاهلي لطلح حسين » و « النثر الفني لژكي مبارك » .

وفي كثير من إنتاج العالم العربي والإسلامي نماذج مماثلة لهذا ، فمظمة الفردوسي مثلاً ترد إلى وطنه الفارسي ، لا إلى ثقافته الإسلامية . وحيث ترى محاولة إعلاء التراث الإقليمي الخالص وتصفيته من التراث العربي الإسلامي كدعوة أميل خوري حرب في لبنان . أو التخلص من الحروف العربية والكلمات العربية كما فعلت تركيا .

وقد استطاع المستشرقون في حوالى الخمسين عاماً الماضية أن يقدموا دراسات متعددة في مختلف مجالات التراث العربي الإسلامي ، التاريخية والأدبية والفلسفية والصوفية ، فرضوا فيها شكوكهم وأهواءهم ودعوتهم التغريبية في دقة بالغة من خلال البحث العلمي ، حتى أصبح الآن ، وليس في وسع الباحث العربي أو الإسلامي - مع الأسف - إلا أن يأخذ بها كالمسلمات دون أن يتحفظ أو يقطن لما فيها من سموم وانحرافات . وإننا نرى الآن أغلب كتابنا ، وقد

أصبحوا يعتمدون اعتماداً كاملاً على دوائر المعارف الإسلامية والبريطانية والفرنسية في كل ما يتصل بأمر ثقافتهم وتراثهم ويجدون أنه من الأسهل اليسير أن ينقلوا هذه النصوص وينقلوها عليها كتاباتهم ، وبذلك يساروا أخطاء المستشرقين ، ومغالطات دعاة التغريب ، ويمعمقوا آراءهم ويذيعونها ، وقل منهم من يراجع هذه الآراء ويححصها ، أو يرى وجهة نظره من خلال مفاهيمه للفكر العربي الإسلامي وفي ظل الكسل العقلي في العالم الإسلامي ويواصل المستشرقون أبحاثهم في هذا الصدد ويواصلونها ، وقد أعادوا طبع دائرة المعارف الإسلامية ، التي ما زلنا نواصل ترجمة طبعها الأولى منذ عام ١٩٣٢ ولما ننته بعد منها ، على ما هي مليئة به من الانحرافات والأخطاء وأفكار التعصب .

وتلك صورة بشعة غاية البشاعة ، أن يعتمد الفكر العربي الإسلامي ودعائه على مراجع المستشرقين وآرائهم ونحن نعرف في تأكيد أنهم يخطئون مرتين : مرة بالقصور الذاتي في فهم الفكر الإسلامي ، ومرة بالتعصب وموالاته النفوذ الأجنبي . ونضيف إلى هذا دسائس اليهودية العالمية ، التي تحاول أن تثبت أن لها حقاً تاريخياً في فلسطين ، أو تضيف تحريفات مقصودة لبعض جوانب التاريخ والفكر . كما أولى المستشرقون اهتماماً كبيراً للشرق وبلاد العرب قبيل الإسلام ، ودراسة الحركات المنحرفة من داخل تاريخ الإسلام وفكره ، والاهتمام بها ، وإبراز الخطوط العامة للفكر الشعبي ، الذي هاجم مقومات الفكر الإسلامي ، واعتباره حقائق أساسية . من خلال هذه الملاحظات يجب أن تكون نظرنا إلى التراث العربي الإسلامي فنجتاط تماماً في الاعتماد على كتابات التغريب والشعووية من ناحية ، ونعيد النظر في تراثنا من ناحية أخرى . فنحن أساساً لا نرفض تراثنا ، ولا نعتقد أن ذلك ممكناً ، فليس هناك قوة مهما بلغت ، تستطيع أن تنزع أمة من جذورها وروابطها وقيمها الأساسية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فليس معنى « تقدير » التراث هو قبوله دون تحقيق علمي دقيق ، وليس معنى قبوله وخضعه ، هو إعادة مثله أو تطبيقه . وعلينا أن تكون نظرنا إلى التراث أصيلة مستمدة من مفاهيمنا ، فلا نتمتع على وجهة نظر الفكر الغربي ، الذي تحتلف مقوماته عن مقومات فكرنا ، ولا على خطط الاستشراق والتغريب والشعووية ، الذي لا يؤمن بأمثنا أو فكرها أساساً . ولا شك في ضرورة النظرة إلى التراث في هذه المرحلة من حياتنا الفكرية ، فهي بمثابة شهادة الميلاد لنا ، والضوء الكاشف الذي نأمن في ظله النثار ، ففي تراثنا ، مقومات

فكرنا الأساسية الحية المستمرة الممتدة التي لم تمت ، ولم تتحول إلى المتحف ، ولم تنفصل عن تاريخنا . وليس تراثنا ميت يحيا ، ولو كان كذلك ما كان هناك من ضير ، فقد أحيا الأوريون تراث اليونان والرومان بعد أن قبر ألني سنة ، وكذلك أحيا اليهود لسانهم العبري وبعثوا فكرهم بعد ألف عام ويزيد ، إن طاقة التراث الحية تعطى ولا تنقص ، وكل قول يوجه إلى هدمها أو البعض منها هو لون من الشعورية والتغريب . ونظرية إحياء التراث وتمثله ، تهدف أساساً إلى الربط بين الماضي الحاضر من ناحية ، والاندفاع إلى الإيجابية من ناحية أخرى ، وهي دعوة للاستيحاء لا للتقليد ، وللتكلمة لا للتكرار ، وفي تقدير كثير من المؤرخين أن النهضة لا تنجح إلا إذا قامت على التراث وارتبطت بالجذور . ومعنى هذا أن يظل فكرنا نابغاً من قيمنا الأساسية ، مرتبط بـمناضينا .

وكل ما تدعونا اليقظة إليه هو تحرير هذا التراث ، مما علق به من الشوائب على نحو قوامه الإيمان بفكرنا وأمتنا ، وعلى أساس الجرح والتعديل ، ومعرفة الجوهر من العرض . ويقوم هذا العمل على أساس أن فكرنا مزيج من الروح والمادة والدين والحياة وأنه لا يفصل بينهما ، وعلى ألا تتخذ ظروف دين أو فكر أو تراث آخر أداة لتطبيقها على فكرنا العربي الإسلامي . أن نظرتنا إلى الحياة تنبع من تاريخنا وفكرنا وتراثنا وليس تراثنا روحياً فقط كما يحاول البعض أن يقول « وليس عقياً وإنما هو حي متطور ، وقادر على أن يدنا بالحيوية والحركة » وإذا كان الفكر الغربي قد عني بأساطيره وخرافاته فنحن أحق بأن تعنى بحقائقنا وقيمنا . وليس صحيحاً على الإطلاق أن الأخذ بأسباب الحضارة يتطلب هدم التراث . وليس معنى فتح النوافذ للثقافات والأفكار أن نرى النور بأعين غيرنا .

وفي هذا المجال يمكن القول بأن نهضتنا قد أولت التراث اهتماماً ضخماً فقد أخذ يعمق طريقه ويحدث أثره في بحث الإصالة والضياء .

التاريخ

ما زال « التاريخ العربى الإسلامى » يمثل قطاعا خطيرا من مقومات فكرنا وأسسه التى طالما واجهت عواصف التغريب وحملات الغزو التى عملت على تحويلها عن قيمها ولبايها ، ولقد كان تاريخنا ولا يزال عاملا هاما فى بناء ثقافتنا وخلق وحدة الفكر وتعميقها ، وهو فى هذه المرحلة التى نمر بها اليوم - مرحلة ما بعد انتهاء الاحتلال للعالم العربى وبناء نهضته التى ترعج النفوذ الأجنبى على النحو الذى يتمثل فيه القضاء عليه مما دعاه إلى تعميق الغزو الفسكرى وتوسيع نطاق التغريب والشعويرة -- ولا شك كان التاريخ عاملا هاما فى بناء الفكر العربى الإسلامى وأداة من أدوات دفع هذه الأمة إلى الحياة والقوة والتطور .

ولقد كانت حملة التشكيك الضخمة التى وجهت للتاريخ العربى الإسلامى . خلال مائة عام مضت عاملا بعيد المدى فى هبوط روح الإيمان بقدرتنا على إحراز مكاننا الحقيقى فى الحياة الإنسانية . فقد وجهت إلى تاريخنا سهام النقد وفرضت نظريات مريبة محاول هدمه وإثارة الشبهات فى بعض موافقة من أجل صرف الأنظار عنه ، أو خلق نظرة من الريبة والكراهية والتنفير منه . بينما غلت الدعوة إلى الاهتمام بالتاريخ العربى والتوسع فيه وتقديسه فى صور رائعة مغرية ، وقد أناحت دعوة التغريب للعالم الإسلامى أن تقدم له عشرات الأبحاث والدراسات فى تاريخ فرنسا وإنجلترا وهولندا وعمت الصحف العربية والإسلامية فى حملة متصلة لا تتوقف فى دراسات متصلة لأعلام الوطنية والسياسة والفكر والاجتماع فى الغرب ، تحمل فى تضاعيفها التقدير والإعجاب والتحليل لحياة هؤلاء وآرائهم وأعمالهم على نحو يدعو إلى الاكبار والإجلال . بينما لم يجد أعلامنا وأبطالنا ولا مواقفنا الخالدة ولا بطولاتنا مثل ذلك ، ولا أمكن أن يتفرغ لها كتابنا الذين أهمهم نابليون وبسارك وتشرشل ووشنطون وماركس وفرويد .

بل أن الثورة الفرنسية لو أحصى ما كتب عنها فى الصحف المصرية فى خلال نصف قرن لزاد عما كتب عن الثورة العربية وثورة ١٩١٩ ولو أحصى ما كتب عن نابليون لزاد عما كتب عن مصطفى كامل ومحمد فريد .

أما في الجزائر والجزء وتونس فإن الموقف يكون أشد عنفا ، فقد حيل بين هذه الأجزاء من الوطن العربي أن تتصل بالتاريخ العربي الإسلامي ولقد انصلت دعوات التاريخ وتعمقت لدراسة العصور الأولى ، فحرص النفوذ الأجنبي في العالم العربي على دراسة الفرعونية والبابلية والآشورية وحضارة الرومان واليونان وتاريخهم ثم حضارة الغرب منذ أول عهد النهضة وثورات إنجلترا وفرنسا وأمريكا . ولسنا نعارض في دراسة حضارات العالم أو تاريخ البشرية فذلك مصدر من مصادر الثقافة لا حدة له ، ولكننا ننظر إلى الهدف منه ، حين يصادر تاريخ الأمة العربية والدولة الإسلامية ويحدد أو يحرف أو ينظر إليه إلا من خلال تاريخ الملوك والصراع بين الأمراء والحكام ، وفق مخطط يستهدف المقارنة التي تقضي إلى احتقار تاريخنا والإعجاب بتاريخ الأمم الغالية المسيطرة الحاكمة ، ومن هنا تنشأ روح الموالاة للغاصب والسير في ركابه ، والأعضاء والنفرة من تاريخنا وأجدادنا التي لا تبدو في نظر الأجيال إلا صورة من الصراع والخصومة والمواقف المشبهة أو الغامضة .

وليس شك أن في تاريخ كل لغة ودولة مواقف نقص وقصور ولكنها في مجملها لا تستطيع أن تقضى على عظمة هذا التاريخ ومكانته ودوره وأثره في المدينة الإنسانية والحضارة البشرية .

وقد واجه « التاريخ » العربي الإسلامي محاولة ضخمة ذات شقين للقضاء عليه أو التشكيك فيه (الأولى) وجهت إلى منهجه . و (الثانية) وجهت إلى مضمونه .

فقد هاجمت الحملة أسلوب كتابته وعمدت الثانية إلى التشكيك في بطولاته ومقوماته . وذلك بإبراز الروايات الضعيفة وإذاعتها ، أو اختيار مواقف معينة أو شخصيات ذات طابع خاص لدراسة التاريخ العربي الإسلامي من خلالها أو إتخاذها نموذجاً له .

وقد اعتمد النرييون من المستشرقين في هذا على كتابات قديمة ومؤلفات كتبها من قبل قداماء الشعوبيين في حملتهم الضارية على العربية والإسلام وكانت قد قبلت برودود علمية ومسنده من كتاب ومفكرين لهم خطرهم ومكانهم شارك فيها الجاحظ وأبو حيان التوحيدي وغيرهم .

ومن مقدمة ما اعتمد عليه دعاة التغريب في محاولة تصوير تاريخنا العربي الإسلامي تلك الكتب التي لم تؤلف للتاريخ والتي تناولت الشعراء والقصاصين ومجالس الشراب والقهو ، وفي مقدمتها « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني وألف ليلة وربعيات الخيام وتراجم السهروردي وابن عربي وابن الراوندي وما نسب إلى المعري وأبو نواس وبشار ابن برد والضحاك ومن خلال هذه النصوص حاول بعضهم تصوير العصر بصورة الشك والمجون على النحو الذي نقله طه حسين في كتابه حديث الأربعاء .

وفي الجانب الآخر وجه الهجوم العنيف إلى كل من كان ذا فضل أو عبقرية في التاريخ العربي الإسلامي كالمثني الذي وصف بأنه من غير آب ، وابن الرومي الذي وصفت عقليته بأنها فارسية والمعري الذي نسبت رسالته الففران إلى الرهبان أو ابن خلدون الذي وصف بأنه تلميذ اليونان .

هذا فضلاً عما أضيف إلى تاريخنا العربي الإسلامي من إسرائليات وأقاصيص وأكاذيب فقد كتب أغلبه في ظل الدولة العباسية التي كانت فارسية النزعة ذات سيطرة على فكرها وكتابتها ، وكانت تحمل البغض للامويين وللعرب ، وقد غلب الشعوبيون على كتاباتها ولفقوا الأحداث والأقاصيص ، وكثير من الكتاب والمؤرخين قد اتصلوا بالأمراء والملوك والولاء والخلفاء ، وكان بعضهم في ظل هذا المذهب أو ذاك من مذاهب الفسك التي كانت في حقيقتها أحزاب سياسية كالأنوية والبابكية والخزمية وغلاة الشيعة واتباع الشعوبية وقد كان أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني من أقذغ الناس لساناً بخشاش الأمراء ويرد موائدهم بملابسه القذرة ورأى حقته الفتنه فلا يستطيعون رده أو مخاصمته خوفاً من لسانه وقلمه ، وكان إلى ذلك شعوبياً ومتهماً في عرضه وخلته وعقله ، ومع ذلك يصبح كتابه الأغاني مرجعاً يحرص المستشرقون واتباعهم على أن يكون مصدراً تاريخياً من مصادر الحكم على القرن الثاني والثالث فيوصف بأنه عصر فسق ومجون ، ويتخذ من ثلاثة أو أربعة من الشعراء الزنادقة المنحليين رمزاً للعصر كله ، دون أن تصاف إلى ذلك حلقات العلم أو دراسات أهل الفضل وحفظه القرآن والحديث والشرعية وهم الذين هم يمثلون القطاع الأكبر من المجتمع .

وقد قدم كتاب الأغاني للملوك متعة » وكتب أساساً ليكون عامل ترف للامراء ، ولا شك أن بروز الدعوة في فكرنا العربي الحديث إلى إعادة ما سطره الشعوبيين من اتهامات ومغالطات للتاريخ الإسلامى إنما برز في ظل هدف كبير من أهداف التغريب والغزو الثقافى وحمل لوائه دعاة وجهوا لهذا العمل .

وانخذت لهم حركة التغريب مذاهب في الفكر الغربى تهاجم التاريخ عموماً ولا تعترف به ، وتستمد مفاهيمها لمهاجمته من مذهبها في النظرة المادية الدارونية والتفسير المادى للتاريخ وهى ليست إلا نظرية من نظريات عدة يضطرم بها الفكر العربى في عداة التاريخ وخصومته أو الإيمان به وتقدير مكانة ، ولكن دعوة التغريب تلمس دائماً هذا الجانب وتقرض أن هذا هو الرأى ، وكذلك فعلت حين هاجم فكرنا العربى الإسلامى بعض كتاب الغرب ، ثم أولاه التقدير عدد آخر من كتاب الغرب ، ومع ذلك فقد أذيت نظريات خصوم فكرنا ووسع نطاقها واحتفل بأحد دعاة « رينان » في الجامعة المصرية في القاهرة ، بينما نظر في إغضاء إلى الدين انصفوا فكرنا وتاريخنا .

* * *

ونظرية التغريب إلى التاريخ العربى الإسلامى تحاول أن تشكك في التاريخ وتحوطه بعوامل التهوين ونحن لندعو إلى تقديس التاريخ أو وضعه فوق النقد وإنما ندعو إلى النظر المنصف الذى لا يحمل في أعماقه الحقد أو الخصومة .

ولذلك فإننا نقبل نقد التاريخ العربى الإسلامى وإعادة كتابته وتصفيته من كل ما علق به من زيوف ولكن ليس بأيدي دعاة التغريب وإنما بأيدي المنصفين » وهنا يبرز علم الجرح والتعديل في معرفة الرجال الذين يتصلون بهذه الأعمال الخطيرة البعيدة المدى في إرساء مقومات فكرنا العربى الإسلامى ، فإننا في أساس النظرة المنهجية تؤمن بالتحقيق العلمى الذى يجعل من أول مفاهيمه وأكبر مقوماته « الرجل » الباحث ومدى إيمانه بأمته وفكرها فإذا كان من دعاة التغريب أو في تاريخه ما يشوب فإن كل ما يقوله في تاريخنا يحمل على محمل الاتهام والجري في ظل حركات الشعوبية والتغريب .

ومن هنا كانت دعوة بعض دعاة التغريب إلى النقد التاريخي تتصل أول ما تتصل بالكتاب الذين يحملون لواءها ، وإذا كان أُمّاي كاتبين أحدهما مؤمن بالفكر العربي الإسلامي صادق في نظريته ، لم يتأثر دعوى التغريب والشعوبية وآخر عرف بماضيه في متابعة مفكرى الغرب والدعوة إلى القضاء على مقومات فكرنا في الدين أو اللغة أو التاريخ فعليّنا أن نقبل من الأول ونرد الثاني .

ويقرر دعاة مذهب التغريب في النظر إلى التاريخ العربي الإسلامي أن مذهب تقديس السلف وتزييه عن الصفائر « ومذهب أسباغ الدين على طور من أطوار التاريخ خطأ ويرون أن الأمم في بعض ظروف ضعفها تحاول وهي بسبيل استرداد مجدها القديم أن تكبر من تاريخها وماضيهما وتجل أحبابه وتتخذهم مثلاً علياً . وعندنا أن هذا ليس عيباً وأن مراحل الضرورة تحتاج فعلاً إلى إستغلال التاريخ كقوة دافعة دون أن يكون ذلك على حساب حقائق التاريخ نفسها أو تحريفها .

ولسكن دعاة التغريب الذين يعرفون ذلك لا يتوقفون عن الإسراع في ضرب هذا الهدف من أهداف الأمم التي تحاول أن تتخذ من تاريخها وأجسادها قوة لليقظة والحركة ومقاومة الفاسد . وإذا هم يسرعون فيوجهون الضربات لهؤلاء الكتاب من ناحية « ويقدمون صوراً لها قوة الذبوع والانتشار تحمل صورة التدمير للعصور الزاهرة والبطولات والمواقف الحاسمة .

وهذا ما حدث بالفعل ، فإننا في الثلاثينات حاولنا أن نجعل من تاريخنا العربي الإسلامي وسيلة لدفع الأمة العربية والعالم الإسلامي إلى اتخاذ بطولات تاريخه سبيلاً لمقاومة الغزو ولاستعادة الثقة في أمتنا وقيمنا ومقدرتنا ، بعد أن حاول النفوذ الفكري الغربي المجدد في التغريب أمهائنا بأننا لم نسكن إلا أئماً تحتاجها الدول من فرس وروم وعرب - أي والله والعرب اعتبرهم التغريب غزاه - .

هنا قام أمثال الدكتور طه حسين فحاول أن يصور العصر الثاني والثالث للهجرة على أنه عصر شك ومجرب : فإذا قام من يعارضه كاللورخ الإسلامي رفيق العظم هاجمه في عنف « وقال له أن التاريخ منفصل عن الوطنية ومنفصل عن الدين . وأن محاولة تقديسه

محاولة مضللة وأنه لا بد من النظر إلى التاريخ نظرة مجردة ، تشيع فيها الشكوك والانتهاكات .

والواقع أن الأمم في علاقتها بالتاريخ تمر بمرحلتين (١) الضرورة والبناء وفيها يصبح التاريخ وسيلة فعالة وسلاحاً هاماً ، وهذه هي مرحلة الضرورة التي تقاوم بها الأمة الغزو الفكري والتغريب والشعبوية ونحن في العالم الإسلامي والعربي نمر الآن بهذه المرحلة .

(١) مرحلة الاستقرار : وهذه يعاد خلالها النظر في التاريخ فيصنف من كل عوامل الخطأ والزييف على النحو الذي يخلق منه تاريخاً علمياً .

ولذلك فإن دعوة الأمم إلى طعن تاريخها وتمزيقه وتعميقه وإثارة الشبهات حوله في ظل معركة البناء ومرحلة الضرورة ، لا شك أنه عمل من أعمال الشعبوية ، ونحن في هذا أيضاً لا نأخذ نظرية من عشرات النظريات في الفكر الغربي لتسكون قاعدة نحكم على أساسها أو نفرض علينا ، دون تقدير لعدة عوامل ؛ أهمها : أن مقومات الفكر العربي الإسلامي تقوم على أساس امتزاج عناصر اللغة والدين والتاريخ والتراث ولا يمكن فصل عنصر منها فالدين مرتبط باللغة ، والتاريخ مرتبط بالدين وكذلك شأن الثقافة والتراث وهذا الفصل عمل وهي إذ لا يمكن فعلاً فصل القيم المشابكة المترجمة أساساً .

ومن هنا حمل طه حسين على أحمد زكي (باشا) في دعوته إلى إحياء أجداد العرب ، وحمل لواء تأكيد فرية حرق العرب لمكتبة الاسكندرية ، وعندما تحول الدكتور هيكل عن هذه المفاهيم ودعا إلى إحياء الفكر العربي الإسلامي كوسيلة من وسائل النهضة وأعترف بأنه حاول أن يوقف مصر والعالم العربي عن طريق الفكر الغربي ثم عن طريق الدعوة الفرعونية فشل في كليهما ولم يجد سبيلاً لليقظة إلا عن طريق الفكر العربي الإسلامي ، عندما فعل هيكل هذا هاجمه طه حسين بمنصف وأتهمه بقصر النظر^(١) .

* * *

ولقد كانت حملة دعاء التغريب على « تقديس التاريخ » لا تهدف إلى تنقية التاريخ

وإنما التشكيك فيه ، وعلى أساس قانون الجرح والتعديل لا يدخل هؤلاء الدعاة في نطاق الموثوق بهم ، فقد كانت مؤلفاتهم كلها وكتاباتهم تنصب على اتهام الفكر العربي الإسلامي وانتقاصه . ففي « الشمر الجاهلي » سخر من القرآن والتوراة ، وأعلن شكوكه في كثير من حقائق الإسلام والكتب المقدسة . وفي « حديث الأرباء » حاول أن يصور العصر الثاني الهجري بأنه عصر شك ومجون ، وفي « هامش السيرة » حاول تغليب الأساطير على أصول السيرة ، وفي « مستقبل الثقافة » دعا إلى الارتقاء في احضان الغرب والأخذ بمذاهبه في الحياة والفكر « ما يحب منها وما يكره » وما يحمد منها وما يعاب « فالكتاب الذي يحطم أيدى أمته حين تتمسك بتاريخها لتقاوم به الغزو الفكرى الغربى والنفوذ الإستعماري فيتم تاريخها ويعلم ان التاريخ يجب أن ينظر فيه على أساس الشك والنقد واعتبار أبطاله أناس عاديون يجري عليهم ما يجري على الناس ، هذا الكتاب لا يستطيع أن ينال ثقة أمته ولا يأخذ في فكرها مكانا عليا .

* * *

وقد هاجم رفيق العظم فكرة اعتماد الدكتور طه على أخبار القصاص في تصوير العصر الثانى والثالث للهجرة بأنه عصر شك ومجون ، حين أشار إلى أن مثل هذه من كتب القصاص وضعت في ظرف اراد به الخلفاء صرف الناس عن أخبار الخلافة والسياسة . ومثل ألف ليلة وليلة وقصة عنتره العبسى وواضعها مجهول وأخبار الفتوحات . وقد تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كإخبار العشاق والشعراء والبغلاء والسكرام وغير ذلك فكان منها الفث والثنين ومنها الملتقى والقريب من الصحة — وقد غالى بعض الأخباريين في إيراد أخبار المجون والهتك والانتماس في الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالنقل والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من كل معنى الأدب ، ولا أظنني مخطئا إذا قلت أن ما هزل من هذا القبيل عن أبى نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر — وهو ما اعتمد عليه طه حسين — إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون (م — ١٣ الفكر العربى المعاصر)

وأما لسندهم العامة إلى تلك القصص المخزية والروايات الملفقة . والذي جوز الشك في قصة ابن عبدوس يجوز الشك في صحة أكثر القصص والروايات التي نقلت عن أبي نواس وغيره من شعراء المجون وثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية فلا يصح أن تتخذ مثالا صادقا لتلك العصر (١) . .

ولقد حفلت الأبحاث التي كتبها المستشرقون والمبشرون ومن لف لفهم من كتاب الغرب بآتهامات وإثارات للتاريخ الإسلامي والعربي تتعلق بشخصية النبي ومعاركه وحياته الاجتماعية وتتصل بمختلف أعلام التاريخ العربي الإسلامي ، وقد قامت هذه الكتابات المتعصبة على أساس من اتجاه كتابها ومفاهيمهم ، وقد أصبح هؤلاء معروفون في مجال الفكر العربي الإسلامي .

ولا يخف من غلوهم إلا أننا نجد هناك من كتبوا عن التاريخ العربي بانصاف وتقدير . ومقطع الرأى في هذا هو أن الدول الإستعمارية ذات النفوذ السياسى أو الدينى تحاول أن تجد من كبار الكتاب في الغرب دعاة لها وأدوات لغزوها الفكرى ففتح لهمؤلاء رحلات قصيرة إلى الشرق ، تكون وسيلة لكتابات مضطربة غامضة فيها حملات تنسم بالفصور عن الفهم والدرس ، لأنها لم تمكن كتابها من تحقيق فكرى أو بحث علمى . وفى هذا يقول مستر جب فى كتابه (المحمدية) أن مؤلفات المبشرين عن الإسلام والعرب تصدر عن أولئك الذين يحكم تفكيرهم الاعتقاد بأن الإسلام دين منحط وأن بعضهم جرى بقدم فى تفهم الإسلام ، ومع ذلك فلا تزال الأحكام السابقة والآراء الغرضة تلازم موقفهم من الإسلام . وفى الناحية الأخرى يبرز كتاب منصفون لا يتصلون بالنفوذ الإستعمارى وأدواته ، فيكتبون بناء على دراسة أو بحث عميق ومن هؤلاء جوستاف لويون واميل درمنجم وتوينبى وغيرهم (٢) .

* * *

ولسنا هنا فى سبيل إحصاء الاتهامات والأخطاء أو الشبهات والشكوك التى واجه

(١) اقرأ المعركة بكاملها فى كتابنا (المارك الأدبية) .

(٢) انظر كتابنا « الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى » .

بها كتاب غربيون - واتباعهم من دعاة التغريب والشموعية - التاريخ العربى الإسلامى وذلك له مكانه فى دراسة متخصصة، غير أنه يمكن رد هذه الاتهامات والشبهات إلى عدة عوامل:

- (١) القصور فى الدراسة أو الاعتماد على مراجع شعوية أو تغريبية .
 - (٢) التيجيز لوزارات المستعمرات والخارجية فى الدول الإستعمارية .
 - (٣) الموالاة لدعوات الغزو الفكرى المنطوية خلف اليهودية العالمية أو الشيوعية أو الشموعية والتغريب .
 - (٤) محاولة خدمة نفوذ الأديان أو الكنائس الغربية .
- والمعروف أن هذه الجهات جميعها ترصد مبالغ ضخمة فى ميزانياتها كل عام لعمليات التبشير فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى وخاصة (أواسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا) وأنها قد خدعت كثيراً من الكتاب فى العالم العربى لكتابة أبحاث لها طابع معين ، هذا فضلاً عن دعائها واتباعها المنبئين فى كل مكان ، وما يصدر باسمهم من صحف زاهرة « أو مؤلفات أنيقة .

واجه الفكر الغربى قضية كتابة التاريخ وتقييمه على أنماط مختلفة ، وفى ظل نظريات متعددة ، كان مصدرها ، العصور والدعوات والتيارات . وكانت هذه النظريات فى الأغلب مرتبطة بدعوة أو مذهب ، كانت للفلاسفة نظرتهم إلى التاريخ « وهى نظرة تهدف إلى الإقلال من قدرة وقد بلغت فى المغالاة إلى درجة إسقاطه نهائياً ، وعدم الاعتماد عليه ، فديكارى . أبى الفلاسفة الحديثة يدعو إلى صرف النظر عن كل ما قاله السابقون ، بينما لبيتز ينظر إلى التاريخ نظرة التقدير كما أن علماء الاجتماع لهم نظرتهم وكذلك علماء النفس والتربية .

وهناك النظرة الماركسية إلى التاريخ القائمة على التفسير المادى للتاريخ « حيث يرى كارل ماركس أن العوامل الاقتصادية هى العامل الأول والمباشر لكل حوادث التاريخ ، وأن الانقلابات والاستعمار والثورات ترجع إلى أسباب اقتصادية .

كما جرى الخلاف حول التاريخ ، وهل هو علم أم لا ؟ وقالوا إن العلم وحده هو عرض نصوص الأحداث وتحقيقتها ، أما الفن فهو إضافة رأى المؤرخ « وتحليله لكل موقف من المواقف أو حادث من الحوادث .

وهناك نظرية تقول أن التاريخ سلسلة من سير العظماء ، وأن التاريخ من صنع الصفوة الصالحة من الذين يؤلفون زعامة جماعية مستمدة من تفوؤهم الشخصى « ونظرية أخرى تقول أن العظماء نماذج كاملة للبيئة التى يعيشون فيها وأن الإنسان خاضع لحيطة .

وجرى الخلاف حول علمية التاريخ أو توجيهه « فقد أيد البعض الرأى القائل بأنه لابد من النظر إلى التاريخ نظرة علمية صارمة ، دون النظر إلى ما ينجم عن ذلك من أثر فى النفس من قدر التاريخ « ورأى البعض الآخر أن التاريخ ضرورى لبناء الشباب .

وجرى الخلاف حول قومية التاريخ أو دوليته ، وقالوا إن قومية التاريخ قد وصلت فى أوروبا إلى حد بث الأحقاد ، وأن النظرة الدولية تعتبر العالم كله أمة واحدة « وبذلك تتحقق

المواطف القومية وتضحى البطولات الخاصة في سبيل النظرة الواسعة » وجرى الخلاف حول كتابة التاريخ » فحمل البعض على المؤرخين واتهموهم بالنظرة الشخصية » وأنهم يلونون التاريخ وفق مزاجهم الشخصي . ودعا البعض إلى التفسير البيولوجي للتاريخ وقال أنه وحده التفسير الأصيل ، وقال مثل ذلك أصحاب التفسير المادى وهناك من يدعو إلى التفسير الدينى والمناخى .

وهاجم كثيرون التاريخ جملة ، وقالوا أنه أشد فتكاً بالأمم من الأوبئة مثل بول فاليرى ؛ ويرى فرويد أن التاريخ سلسلة أزمات في نفوس أفراد أدت إلى الإقلابات الهائلة .

* * *

أما « التاريخ العربى الإسلامى » فقد واجه رأيين مختلفين : الأول ، وهو الذى حمل نوائه الدكتور طه حسين — معتمداً على نظرية أستاذه دوركايم — منذ الثلاثينات وما زال خلفاءه يحملون لواء دعوته . ويرى أصحاب هذا رأى أن التاريخ لا يقدر ولا تسبغ عليه صفة الجلال » ولا يتصل بالدين ، وليس أبطال التاريخ العربى الإسلامى إلا أناساً ينطبق عليهم ما ينطبق على الناس .

وترى هذه المدرسة أن الاتجاه القوى فى كتابة التاريخ خطأ ، وأنه دعوة إقليمية ، وفيه تمجيد لماضى وخضوع له ، لأنه يريد إحياء الأنجاد وأنه يرى الماضى القوى لب التاريخ ، وبذلك يتأرجح أسلوبه بين النقد والتصديق .

وترى هذه المدرسة أن يتخذ التاريخ وجهة إنسانية ، دون اهتمام بالأمة العربية أو العالم الإسلامى » وأن التاريخ وسيلة للنظرة الشاملة إلى البشرية وتطورها ، وأن اتجاهه إلى الاهتمامات القومية ينقص من روح البحث العلمى ويجعله أشبه بالدعاية .

وترفض هذه المدرسة النظرة التقليدية » التى توصف بالتقبل الإلهى وتدعو إلى معاملة

الدين الإسلامى كظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الإجتماعية ، ولذلك فإن الجانب الإلهى يجب أن يوضع موضع البحث الواقى ، كما تبحث أى حقيقة إجتماعية أو فكرية^(١) .

وعندهم أن الدراسات التاريخية لا تزال خاضعة لتأثير المؤرخين العرب القدماء ، سائرة على منهجهم فى طريقة البحث والمعالجة والتفكير ، ويرى دعاة هذه النظرة أن المؤرخ الحديث لا يزال يسرد التاريخ العربى سرداً ، يظهر أمجاداً بألوان ساطعة قافزاً الفترات المضطربة فيه ، وهو ما يسمى بالرومانتيكية الإسلامية ، أو أن يعرضه عرضاً متسرعا سطوحيا وأن الدراسات الجديدة فى التاريخ أقرب إلى السطحية ، وأنها تستثير حماسة الشباب وتبعث فى نفوسهم الغرور .

وتحمل هذه المدرسة الدعوة إلى نقد التاريخ والكشف عن أخطائه ، وإزالة طابع القداسة عنه . وتلك دعوة علمية أصيلة لا ترفضها ، بل ترحب بها ونعز ، ولكننا لا نسلم بها إلا لمن ينطبق عليهم قانون الجرح والتعديل ، فإذا ما قام كاتب أو جماعة للتصديق لهذا العمل فلا بد أن تتوفر فيهم روح الإيمان بمقومات الفكر العربى الإسلامى وأن لا يكون من بينهم من أسقطهم تاريخهم الفسرى ، بحكم أنهم من دعاة التغريب أو الشعوبية .

ولكننا نرى ما ارتأيناه من أن تاريخنا العربى الإسلامى يحمل صفحات مشرفة ، وأن ما به من أخطاء أو ثغرات لا تنقص من قدره ، ولا تضعف مكانته ، ولا تصرف العرب والمسلمين عنه ، وهو قادر إذا قدم بإنصاف أن يعزز دعوة بناء الأمة العربية والوحدة الفكرية والدعوة الإنسانية .

* * *

أما المدرسة الثانية فهى لا تدعو إلى تقديس التاريخ ، ولكنها تدعو إلى اعتباره قوة ذات فاعلية فى بناء الفكر العربى الإسلامى الحديث ، وخلق نهضة ثقافية وروحية تعين على وحدة الفكر فى الأمة العربية والعالم الإسلامى .

(١) قسطنطين زريق ونبیه أمين فارس .

وترى هذه المدرسة أنه لا تمارض بين الروح القومية والأسلوب العلمى فى دراسة التاريخ ، وأنه فى الإمكان أن يكون التاريخ حافظاً للهمم دون أن يكون عبثاً يضيّق النظرة ، ويصرفها عن مهام الحاضر .

وعند هذه المدرسة أنه اليوم فى مجال التحدى ورد الفعل — حيث تقوم الدعوات التغريبية والشعوبية محاولة تجريد التاريخ العربى الإسلامى من كل أجمادة وبطولاته ، فإن الأمر يتطلب إبراز هذه الجوانب والاعتزاز بها ، على أن يكون هذا الاعتزاز بعيداً عن الإغراق ، وأن هذا التاريخ فى جوهره إنما يمثل حركة ضخمة شملت جانباً واسعاً من هذا العالم الإنسانى إمتد من الصين إلى الأندلس ، فى مرحلة طويلة امتدت أربعة عشر قرناً ، وكان لها أثرها فى الفكر الإنسانى والحضارة البشرية ، فضلاً عن مفاهيمها وقيمها ومثلها الجديدة القائمة على الحق والعدل ، والتي تمثل أمة لها رسالة حية ما زال متفاعلة مع الفكر الإنسانى ، وقد كان دور « العالم العربى الإسلامى » بناءً ، وكانت حركته متطورة متحررة فى سلسلة متصلة الحلقات .

وتعتبر هذه المدرسة أنه من الضرورى اليوم فى مرحلة بناء النهضة الجديدة للعالم العربى الإسلامى موالاة التاريخ اهتماماً كبيراً حيث لا سبيل لانطلاق أمة دون فهم واع لتاريخها وأنه لا حاضر لأمة لا ماضى لها .

ويرى الدكتور عبد العزيز الدروى أن فهم الأمة لذاتها ومجابتها المضائل القائمة والاستعداد للمستقبل الذى تنشده لنفسها ، يعتمد إلى حد كبير على فهمها لتاريخها فهماً صحيحاً ، وأنه لا يمكن لأمة أن تجد سبيلاً للانطلاق ، وعونا على النهضة الصحيحة دون فهم واع سليم لتاريخها .

* * *

ومن رأينا أن كون التاريخ عاملاً فى مرحلة بناء الأمم على بث الروح الوطنية فى الشعوب دافعاً إلى الثقة بالنفس على استئناف دورها فى الحضارة لا يحول دون تنقية هذا التاريخ من كل ما يعترض النظرة العلمية السليمة ، وأن ما فى التاريخ العربى الإسلامى من جوانب ذاخرة بالبطولة والكرامة والسباحة قادر إذا حررت حواشيه من كل ما يتعارض مع

الروح العلمية التي بذرت الفكر العربي الإسلامى أساساً وحمل أمانتها — على أن يحقق هدف بناء فكر الأمة .

إنما الذى يحاط دائماً بالخدر أن تجرى المحاولات للتشكيك فى الحقائق الثانية أو محاولة تصوير بعض الجوانب على نحو يث فى النفس الهزيمة أو الغضب من القيم الأساسية أو أن يجرى دراسة التاريخ العربى الإسلامى لخدمة مذهب من مذاهب السياسة أو الفكر والاقتصاد .

فلا بد أن يكون هناك قدر واضح من الاعتراف بتكافة التاريخ فى فكرنا العربى الإسلامى ودوره ومهمته وأثره فى هذه المرحلة الدقيقة ، وإن يصحب القدرة فى مجال التحقيق التاريخى إيمان صادق بفكر هذه الأمانة وتشرب كامل لروحها ، وتحرر كامل من الخضوع لتيارات التغريب والشعوبية والنزوة الثقافى .

ومن هنا لا ينفصل النظر إلى التاريخ عن النظرة إلى الأمة ومقوماتها ولا على الفكر العربى الإسلامى ككل ، فلا يخضع التاريخ لمذهب ما ولا يكون التحقيق العلمى عاملاً من عوامل تجريده من روحه . ولا شك أن صدق النظرة سيحول دون استغلال الشكوك أو الخصومات أو مثالب بعض الشخصيات لخلق روح الاستهانة أو الغضب مما يحمل التاريخ العربى الإسلامى من بطولات وإيجابية وتقدم .

وليس يستطاع أن يقال أن تاريخ أمة من الأمم قد خلا من مثل هذه الشكوك أو الخصومات أو المثالب وتحرر منها ، فالإنسان هو الإنسان إزاء الملك والحكم وليست العبرة بالأحداث العابرة توضع موضع الاهتمام لتبدو ذات أثر أكبر من واقعها بينما تترك الظواهر الكبرى فى حياة الأمة دون التركيز عليها .

فالتاريخ علم وفن وتوجيه ، ولا يمكن تحريره من هوى الكاتب الذى لا بد أن يكون صادق الإيمان بفكره واميته أساساً وإذا كان من الضرورى بناء إيمان الأمة بماضيها بما يدفعها إلى العمل ، فإنه من الضرورى أيضاً دراسة الأحداث وانتقادها لاستخلاص العبرة منها فى زاهة كاملة .

ومن هنا لابد من تأكيد الرابطة بين التربية والتاريخ والملاقة الوثيقة بينهما ، فالجانب الإيجابي المضي منه يعطى قوة الدفع ، والأحداث التي يتصل فيها الخير والشر تدرس بروح علمية وانصاف لتعطى العبرة لا لتمثل التشهير .

ومن هنا يكون وضوح الموقف من مسائل متعددة تحاول التغريب والشعوبية أن تأثيرها . ومن هنا يكون صدق النظرة إلى ما يثار من أن فلانا التركي الأصل أو الفارسي ، في محاولة لتشويه مكان العرب أو النض من قديم ، ولأشك أن النظرة الحقيقية هي أن البيئة هي التي تخلق العطاء والأعلام وليس الجنس ، فإن الفكر العربي الإسلامي هو الذي خلق الفارابي والغزالي وابن رشد وليست التركية أو الفارسية أو غيرها ، إذ الواقع أن الإنسان ابن بيئته ومجتمعه واللغة التي يتعلم بها ، وأن العربية اللسان فن تكلم العربي فهو عربي . وليس بين الاسلام والعربية صراع ولكنهما شقين لحقيقة واحدة ، وقد حاول التغريب وحاولت الشعوبية أن تمزق وحدة الامتراج بين مقومات الفكر العربي الاسلامي من أجل النض من شأن هذا البناء الانساني المتكامل حيث لا تعارض بين حافر التاريخ والأسلوب العلمي . فلا تعارض بين عربية التاريخ واسلاميته .

ونظرتنا أننا لانبجل التاريخ عبثاً ولا نتحرر منه ، ولا نفصل عنه ، وحيث أن التاريخ ذخيرة أجداد وذكريات وسجل بطولات وتخليد معارك وشهداء ، وحضارة وفكر ، فإنه عامل من أكبر العوامل في بناء الأمة النفسى والاجتماعى ، ولا يمنع ذلك كله من دراسة التاريخ وفق روح علمية منصفة ، على أساس أن التاريخ عامل من عوامل وحدة الفكر التي هي العامل الأكبر في بناء شخصية الأمة ووحدةها .

* * *

ومن الجدير بالنظر أن منطق الفكر الغربى في النظرة التاريخيه ليس ملزماً أن نتخذ منهجاً لنا ويمكن الاستئناس به حيث ييسدو منهج التاريخ الاسلامى العربى مختلفا مع منهج التاريخ الغربى وفى هذا يقول مستر جب :

« إن التاريخ الاسلامى سار في وجهة مما كسة للتاريخ الأوروبى على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على أنقاض الامبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط » ولكن

بينهما فرقا أصيلا بينما خرجت أوربا على نحو متدرج لا شعورى وبعد عدة قرون من النهوض الناجم عن غزوات البرابرة ، انبثق الإسلام انبثاقا مفاجئا فى بلاد العرب وأقام بسرعة تسكاد تمز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان امبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطئ البحر الأبيض » .

ولاشك أن هذا الاختلاف يجعل استغلال المذهب العربى فى تفسير التاريخ العربى الإسلامى عمل غير طبيعى ولا منصف . ومن هذا تبدو فلسفة التاريخ العربى الإسلامى على قاعدة تحرير التاريخ العربى الإسلامى من :

(١) عوامل الفخر بالجنس أو ادعاء بطولات والنظر بخذر إلى كتابات المستشرقين وخصوصا الفكر العربى الإسلامى .

(٢) إبراز جانب الجماعات واندفاعاتها القوية فى مجال الحرية والدفاع عن الكرامة .

(٣) وحدة الفكر العربى الإسلامى أساس من أسس النظرة فالعروبة والإسلام شأنان حقيقة واحدة .

(٤) ليس العامل الاقتصادى وحده هو الذى يوجه التاريخ ولكنه عامل لا يمكن إنكاره أو تجاهله بالإضافة إلى العوامل الروحية والسياسية وعوامل المناخ .

(٥) لا نقديس للتاريخ ولا احتقار له .

(٦) نظرنا للتاريخية انسانية متمزج بروح بناء وحدة فكر الأمة ورد طعنات خصومها .

(٧) روح النزاهة والأنصاف والإيمان بمقومات الفكر العربى الإسلامى هى أساس النظرة التاريخية .

(٨) تحرير التاريخ من محاولات التزييف مع اليقظة لمحاولات التحريف »

(٩) ليس التاريخ هو تاريخ العظماء ولا العصور وإنما تاريخ الأمة وبطولاتها ومواقفها .

(١٠) أثر الفرد في البيئة ، وأثر البيئة في الفرد كلاهما يسيران جنباً إلى جنب .

في النظرة التاريخية . فالبطولة والجماعية كلاهما مؤثران في التاريخ .

(١١) النظرة التاريخية شاملة تضم الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية

والعمرانية .

(١٢) التفسير الديني والبيولوجي والمادى جميعها أسس في النظرة إلى التاريخ دون أن

تنفرد واحدة منها .

(١٣) الارتفاع عن النظرة المادية المحضه والروحية المحضه .

اللغة

واجهت اللغة العربية أضخم معارك التفريب والشعوبية ، التي كانت بحق الرباط الأكبر بين العالم العربي من جهة كوحدة قومية وبين الأمة العربية والعالم الإسلامي كوحدة فكر وراث وثقافة . وكانت حدود الحركة هي القضاء على الفصحى وتغليب العامية والكتابة بالحروف اللاتينية ، أو اضعاف الفصحى ، وإزالتها من مكانها بفرض العامية في مجالات ثقافية مختلفة ، وأهمها القصة المسرحية والاذاعية .

وقد واجهت اللغة العربية هذه الحركة الداخلية في نفس الوقت الذي عمل النفوذ الاستعماري الغربي على حصرها في العالم العربي وإزالتها عن مكان الصدارة في العالم الأفريقي والآسيوي ، حتى لاتصبح في ظل مقوماتها وقدرتها لغة عالمية للعالم الإسلامي كله ، باعتبارها أساساً لغة الفكر والثقافة ، فقد حال الاستعمار دون انطلاقتها ، وقد كان لها من قبل جولة الاحتلال الغربي ، مراكز ومعالم أساسية تنبعث منها ، متصلة بالاسلام نفسه في توسعه وانتشاره وقد استطاع النفوذ الاستعماري أن يقاومها ويحل محلها لفته ، فأصبحت اللغة الانجليزية هي اللغة الأولى والسائدة في آسيا واللغة الفرنسية هي اللغة الأولى السائدة في إفريقيا ، وأمكن تغليب اللهجات الإقليمية واللغات المحلية أيضاً لتكون تالية للغات الأجنبية وبذلك انحدرت اللغة العربية إلى الدرجة الثالثة واقتصرت على أن تكون لغة الثقافة في أضيق الحدود .

وفي العالم العربي حرص النفوذ الاستعماري على أن تصبح لفته هي اللغة الأساسية في دراسات المدارس والجامعات ، وأبعدت اللغة العربية عن مناهج الدراسة وبلغ ذلك درجات من القوة والضعف حسبما شاء الاستعمار ، وقد وصل ذلك أقصى درجات العنف في الجزائر حيث ابيدت اللغة العربية كلية ، ولم تعد تمثل الا حلقات صغيرة من المناهج باعتبارها لغة أجنبية « أما اللغة الرسمية الأساسية فهي الفرنسية وفي مختلف أجزاء أفريقيا المحتلة سيطرت

اللغة الفرنسية وأصبحت لغة أساسية هي لغة الدولة ، والتعليم ، وكذلك حدث في الهند والمناطق التي احتلتها بريطانيا في العالم العربي كعصر والعراق وفلسطين والسودان .
وقضية تقرب اللغة العربية ذات تاريخ طويل وجذور ممتدة ، وقد اتخذت أساليب متعددة ، ومحاولات متوالية ، لفرض العامية واللغة المحتلة بالجملة المنظمة عليها وامتثالها وتصويرها بصورة العجز والقصور عن مسايرة الحضارة والعصر ، أو الإستجابة لسكبات المدنية .

وقد أثرت حملات متعددة تهدف إلى المقارنة بينها وبين اللغة اللاتينية استهدفت الدعوة إلى أن تتخذ اللغة العربية نفس الطريق الذي اتخذته اللاتينية ، ويتحدث عدد كبير من مفكرى الغرب من مستشرقين وعلماء عن تطور اللغة العربية فيرون أن مصلحة المتحدثين بها هو في تغليب اللهجة في كل قطر حتى تصبح لغة إقليمية ، كما فعلت أوروبا باللغة اللاتينية حين أوردتها المتحف وأقامت من لهجاتها لغات .

ولطالما ألح هؤلاء الكتاب على هذا المعنى وأكثروا من ترديده وانخدع به بعض كتاب العرب غير مقدرين الفارق الكبير بين اللغتين وتطورها . وإن اللغة العربية هي لغة أمة واحده تحمل ثقافه وفكراً ما يزال حيا متفاعلا لم يتوقف أو يتجمد ، وأن هذه الأمة تمتد من المغرب الأقصى إلى حدود إيران ، وهي في هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والتراث والقيم أوثق ارتباط ، وقد أثمرت هذا «الفكر العربى الإسلامى» الذى تضمه ألوف الكتب والمجلات والمخطوطات المنشورة في مختلف مكتبات العالم ، وإن هذا الفكر الذى هو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا إنما يقوم على « القرآن » الذى هو الرابطة الكبرى وإن في الدعوة إلى تغليب اللهجات الإقليمية من شأنه أن يقضى على هذا التراث الحى كله ، وأن يفرق هذه الأمة وبذلك نضيع تاريخنا متصلا امتد أربع عشر قرناً .

وقد بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضى وأمتدت على أيدي كتاب ومفكرين أجانب ثم حمل لواءها كتاب من بلادنا . وقد تبلورت هذه الحملة في عبارات مستر ولكوكس عام ١٨٩٢ في خطاب ألقاه في نادى الأزبكية بالقاهرة جعل عنوانه «لما لم توجد قوة الإختراع لدى المصريين الآن» وأجاب على هذا السؤال بأب السر في تأخرهم هو « اللغة العربية » وإن المصريين لو اتخذوا لهم لغة « إقليمية » كما فعلت بريطانيا مثلاً لاستطاعوا أن يتفوقوا ويخترعوا .

وتابعه القاضي « ويلبور » عام ١٩٠١ بحمله أخرى دعا فيها إلى ماسماه « لغة القاهرة » وأقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وفي المغرب وجه المستشرق ماسنيون الدعوة عام ١٩٢٩ إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، وقال إن اللغة بذلك تصبح ناشطة قادرة على أن تجارى للزمن ودعا العرب في شمال إفريقيا وفي سوريا - وكنا محتلتين بالقوات الفرنسية - إلى هذا العمل ، وتابعه في الدعوة من بعد (المستشرق م . كولان) حيث دعا إلى العامية في المغرب . ومضى بعض كتابنا الذين كانوا يحملون أمانة الفكر لأوروبا فتابعوا هذه الدعوة « التفريرية » فدعا لطفي السيد وسلامة موسى وعبد العزيز فهمى في مصر والخورى مارون غصن في سوريا وكثير غيرهم إلى العامية والحروف اللاتينية .

* * *

وقد وجدت الفصحى نصراء من أهلها ومن غير أهلها .

فقد أشار مسترجو يدى المستشرق الإيطالى معلقا على حديث كبير من الكبراء له في تقيير أسلوب اللغة القديمة وتبعب الأسلوب الغربى فى كتابه « الحروف اللاتينية » : « أنا على عكس هذا رأى ، أرغب فى أن لا ينسى الكتاب الحاليون العلاقة بالماضى ، لأن فى الماضى مجداً كبيراً ، وهذه اللغة قد لعبت دوراً خطيراً فى التاريخ العالمى » .

أما أرنست ريتان وهو الكاتب الفرنسى الذى لم يكن من نصراء الفكر العربى فإنه يقف من اللغة العربية موقفاً منصفاً . يقول : « إن من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بأدىء بأدىء فبدأت فجأة فى غاية الكمال سلسلة أى سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومنا هذا أى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ولم يمس على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطرب رجال الكنيسة أن يترجموا صلاتهم بالعربية ليفهمها النصارى . ومن أغرب المدهشات أن تبنت تلك اللغة القومية وتوصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمه من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلال الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر ، حتى أنه لم يعرف

لها في كل أطوار حياتها لاطفوله ولا شيخوخه .

ويقول رانكه الفيلسوف الألماني : إن الثقافة الإنسانية تعتمد على لغتين كلاسيكيتين هما العربية واللاتينية . وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية ، فقد نشأت اللغة العربية في الشرق روحا فنية ، ولا يمكن فهم المصنفات الأدبية الفارسية أو التركية بدون العودة إلى الكلمات العربية ، وخاصة أنه وحى القرآن الكريم الذي لا يجارى ، يعد بلا مراة أساس العقيدة الإنسانية والثقافة البشرية .

ويرى الدكتور المستشرق عن الكريم جرمانوس ^(١) إن لغة العربية سنداً هاماً ابقى على روحها وخلودها ، هو « الاسلام » فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة ، على تقيض ماحدث للغات القديمة الماثلة ، كاللاتينية حيث ازوت تماماً بين جذران المابذ وكادت تنقرض .

وقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقتها حديثاً ، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقبست آلافاً من الكلمات العربية وازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء ، ومن هذه اللغات التي تأثرت بها الفارسية والتركية .

والعنصر الثاني الذي أسهم بنصيب ملحوظ في الأبقاء على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تبارى . فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده من ألف عام ، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الاسلام .

ولولا تطور اللغة العربية الدائب لما استطاعت الأجيال الجديدة أن تمي لغة أجدادهم ، المرونة التي تنطوي عليها الضاد لم تنشأ جزافاً وإنما هي نتيجة حتمية لطبيعة اللغة العربية حيث أن ما تتميز به من موسيقية واضح وقابلية للتزاوج مع اللغات الأجنبية جعل منها لغة حية مرنة متطورة .

وقد بز علماء فقه اللغة العرب زملاءهم العلماء الغربيين ذكاء وبراعة ، وأصبح من البديهيات

(١) كتابه الأخير : « بين فكرين » عام ١٩٦٣ . والعبارات ترجمة غالي شكرى

إن مفكرى الاسلام كانوا أساتذة الأوربيين فى القرون الوسطى « فى مبادئ العلوم والطب والفلسفة ، لكن إتساع أفق علماء اللغة العرب لم ينوه إليه كثيراً ، رغم أنهم اكتشفوا منذ ألف سنة قواعد كان يحفلها الغربيون .

وقد استطاع « الجاحظ » أن يكشف فى كتابه « البيان والتبيين » الأسباب الفيزيولوجية للتغيرات السريعة فى الأصوات ، إذ لاحظ أن النطق خاضع لتكوين الفم والحنجرة وضبطهما . ونتيجة ذلك أن الكلمة الواحدة تنطق بطريقة مختلفة حسب اختلاف الشعوب ، كما لاحظ أن ثمة عيوباً طبيعية فى حواس الكلام ، من شأنها أن تؤثر فى النطق وأن اختلاف الأحوال الجوية يؤدى إلى اختلاف فى الكلمات .

وقد استطاع « واصل بن عطاء » مؤسس حركة الميزان « وكان هذا العلامة لا يستطيع نطق حرف الراء لذلك كان يقوم بإبدالها بمردفات خالية منها . كان يقول ملحد بدلاً من كافر والحنطة بدلاً من البر وهكذا ، كما نسب تفخيم الحروف كالتفاف والصاد واللام إلى تشويه فى الفم أو فساد اللغة .

ولست بحاجة إلى الإشارة بمؤلفات الأصمى وسيبويه والسجستانى وغيرهم للتدليل على أن العلماء العرب قد سبقوا الغرب فى هذا المضمار . وفى رأى أن هذه « الطبيعة الذاتية » التى طبعت عليها اللغة العربية جعلتها فى مركز الانفراد والتباين وسط اللغات الأوربية .

ولاشك أن اللغة العربية هى من صميم الدعوة القومية للماصرة فى البلاد العربية « فهى أداة الربط التاريخية بين شعوب هذه المنطقة .

واللغة العربية لغة سامية تمتاز بثلاثية الحروف الصوتية وبكثرة الحروف الساكنة وبإصلاح الحروف المتحركة وتطبيق قواعد النحو على الكتابات العربية يرجع عهدها إلى القرن الثامن الميلادى وقد روجعت تلك القواعد بدقة وعناية مع مراعاة طبيعة اللغة العربية فأصبح من المعتد تعديلها أو تبديلها .

فى خلال أربع عشر قرناً أخذ الكتاب والقراء فى الأقطار الكائنة من صفاء

الهندي شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسي غرباً يتطلعون بأبصارهم إلى ذلك الأدب الخاضع لتلك القواعد التحقيق والأملائية الدقيقة .

* * *

وكما أثرت اللغة العربية في الفارسية والتركية فقد أثرت في اللغات الأوربية وكان أثرها بعيداً في اللغة الأسبانية ، فقد استمرت اللغة العربية ثمانية قرون في الأندلس أقامت حضارة ضخمة ، فكان من الطبيعي أن تؤثر في اللغة الأسبانية والبرتغالية وقد أحصى العلامتان دوزي وأنجلمان مدى ذلك الأثر كتاب سمياه (مفردات الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية ، طبع في ليدن ١٨٦٩) وقد أجرى الأسبانيون عدداً من التصنيفات للغة العربية ومع ذلك فلا يزال ١٧ في المائة من كلماتهم عربياً ، وقد أثرت العربية في اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية وحت اللغة الإنجليزية أكثر من ألف كلمة عربية ، وهناك اليوم ما لا يقل عن ٢٧٠ كلمة من أصل عربي ما تزال تستعمل في اللغة الإنجليزية يومياً . وقد بدأ تسرب الكلمات العربية إلى اللغات الأوربية منذ عام ١١٥٠ .

ويقول الدكتور على مظهر أن من يتتبع الألفاظ العربية التي دخلت على غيرها من اللغات يرى أنها لم تترك لغة من لغات أوروبا الأولى فيها أثر ، ففي الأسبانية والبرتغالية والفرنسية والإنجليزية والغالية القديمة وفي الألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهلندية والاسكندنافية في شمال أوروبا وفي الروسية والبولندية واللغات الصقلية وفي الإيطالية وبعض لهجات فرنسا وإيطاليا . كما أن عثور الباحثين في جهات البلطيق في شمال أوروبا على سكة إسلامية عربية هي من آثار تجار المسلمين العرب الذين وصلوا إلى تلك الأرجاء يوماً من الأيام^(١) .

ولطالما كتبت أبحاث عن اللغة العربية ومفاصلها مع اللغات المختلفة في كثير من المانء وقد ألف (الياس انطون الياس) كتاباً باللغة الأسبانية ذكر فيه الكلمات التي من أصل عربي ، قال فيه « أدنى بي البحث إلى الحكم بأن « العربية » هي أقدم لغة حية » وقد أرجع كثيراً من الكلمات الإنجليزية واللاتينية واليونانية وغيرها إلى أصلها العربي وقد ضم معجم

(١) مجلة للرفة — مايو ١٩٣٣ .

وبسرّ الأنجليزى الذى صدر عام ١٩٣٥ بمراجعة الدكتور فيليب حتى (٦٠٠ ألف كلة) مأخوذة من اللغة العربية منها ٥٠٠ كلة من الألفاظ المستعملة فى الكتابة والأحداث العادية والنصف الآخر فى الشؤون الفنية . وقد أكل هذا البحث معجم (دوزى) ومعجم فيشر الكبير ، وقد أشار الدكتور لويجي رينا لى الايطالى إلى أن اللغة العربية تركت أثراً كبيراً فى اللغتين الصقلية والإيطالية ، وإنه لا يزال الجزء الأكبر من الكلمات العربية الباقية تفوق الحصر ، وميزة هذه اللغة أنها دخلت بطريق المدنية لا بطريق الاستعمار .

* * *

وهنا يبدو الفارق البعيد بين اللغة العربية كلمة حية وبين اللغة اللاتينية التى اضطرت إلى أن تحتق ، وجملة رأى فى ذلك أن اللغة اللاتينية ماتت كلفة للشعب يموت الدولة وبقيت كلفة للكنيسة والعلماء ، أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تشكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ولم تكن اللاتينية لغته الأصلية وإنما كانت أخرى كالساليه والسكونية والجرمانية الهندية امتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات إلا بحدى الزمن وتنوع الكتبه وفتح المدارس وتأليف الكتب ، وهذا هو رأى الأب انطون صالحانى اليسوعى^(١) .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن اللغة اللاتينية لم تكن لغة الغرب كله ، وهى لم تستطع التغلب على « اليونانية » لأن اللغة اليونانية ارتبطت بحضارة أرقى من حضارة الرومان ، فلما انشطرت الامبراطورية إلى شطرين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية الغربية ، كانت اليونانية فى الشرق واللاتينية فى الغرب ،
هذا فضلاً عن أن اللغة اللاتينية كانت لغة ارستقراطية لا يمارسها ولا يحسنها الا النخبة الممتازة ولم تتغلغل فى طبقات العوام^(٢) .

* * *

ولست فى مجال الاقاضة فى تصوير أثر اللغة العربية فى ثلاث خطوط متوازية :

(١) مجلة المشرق م ٢٣ (شباط ١٩٢٥) .

(٢) سالم المصرى (آراء فى اللغة والأدب) .

الأول : هو تراجع اللغات السريانية والقبطية والبربرية واللاتينية والارامية .

الثاني : التأثير الضخم في اللغات الحية الفارسية ووالأردية والتركية والسواحلية فقد اتخذت معظم هذه اللغات الحروف الأبجدية العربية حروفا لها واستعارت كثيراً من عباراتها وجمها . وأن ثلاثة أرباع الكلمات في اللغة الهندوستانية مأخوذة من اللغة العربية . وقد أخذت لغة شبه جزيرة الملايو الحروف الأبجدية العربية واستعارت لغات السودان الجنوبي كثيراً من كلمات اللغة العربية . وقد أشار المستشرق برون إلى أثر اللغة العربية في اللغة الفارسية بقوله : انه من الصعب أن تكتب لغة فارسية خالية من اللغة العربية كما عن الصعب أن تكتب لغة إنجليزية خالية من اللغة الإغريقية واللاتينية .

الثالث : أثر اللغة العربية في اللغات الفرنسية والإنجليزية والأسبانية والبرتغالية ؛ ففي اللغتين الأسبانية والبرتغالية عدد كبير من الألفاظ والاصطلاحات وكذلك الألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية في شمال أوروبا وفي الروسية والبولندية واللغات الصقلية الأخرى وفي الإيطالية وفي لهجاتها كلهجة مدينة نابولي . وقد أشار سيد بليو إلى أن الكلمات العربية التي دخلت اللغة الفرنسية أكثر مما دخل منها في اللغة اللاتينية .

ويقول لويجي رينالدي أن اللغة العربية قد تركت عدداً عظيماً من الكلمات في اللغتين الصقلية والإيطالية . وأن كثيراً من الكلمات الصقلية التي من أصل عربي انتقلت إلى اللغة الإيطالية ، وأن وجود هذه الكلمات في اللغة الإيطالية ليشهد بما كان للمدنية العربية عن نفوذ عظيم في العالم المسيحي .

وتوجد في اللغة الأسبانية وحدها أكثر من ألف وخمسةائة كلمة عربية .

ودخلت اللغة البرتغالية ثلاث آلاف كلمة عربية فضلاً عن أن ربح اللغة الأسبانية مأخوذ من اللغة العربية ، وقد امتد هذا الأثر إلى لغات البرازيل المأخوذة من اللغة البرتغالية .

وقد أحلت الكنائس المسيحية في العالم العربي اللغة العربية محل اللغة القبطية والسريانية وجعلتها لغة الصلوات واعتمد البروتستانت ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية .

ويقول دكتور براون : إننا نجد أن لغات الشعوب التي اعتنقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية تكون من العبارات الفنية المتعلقة بالدين واللغة . ولو أن أحداً أراد أن يكتب بالفارسية بحيث تكون كتابته خلواً من الألفاظ العربية فحسب عليه الأمر ، وقد حاول الأمير جلال مثل هذه المحاولة حين ما ألف كتابه (خسروان نامه) أى كتاب الملوك سنة ١٨٨٠ م ولكنه باء بالفشل ، والشاهنامه نفسها وقد ألفها الفردوسى منذ ألف سنة تقريباً وقصد متعمداً - كما تدلنا على ذلك المقارنة بينها وبين الشعر المعاصر لها - أن يصوغها في أقدم العبارات والأساليب لا يستطيع أن يدعى أنها خالية من الألفاظ العربية كما يظن بعض الناس ممن لا قدرة لهم على التحقيق والتحصيل .

والمسلمون في قارة الهند (الهند وباكستان) يعتبرون اللغة العربية لغتهم الأولى واللغة الأوردية إنما هي مزيج من اللغة العربية واللغة السنسكريتية مع قليل من الفارسية والتركية .

ولا شك أن محاولة الاستعمار والتعريب في وقف نمو اللغة العربية في العالم الاسلامى . إنما كان يهدف أساساً إلى (١) الفصل بين العرب والمسلمين (٢) عزل الإسلام نفسه عن النبو (٣) محاولة خلق ثقافتين عربية وإسلامية ، وذلك بالفصل بين الثقافة العربية الإسلامية الواحدة . التي كان قوامها أساساً القرآن واللغة العربية والفكر الإسلامى .

وقد أشار القس صمويل زويعر منذ أوائل هذا القرن إلى هذه المعركة الصامتة التي كان الاستعمار قد أعد خططها لها ، واستطاع أن يحقق فيها نجاحاً فائق الحد ، حين قال .

« يوجد لسانان لها النصيب الأوفر في ميدان الاستعمار المادى وبحال الدعوة إلى الله وهما الانجليزية والعربى » وهما الآن في مسابقة وعناد لانهاية لهما لفتح القارة السوداء (أفريقيا) مستودع النفوذ والمال « يريد أن يلتهم كل منهم الآخر ، وهما المعضدان للقوتين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشرى ، أعنى النصرانية والإسلام » .

والواقع أنه لم يكن في استطاعة العالم الإسلامى أن يقف في وجه النفوذ البريطانى الذى أوقف اللغة العربية عن النمو والتمدد في المناطق التى فرض عليها سلطانه ، أما في العالم العربى فقد أمكن أن تقاوم اللغة العربية وتدفع عنها سلطان اللغة الأجنبية إلى الحد الذى حاماها من التقلص .

وقد اتسعت الحملة على اللغة العربية في فارس وتركيا وأفريقيا والهند وأمسن عن طريق حملة التفریب أن تغير تركيا حروفها العربية وتستبدل بها حروفا لاتينية ، وجرى في إيران محاولات من أجل احلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية وردت هذه المحاولة ، وفي الهند فرض الاستعمار سلطانه ففجى اللغة العربية وحصرها في المساجد والصلوات وفي أفريقيا فرضت اللغة الانجليزية سلطاتها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن التفریب قد أولى اهتماما كبيرا للدراسة اللهجات وأصولها « وألفت مؤلفات عديدة عن عاميات مصر وتونس وغيرها وأدخلت دراسات اللهجات كبحاث علمية إلى الجامعات وبجامع اللغة .

* * *

وقد أعان انتشار الإسلام على نمو نفوذ اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة والعبادة ، وبالرغم من كل الحملات وعمليات التوقيف ، فإن العربية ما تزال حية قادرة على النمو والتطور والاستجابة للعلوم الحديثة والحضارة وكلا ازدادت دعوة الوحدة العربية قوة زادت نماء ، وكلا اتسع نطاق الترابط والاخاء بين أجزاء العالم الإسلامى أمكن أن تصبح لغة عالمية للعالم الإسلامى أو اسبرانتو الشرق ، وفي الباكستان تتردد الدعوة دائما إلى اتخاذه لغة الدولة « وفي أندونيسيا وإيران تجد الثقافة في اللغة العربية أساسا لا سبيل إلى تجاهله أو تجاهزه .

وإذا كانت اللغة العربية هي اللغة القومية لثمة مليون مسلم من العرب فإنها لغة الفسکر والثقافة والدين لستمائة مليون ونصف مليون مسلم (وهو مقدار المسلمين اليوم) .

وهي لغة جائلة القدر ، لا نقولها من باب الاعتزاز بل نقولها بلسان الباحثين والعلماء ، فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألف وكلمات اللغة الإنجليزية مائة ألف أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة ومعجم لسان العرب يحتوى على ٨٠ ألف مادة (لا كلمة) .
ومواد اللغة العربية تنفرغ إلى كلمات ، فإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم متفرقة بلغ عدد ما يشترك منها نصف مليون كلمة ، وليس في الدنيا لغة اشتقاقية غنية إلى مثل هذا الحد^(١) .

ومن خصائص العربية أن جميع مشتقاتها تقبل التعريف إلا فيما ندر وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين . ولل فعل العربي صيغ متعددة تبلغ الاثنى عشر صيغة ، كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي .

وتمتاز بضروب من النون في مجال الاشتقاق والمجاز والاستعارة والسكناية ، كما تتميز بأنها أضخم اللغات ثروة وأصواتا ومقاطع وحروفا وتعبيرات حتى أنها تفوق اللغة الإنجليزية في عدد الأصوات إذ بها ٢٨ حرفا غير مكررة في حين أن اللغة الإنجليزية بها ٢٦ حرفا ومنها مكرر .

* * *

وإذا كان الاستعمار قد قطع الطريق على نمو اللغة العربية وتوسعها بين مسلمي العالم ، فإن منطق القوة هو الذي فرض اللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية . وقد أشار جاك بيرك إلى تجربة اللغة العربية في الجزائر فقال : « أن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية ، بل اللغة العربية السكلاسيكية الفصحى بالذات فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا ، كيف كان ذلك ؟ لقد كان للمستعمر قوة مادية مدهشة واقتصاديات مدهشة ، ومدنية ، ومع ذلك يلاحظ أن شيخ علماء الجزائر الذي كان يعتبر نفسه رجلا غير سياسي ، وكان يتجنب السياسة ، كان هذا الرجل من أعظم رموز مقاومة الاستعمار ، فإن سحت هذه الدعوى المعنوية الثقافية كانت أقوى العوامل في النهوض الحقيقي بشعب الجزائر » وهذا الشيخ الذي يشير إليه « بيرك » هو العلامة « عبد الحيد بن باديس » .

وبعد : فما تزال اللغة العربية تقاوم عمليات التغريب في داخل الوطن العربي وخارجه ،
وستظل حيه لن تموت حتى تتحقق نبوءة جول فيرن وكان جول فيرن قد كتب في إحدى
قصصه أن سياحا ذهبوا في أجواف الأرض تحت قصر البحر العميق « واخترقوا طبقات
الترى الأرضية حتى وصلوا إلى وسطها ، ولما أرادوا الرجوع إلى وطنهم فسكروا في ترك أثر
يحفظ ذكرهم ويدل عليهم إذا وصل علماء الأجيال المستقبلية إلى مكانهم ، فاتفقوا فيما بينهم
أن ينقشوا على الصخور أسمائهم باللغة العربية « ولما سئل جول فيرن عن سر اختياره
اللغة العربية فقال : إنها لغة المستقبل ولا شك في أن غيرها يموت وتبقى هي حية ..

الأدب

يمثل « الأدب » عصارة التعبير عن النفس الإنسانية العربية في اتصالها بالكون والحياة ، ومن هنا كان له طابعه « الذاتى » الذى يتخلف فيه أدب كل أمة عن الأخرى باختلاف الثقافات والمفاهيم والبيئات والمشاعر ، ثم هو من ناحية أخرى له طابعه « الإنسانى » حيث يصدر عن النفس الإنسانية التى تتشابه في مقوماتها وتكوينها وتأثرها بالكون والحياة .

والأدب العربى على هذا المفهوم تعبير عن النفس الإنسانية العربية التى عاشت في هذه المنطقة من العالم « العربى الإسلامى » والتى كونتها الثقافة والفكر العربيين الإسلاميين ، ومن هنا كان أدبها منذ قبل الإسلام يحمل طابعاً متميزاً ، وقد وضحت ملامح هذه الصورة بعد الإسلام وتممقت واتسعت آفاقها في ظل مفاهيم الفكر العربى الإسلامى الذى كان عصارة الفكر الإنسانى ممثلاً في ثقافات الرومان والهنود والفرس واليونان مرتبطاً بأساس الفكر العربى الإسلامى النابع من السكتب السماوية والأديان المنزلة والتي تبلورت في القرآن والإسلام وحملت طابع التوحيد ، وبناء شخصية الإنسان على قاعدة الامتزاج بين العقل والقلب والروح والعلم والدين والدنيا .

ومن هنا كان للأدب العربى طابعه الواضح الذى اختلف اختلافاً أساسياً عن الأدب اليونانى ، ثم عن الأدب الغربى فيما بعد ، ولقد شهد الباحثون للأدب العربى ومن غير أهله بأصالته وقدرته على تصوير النفس الإنسانية العربية على نحو رفيع ، وأنه رسم صورة واضحة عميقة لشئال الإنسان العربى في حروبه ومعاركه وكرمه وأريحيته وفي شجاعته ومواجهته للأحداث .

ومن هنا عرفت أصالة هذا الأدب في أداء رسالته حتى واجهته أزمة الفكر العربى

الإسلامى التى مر بها فى فترة الضعف والاضطراب (ولاسيما فى فترة القرون الأربعة الأخيرة (١٥١٧ - ١٩١٧) غير أن الفكر العربى الإسلامى قد استيقظ قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ثم تعمقت يقظته حتى أوقت على مظاهر الحياة والحركة بدعوة جمال الدين الأفغانى إلى تحرير الأسلوب وهجر « السجع » والتقليد والزخرف بعد منتصف القرن السابع عشر .

ولم يلبث الأدب العربى أن اتصل بالأدب الغربى اتصالا مضطربا ، لم يقم على أساس الامتصاص أو الاقتباس ، وإنما قام على أساس الغزو ، فإن حركة الترجمة والنقل التى بدأها رفاة الطباطبائى فى أوائل القرن التاسع عشر والتى حققت نتائج باهرة فى خلال ثلاثة عقود حيث استطاعت أن تترجم وتنقل وتسكل أكثر من ألف مجلد من مختلف الفنون والعلوم والآداب لم تلبث أن تحولت تحولا خطيرا مضطربا حينما استطاعت حركة التغريب فى أواخر عصر إسماعيل إلى أن تقذف بطائفة من كتاب الشام الذين هاجروا إلى مصر والذين كانوا يعرفون اللغة الفرنسية إلى تجميع الاتصال الفكرى بين الأدب الغربى والأدب العربى حين نقلت هذه الطبقة أكثر من عشرة آلاف قصة داعرة وماجنة وقذرة من الأدب الفرنسى إلى الأدب العربى ، وبذلك استطاع التغريب أن يهز قوائم الأدب العربى ومقوماته ومفاهيمه على نحو خطير . فقد كانت القصة الغربية المكشوفة هى أبرز هذه الألوان التى ترجمت ، وكانت تشرى فى مختلف الصحف والمجلات ، وكانت تطبع فى كتب وتوزع بقروش قليلة . ومن هنا أمكن أن تصل إلى مختلف الطبقات وأن تؤثر أثارا لا حد لها فى :

١ - الأدب العربى ، فقد أضاف صوراً باللغة الإثارة للجنس والمرأة والعلاقات بين المرأة والرجل على نحو لم يكن طبيعياً أو موجودا فى البيئة العربية ، فضلا عن تعارضه مع أسلوب الأدب العربى فى مواجهة علاقات الحب والعاطفة وروابط المرأة والرجل . حيث تبدو دائما فى صميم الأدب العربى العبارة العفة والإشارة الرمزية والغزل النقى والتسامى بالعاطفة دائما إلى خلقى الفارس بالإضافة إلى طبيعة التضحية والوفاء والإيمان بالالتقاء بين الرجل والمرأة فى حدود الأنظمة والشرائع .

وقد أدخلت هذه القصص على الأدب العربى صوراً غريبة عليه وعلى النفس الإنسانية العربية أساساً ، فإن معظم القضايا والمشاكل التى تعرضها هذه القصص لم تكن موجودة فى بيئتنا وإذا وجدت فإن حلولها فى هذه القصص لا تنسق مع مفاهيمنا وقيمنا فى حلول المشاكل والقضايا فى ضوء الفكر العربى الإسلامى .

٢ - اللغة العربية : واجهت أزمة خطيرة . حيث كانت هذه القصص تترجم بأسلوب عامى ، وعلى نحو يزدري بالفصحى ، ويستعمل كلمات وأساليب وتعايير غاية فى الضمة مما أزل اللذة العربية عن بلاغتها وأسلوبها السهل الممتع .

٣ - كان لهذه القصص أثرها السىء البعيدة المدى فى التربية والأخلاق والفضائل والقيم ، فقد اهترت هذه جميعها تحت تأثير الكشف عن الجوانب المضمرة على نحو صريح ، مع العربية ، مما لم يكن متفقاً مع القيم العربية ، ومن هنا بدت الرزيلة والفاحشة والجريمة والآثام أموراً مقبولة لا غرابة فيها ، مباحة وليست ممنوعة أو محظورة أو معدودة فى موضع الخطأ أو الحرام .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل بدأت تدخل الأدب العربى فلسفات المذاهب الأدبية الغربية ونظرياته المشتقة من مفاهيمه وقيمه ، هذه الفلسفات التى تجعل من الكشف عن جوانب الجنس فى الأدب الغربى أصولاً معترف بها تدرس فى السكليات والجامعات ، لا على أنها نظريات ولكن على أنها أساساً أصولية وقواعد أساسية للادب .

ونحن نعرف أن الأدب الغربى قد قام أساساً معتمداً على الأدب اليونانى وفى ظل مفاهيمه وأساطيره ونظراته التى تؤمن بعبادة الجسد ، ونحصى على إطلاق النار ، ولا تجعل للروابط بين المرأة والرجل حدوداً ، فالحب هو تلك الانطلاقة المتصلة بالفرجة والشهوة والتى تصل فى حرية إلى أبعد غاياتها وفق فكر إغريق له مقوماته فى تعدد الآلهة .

* * *

وعلى هذه الأسس قام الأدب الغربى التى اتخذ من الأدب اليونانى أسسه ودعائمه ، وكان بطبيعته ممثلاً للنفس الإنسانية الغربية فى موقفها من الكون والحياة ، وهو موقف يقوم على أساس الصراع بينها وبين الطبيعة ، وفق نظرة مادية لا تعترف بوجود الله .

وترى أن الإرادة الفردية الخاصة هي التي تقرر القدر وأنها تتصرف في حرية مطلقة ، وهي تواجه مشكلة المجتمع العربي القائم على النظرة المادية الصرفة ، وعلى أجواء لها طابعها المختلف عن أجواء بلادنا وطبيعتها وطقسها ، حيث تبدو هناك صورة العواصف والبرد والجبال والأمطار والثلوج ، وحيث ترى هناك العلاقات بين المرأة والرجل لها طابعها المتحرر المكشوف المنطلق القائم على الوثنية وحرية العلاقة الجنسية ، وحيث المجتمع يكشف عن صورة الحرمان والشقاء النفسي والفاق والتطلع إلى الذات وفي عشرات من هذه القصص : البؤساء لهيجو والنور والظلام لتولستوى وتاييس لا تأتول فرانس ؛ لا ترى صورة مجتمعا ولا صورة النفس العربية ولا مفاهيمها ، وكلها تصف أعراض الألم والجوع وقسوة النفس الأوروبية والعصور المفزعة والآلام البشعة والاضطرابات العقلية والتجمل على نحو لا يعرفه مجتمعا وحيث تبدو مشكلات القصص العربي وعقدها مختلفة تماما مع مشكلاتنا .

وليس في مجتمعا - وبالتالي ليس في أدبنا - صورة تأسيس مثلا في المتاجرة بالذرائع في ظل الرهبانية وتعجيد الوثنية والأبيقورية والا إدريه ، وليس لدينا مثل هذه الحيرة ، وليس في مفاهيمنا مثل قول المؤلف « للجسد أن يستسلم للشهوات ثم تبقى النفس طاهرة » . فالشك والعهر وانكشاف الفريضة ، وتحريك الشهوات على هذا النحو لا يمثل مجتمعا ولا يمثل النفس العربية . ومن هنا يبدو مدى الأثر الذي كان لحركة التغريب في تفرغ هذه الشحنة الضخمة من القصص الغربي فوق أديم الأدب العربي .

وقد كان هذا الأثر بعيد المدى في تدمير القيم العربية الإسلامية وتطويع الأدب العربي للغزو الفكري الغربي . وقد وصف الدكتور حسين المرأوي أهداف القصة الغربية في مجال الترجمة إلى الآب العربي فقال : أنها تمثل انتهاك الحرمات ووصف المخازي وتغلب المادة على انقاض الأخلاق . فهي في أساسها تهدف إلى تسلياة الجماهير فضلا عن ازدراء روابط الزواج والأسرة .

وقال المازني أن القصص التي ترجمها الدكتور طه حسين كان همه فيها مدح الخيانة

والاعتزاز بالخطوة وتصوير الخلاعة والمجون في صورة جذابة ، ويجمع الباحثون إلى أن تأثر الأدب العربي بالأدب الغربي ثم على هذا النحو الذى فرض عليه في مجال الترجمة للقصة ، ثم في مجال تعريب هذه القصة وتصويرها برفع أسماء الأشخاص والأماكن الغربية وإحلال أسماء أشخاص وأماكن عربية بدلاً منها مع الاحتفاظ بجوهر القصة .

كما كان ذا أثر نفسى بعيد المدى في تعميق مفاهيم التعريب إذ كون تياراً جديداً خطير الأثر في مجال التربية والاختلاق والتكوين النفسى والاجتماعى « وكان لاختلاط قيم الغرب ومفاهيمه الوثنية والمادية وصوره وأهواءه النابعة من بيئته وأهوائه مع المفاهيم العربية في محاولة ضخمة لتدمير المقومات الأساسية للامة العربية .

ومن هنا برز في الأدب العربى طابع جديد بعيد عن أصالة صورة النفس الإنسانية العربية .

- ٢ -

وكان من أخطر النظريات التى فرضت على « الأدب العربى » نظرية « لا أخلاقية الادب » حيث أخذ الغربيون نظرية أرسطو في الادب القديم من فصل بين الأدب والأخلاق حين قال إن جمال الأدب لا صلة له بالأخلاق ، وأنه معنى منفصل لا شأن له بأية قيمة خارجية . وأنه لا دخل للمبادئ في الأدب ، وقد أعان الأدب الغربى على اعتناق هذا المذهب الاساسى المادى الدورانى الذى أقام عليه إيمانه في الفسك والاجتماع والنفس والتربية . وإن هذه العلوم كلها كانت تهدف إلى « تعرية » الإنسان وتصويره بصورة الدوافع الغريزية والتخلص الكامل من كل ما يقال عن الاخلاق أو الدين أو القيم .

وقد حمل لواء هذه الدعوة أصحاب المذهب الطبيعى الذى يتزعمه أميل نرولا^(١)

(١) محمد مندور — مذاهب الأدب .

والذى يؤمن بأن السيطر على البشر هو حقائق حياتهم العضوية كالغرائز وحاجات البدن المختلفة . أما الروح فظاهرة ثانوية لا سلطان لها على البشر . ومن هنا فهم يردون تصرفات الإنسان إلى عمل الغرائز الغامضة . ويتصل هذا المذهب بظهور نظرية فرويد المتصلة بالغرائز وحيوانية الإنسان ، وقال أصحاب هذا المذهب أن من حق الأديب أن يصف كل ما يقع للانسان دون أى اعتبار لقيم الأخلاق ومصلحة المجتمع ويرسم إميل زولا فى قصته (جرمينال) أفسى صورة للغرائز الحيوانية .

وقد سيطرت هذه النزعة على الأدب العربى تحت ضغط حملات التغريب وفرضها بعض « قادة الفكر » على دراسات الأدب ، وتكون جيل كامل من الأدباء يجرى فى مجرى التقليد والتقييد بنظريات الأدب الغربى فى دراسات الأدب العربى ويفرضها فرضاً عليه .

ومن هنا تعمق هذا الاتجاه فى الأدب العربى فى ظل مفاهيم كأنها « شرعية » وظهرت القصة العربية خاضعة لشعارين أساسيين :

١ - النظرية الطبيعية فى الأدب .

٢ - نظرية فرويد فى اعتبار الغرائز هى الدوافع الأساسية لتصرفات الإنسان فى مجال الحب والحياة والعمل .

٣ - مذهب الفن للفن .

وقد استهدفت دعوة التغريب من ذلك تحويل الأدب العربى عن أضخم مجال من مجالاته وهو مجال المقاومة والحرية والوطنية إلى مجال « الذاتية » المتصلة بالفريضة « المتحررة » من قيود الأخلاق .

ويقول محمد مندور فى هذا : أن الوصف فى الشعر لا يخضع لمعايير الأخلاق فلا يوصف بأنه أخلاقى أو لا أخلاقى . وعنده أو مذهب الفن للفن لا يعارض الأخلاق لأنه يسمى إلى خلق الجمال فى ذاته وتحرير الفنون . وأن المذهب الواقعى لا يناهض الأخلاق لأنه وإن كان يحرص على تصوير الجانب الظلم المسف من طبائع البشر إلا أنه لا يتخلو من حنو على

هذا الجانب ، وقال : أن هدف الأدب هو فهم النفس البشرية وتحليلها ، وأن الأدب الحديث أدب تحليل لا أدب توجيه ، ومن هنا لا عبرة بارتباطه بالأخلاق . وأن الفن غاية في ذاته ولا محل للحكم عليه حكماً أخلاقياً ؛ ولا شك أن هذه المفاهيم غريبة خالصة ولا تتصل بفكرنا العربي الإسلامي أدنى اتصال ، وإذا كانت تعلن في هذه المرحلة من حياتنا وينادي بها مندور وغيره من الكتاب دعاة التغريب فإنما تهدف إلى صرف الأدب العربي عن مفاهيمه الأساسية وأهدافه الأصلية وعن مواجهة معركته مع الغزو الغربي في مختلف صوره ومظاهره . ولقد كان الأدب العربي دائماً هادفاً وواقعياً ولكنه كان أخلاقياً النظرة ، وليس هناك تعارض بين الكشف عن النفس الإنسانية وتصويرها فنياً مع بقاء خط النظرة الأخلاقية ولكن هذا لا يصدق إلا إذا انحرفت النظرة من دوافع التغريب والشعوبية .

أما الإلحاح على النظرة الجنسية وإبرازها وتعميقها على النحو الذي نراه في الأدب العربي المعاصر فإنه ليس أمراً طبيعياً في ذاته وليس ممثلاً للنفس العربية بمقوماتها ومفاهيمها . فالصورة التي يرسمها الأدب الجنسي اليوم في ظل مفاهيمه الواقعية والطبيعية هو في الواقع بعيد عن الواقع ، إذ يبدو مفزقاً في الرزيلة وتدمير القيم . فالصورة التي يحملها هي صورة إنسان حيواني الطبع ، تسلط عليه الغريزة ، وتدفعه في عنف عاصف . وجوح وإسفاف .

ولا شك أن تعميق هذا التيار على هذا النحو إنما هو عمل تغريبي موجه ، يهدف إلى تدمير القيم الأساسية للنفس الإنسانية العربية فضلاً عن تعارضه مع دعوى التحرر والوحدة والإيجابية والتقدمية وهي عناصر بناء الحضارة العربية الجديدة .

وليس صحيحاً أن المجتمع العربي قد بلغ هذه الدرجة من الإباحة والكشف كما تصوره هذه الآثار المنسوبة إلى الأدب العربي ، فما زال قيم الشرف والكرامة والأريحية والعفة من أبرز مقومات حياته وفكره ، فضلاً عن أن أساس البناء في الفكر العربي الحديث يختلف تمام الاختلاف عن أساسه في الفكر الغربي الذي يجعل المادة والغريزة أساسه ، ذلك أن فكرنا يجعل من عناصر العقل والروح والعاطفة والغريزة والدين والمادة متمزجة أساساً له ، فضلاً عما عرف عنه من طبيعة « السوية » والاعتدال ، والوسط بين الانحراف والجلود وموازة الروح والحس .

القومية _____ ة

(المروية والإسلام)

أخطر قضية تواجه فكرنا العربى الإسلامى المعاصر هى قضية « تجزئة المفاهيم » ذلك أن فكرنا يؤمن بترباط عناصر الدين واللغة والتاريخ والتراث والتقاءها وامتزاجها فى بوتقة واحدة . وأية ذلك أنك لا تستطيع أن تتحدث عن اللغة العربية منفصلة عن الدين والتاريخ والتراث . وحيث لا يمكن فصل الدين عن التاريخ أو اللغة أو التراث . أو فصل التاريخ عن الدين وهكذا . . ومن هنا تبدو « وحدة الفكر » لا وحدة الجنس .

وفكرنا العربى المعاصر إسلامى بطبيعته ، من حيث أن الإسلام ليس دنيا فحسب ، ولكنه دين وزيادة . ومن هنا يبدو خطأ كل الذين حاولوا أن يطبقوا رأى الفكر الغربى فى « الدين » على الإسلام .

ذلك أن نظرية « الدين » التى كونها الفكر الغربى ، ونقلها دعاة التغريب والشعوبيون إلى فكرنا العربى محاولين فرضها على الإسلام ، هذه النظرية زائفة « لأنها لا تتخذ تجربتنا ولا حياتنا أساساً لها . وهى بعد منسوجة على مقاس « دين » معين ، دين كريم نبع فى الشرق » وزحف على الغرب ، فاعتبره الفكر الغربى دخيلاً ، وحين قبله لم يسلم به كاملاً ولم يأخذ به وحده ، ولكنه أضاف ما قبل منه إلى وثيقته الاعرقية ، ومن هنا نشأت المسيحية الغربية التى عاد الغرب فأنكرها فى ظل حركة الاحياء والنهضة وفى ظل غلبة مفهوم المادية الدارونية وسيطرتها على جميع مفاهيم الفكر الغربى التى تقوم اليوم أساساً على المفهوم المادى سواء فى الفلسفة أو التربية أو الاقتصاد أو الاجتماع أو النفس .

ومن هنا كان الغرب منسجماً مع فكره ، حين آخذ المادية الدارونية قاعدة له وأقام عليها كل فكره . هنا بدت وحدة الفكر عنده واضحة . ومن هنا كانت نظرية الغرب

إلى « الدين » مستمدة من تجربته من المسيحية الغربية التي ابتدعها والتي وقفت أمام نهضته وقاومت حريته في التطور العقلي والعلمى .

ومن هنا يبدو الخطأ الواضح والخلط المبين في الحديث عن « الدين » مستمداً من نظرية الغرب ، فليس الإسلام أساساً ديناً فحسب ، وليس هو دين الروحانية التي يمكن أن تؤخذ كجانب مماثل للمادية الغربية كما يحاول التغريب أن يصوره . وإنما كان الإسلام دين وفلسفة وحضارة ومجتمع . ومن هنا تظهر روحه واتجاهه متصلة في مختلف مقومات الفكر العربى ، فمن قال أن الإسلام دين فحسب فقد قصد جانباً واحداً ، ووقف عند « جزئية » من جزئيات الإسلام .

والغريبيون واتباعهم من دعاة التغريب والشعوبية على أن الإسلام « دين » يتمثل فيه الجانب الروحى وحده وهم بذلك يقومون فى خطأ لا حد له ، حين يتعرضون لعديد من قضايا الفكر والقومية والتربية والأدب .

والحق الذى يجب أن يكون معروفاً فى هذا المجال : أن الدين جزء من الإسلام ، ولذلك يجب أن يصرف النظر نهائياً عن هذه النظرية المغلوطة والمفهوم الخاطى « وهوان كلمة الإسلام تعنى الدين كما تعنى المسيحية أو اليهودية أو غيرها .

وتفصيل ذلك أن الإسلام إلى جانب أنه دين للمسلم فهو فكر وثقافة وحضارة شارك فيها العالم الإسلامى كله بمختلف أجناسه وأديانه وعقائده ، فقد انصبت كل هذه الثقافات الهندية والفارسية والرومانية والمسيحية والاغريقية فى بوتقة الفكر الواحد الذى صاغ منها هذه المفاهيم . والمسيحيون فى العالم العربى مشاركون فى هذا الفكر واللغة والتراث ولذلك فكل مسيحى تشكلت ثقافته من تعاليم دينه المسيحى وثقافة الإسلام . هذه القيم الفكرية التى هى قيم كل مسلم ومسيحى ويهودى ، فضلاً عن تشابه القيم الروحية بين الإسلام والمسيحية فى أن كلاهما رسالة السماء وهدفها الحق والخير والعدل والحرية .

ومن هذه القيم والمبادئ التى تبلورت فى بوتقة الفكر العربى الإسلامى تبدو وحدة الفكر مقدمة على وحدة الجنس وهى التى تصوغ « روح الأمة » ولقد افصح الكثيرون من الكتاب المنصفين عن هذا المعنى . ومن هنا يبدو الخطر البالغ الذى نواجهه فى تجزئة المفاهيم ، فإن وحدة فكرنا هنا تتمثل فى امتزاج القيم واندماجها ، فنحن نؤمن بالروح والمادة

والمقل والقلب والدين والدنيا ، وليس فكرنا العربي الإسلامي روحيا خالصا ، وليس ماديا خالصا ، ومن هنا تبدو خطورة الفصل بين القيم أو تجزئة المفاهيم ، فلقد كانت نظرتنا إنسانية شاملة . تخرج فيها العروبة والإسلام ولا ينفصلان .

ولم تكن نظرية الفصل بينهما إلا من مؤامرات التغريب والشعوبية التي تستهدف دائما تجزئة المفاهيم والفصل بين القيم . ولقد كان علينا أن نواجه دائما المفهوم الغربي لكل قضية من قضايانا ، وأن يفرض علينا هذا المفهوم على أنه المفهوم الصحيح ، لقد مر العالم العربي بمراحل متعددة في العمل من أجل تحرير نفسه وبلاذه وفكره من النفوذ الغربي ، مر بمرحلة الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والوحدة العربية . ومهما يكن من أهداف ودوافع وراء إثارة عشرات الدعوات والقضايا في افق العالم العربي والإسلامي ، فإن الفكر العربي الإسلامي كان دائما قادراً على هضم هذه الدعوات وتقبلها دون أن يدعها تمزقه أو تحقق هدفها التغريبي في القضاء عليه .

ولقد اصطدمت دعوات الفرعونية والفينيقية والبابلية والاشورية والبربرية أعواما طويلة ثم اكتشف الفكر العربي الإسلامي أنها جميعا جذوراً عربية فقد كانت كلها موجات خرجت من الجزيرة العربية وانبثت في الافاق .

وربما كانت دعوة التغريب بمخططاتها الداعية إلى القضاء على وحدة العالم العربي الإسلامي قد قضت بالهجرة بين العرب والترك وإثارة دعوات مسمومة في كلا الجانبين مما استهدف تدمير هذا البناء الشامخ الذي كان يتمثل في الدولة العثمانية التي كانت تمثل وحدة العالم الإسلامي .

وإذا كانت الأمة العربية قد وجدت في دعوة القومية التي تأثرها العالم إذاك وسيلة للترابط بين أجزاء الأمة العربية في مواجهة النفوذ الأجنبي واتخاذ « عدة مقاومة » لعوامل التزيق والتجزئة ، فإنها بذلك قد فوّت هدف النفوذ الأجنبي من اتخاذ هذه الدعوة وسيلة للصراع بين العالمين العربي والإسلامي . غير أن النفوذ الأجنبي في مجال الفكر أراد أن يفرض على « القومية » مفهومه الغربي لها حتى يثير من جديد خلافات جذرية بين العروبة والإسلام ، حاول أن يجعل منهما قضيتين منفصلتين . ومن هنا كانت (م - ١٥ - الفكر العربي للناصر)

الدعوة الضاغطة الزائفة ذات المنابر والأقلام المشبوهة ، وهي التفسير الغربى للقومية «
والذى يقول « قومية من غير دين » أو أن الدين ليس مقوماً من مقومات القومية .
والدين هنا هو « الإسلام » .

وإذا كان من حقنا أن نتجرب مع الفكر الغربى فى حلبة الفكر الإنسانى فإن من
حقنا أن يكون للقيم مفهومها المستمد من فكرنا وتاريخنا وتجربتنا . وأن لا يفرض علينا
مفهوم الغرب لها . ومن هنا بدأت مراجعة النظرية التى تقول بأن اللغة والتاريخ من
مقومات القومية « وأن الدين ليس مقوماً .

ونحن نعرف لماذا جحد الغرب دينه وأبعده عن مقومات القومية ، ولذلك فإن رأى
الغرب فى دينه أساساً لا ينطبق علينا « والإسلام الذى يراد أن تطبق عليه النظرية ليس
ديننا بحسب « وإنما هو فكر وثقافة ، وأنه لا سبيل إلى الفصل بينه وبين اللغة والتاريخ .
بل إن هذه اللغة تكاد تكون مرتبطة به ارتباطاً جذرياً وكذلك التاريخ فإنه من العسير جداً
أن يفصل عن اللغة العربية كما لا يمكن أن يفصل التاريخ واللغة عن الإسلام الذى يكاد يكون
مادة هذا التاريخ ، وروح هذه اللغة ، كما يكاد يكون كتابه « القرآن » أكبر مصادر
اللغة فى منظورها وعلومها .

ومن هنا تبدو حقيقة ما ذهبنا إليه من أن القومية العربية تقوم أساساً على وحدة الفكر
لا وحدة الجنس . ومن هنا يسقط رأى القائل بأن الدين ليس مقوماً من مقومات القومية «
بالنسبة للإسلام لأن الإسلام ليس ديناً ولأن الفكر العربى الإسلامى مترابط فى مفاهيمه
إلى الحد الذى لا يمكن الفصل فيها بين اللغة والدين والتاريخ والتراث . والفكر العربى
الإسلامى هو الذى أعطى الأمة العربية قوتها ، وهو الذى دفعها إلى الآفاق وحقق لها بناء
هذه الحضارة العظيمة وقيام الدولة الضخمة فى أقل من قرن من الزمان .

ومن هنا تبدو العروبة والإسلام كشقين لحقيقة واحدة ، وأن التغريب فى دعواه إلى
تجزئة المفاهيم يحاول أن يقيم الشبهات والشكوك ، ولقد كانت العروبة والإسلام متفقتان منذ
قرون على مفهوم واضح عميق مستمد من مقومات الفكر العربى الإسلامى ، ولقد كانت روح
الإسلام فى تاريخ العرب قوة دافعة فى النضال ومقوم أساسى لبناء المجتمع : عقيدة جهاد

«وقوة عمل ، وحركة دافعة متطورة لا تجمد ولا تتوقف ولا تنطوى على نفسها » وقد كان الإسلام قابلاً للتطور لا يقف في وجه الحضارات والنهضات بل يواجهها بأفاق مفتوحة يأخذ وتطوّر ، ولم يعرف الإسلام بغض العناصر الأخرى وقد اتسعت آفاق عالمه لمن لا يؤمنون به فعاثوا في سباحة غير مكرهين على رأى أو عقيدة ، وليس دليل على هذه السباحة من وجود أقلية عربية غير مسلمة لا تحس بالضغط ولا الاضطهاد ، لأنها مشاركة أساساً مشاركة فعلية في مقومات الفكر العربي الإسلامي معتنقه فكراً لها وراهباً بعد الدين عقيدة فكرياً وابدولوجية حياة . ومن هنا يبدو ذلك التماثل الفكري والوحدة الثقافية إزاء كل مواقف التاريخ وأحداثه . فالعروبة والإسلام مجتمعان مرتبطان كوجهي عملة واحدة وإذا كانت العروبة جسماً فإن روحه الإسلام بهذا المفهوم :

ويصور هذا المعنى كاتب مسيحي معروف فيرى أن الفكرة القومية المجردة في الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوروبا من الخارج فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من العقائد الأخروية والأخلاق لم ينزل بلغاتهم القومية ولا أفصح عن حاجات بيئتهم ولا امتزج بتاريخهم . في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تعبير عن وجوه شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر والتأمل بالعمل والنفوس بالقدر وهو فوق ذلك كله أروع صورة للفتنهم وأدبهم وأضحى قطعة من تاريخهم القومي ، فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذاً كعلاقة أى دين بأية قومية « وسوف يعرف المسيحيون العرب عندما تستيقظ فيهم قوميّتهم بقضائهم التامة ويسترجعون ضيعهم الأصيل » إن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أئمن شيء في عروبته^(١) « ومن هذا النص ومثله كثير يتأكد به المفهوم القائل بأن وحدة الفكر العربي الإسلامي هي التي ربطت العربي غير المسلم بالمسلم العربي في قيم أساسية ومقومات أسيلة وأن محاولة فرض المضمون الغربي أو المفهوم الغربي للقومية هو إحدى محاولات التغريب والشعويرة .

فالفكر العربي الإسلامي يشمل العروبة والإسلام والمسيحية جميعا ، وأن نصرانية الدين لا تحول دون إسلامية الفكر ، وأن العروبة لا تصارع الإسلام ولا تقف في وجهه المضاد . وأن التجربة العربية للدين والقومية قد تؤخذ مأخذ الاعتبار ولكن لا تؤخذ مأخذ التطبيق ، فإن مفاهيم فكرنا العربي الإسلامي تختلف في جذورها عن مفاهيم الفكر الغربي أساسا . والإسلام لا ينفصل عن اللغة والتاريخ والتراث في الفكر العربي الإسلامي ولا يمكن أن يكون هناك فكر عربي منفصل عن الفكر العربي الإسلامي ولا تاريخ عربي منفصل عن الفكر العربي الإسلامي ولا تستطيع اللغة العربية أن تنفصل عنه أيضا .

فلا تاريخ للعرب إلا التاريخ العربي الإسلامي والإسلام هو ميدان التاريخ العربي والإسلام هو صانع العروبة ومقيم أسسها .

وآية وحدة الفكر العربي الإسلامي هو ذلك الانفعال الوجداني الواحد أمام الأخطار والأحداث والتاريخ والغزو الصليبي والفكري؛ وقد أفصح حبيب كحالة عن وحدة الفكر بين الإسلام والمسيحية حين قال « كما التقت النصرانية والإسلام في طريق الدين » فقد التقتا أيضا في الأدب والشعر والعلوم والفنون ، وفي كل ما يدعم صرح الحضارة فقد تعاون المسلمون والنصارى تعاوناً وثيقاً في هذا المضمار .

وقد كان بين النصارى شعراء أفاض وعلماء جهابذة كبار وأدباء وكتاب ساهموا كثيراً في رفع منارة الشعر العربي ، ونقل العلوم والفنون إلى العربية ، وكانت لهم مكانة رفيعة في قلوب الخلفاء . وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الشيء الكثير عن هذه المحاسن وذلك التماسك والتكاتف فالأخطل وآل بنختيشوع سلالة جورجيس ، وآل حنين سلامة حنين ابن إسحق ، ويوحنا بن ماسويه وابن البطريق ويوحنا الدمشقي (١) .

نظرية الأجناس : السامية والآرية

من أفكار التغريب التي استأثرت بقدر كبير من التوجيه والاهتمام « فكرة الأجناس السامية والآرية ، ومحاولة إعطاء الأجناس الآرية كل مزايا النبوغ والمبقرية وشجب هذه المزاي عن الأجناس السامية ، وذلك في مجال الانتقاص من الأمة العربية وفكرها وثقافتها ، ومحاولة الفصل بين العرب والفرس والهنود الذين جمعهم ثقافة واحدة ، باعتبار أن الفرس والهنود من الجنس الآري » وأن العرب من الجنس السامي ، وإقامة الحججة على أساس أن المبقرية والنبوغ تنبعان العرق والدم وهي دعوة عنصرية أساساً لم يثبت سلامتها علمياً ولا تاريخياً .

وقد حاول فريق من كتابنا الربط بين المبقرية أو العظمة عند طائفة من الشعراء وبين الجنس ، ناسباً سر عظمتهم إلى أجناسهم الآرية . فإن الروي من أصل روي وبشار بن برد من أصل فارسي ، إذن فمبقرية كل منهما يمكن أن تعزى إلى دمه الآري ، وابن الروي قد تفرد بفن جديد من فنون الوصف في شعره لم يسبقه إليه شاعر آخر فلا بد أن يكون مصدر ذلك عقليته الآرية . هكذا قال سليمان البستاني في الإلياذة وقال العقاد : أما بشار بن برد فقد جدد أساليب الشعر تجديداً لم يكن أساسه الخيال ، ويرجع ذلك في تقدير إسماعيل مظهر إلى عقلية آرية موروثية عن أب فارسي جملمته ينزع إلى الواقع المحسوس .

وقد جرى هذا القول في ظل تيار تغريبي كان قد بلغ مداه في الثلاثينات من هذا القرن حيث أثرت هذه النظرية ووسع نطاقها من أجل اتهام العرب والساميين بالقصور عن عقلية الغرب « ووصفت العقلية السامية بالنبييات والإسراف في الخيال . وقد استهدفت هذه النظرية أساساً هدم كيان الشخصية العربية القائمة على أساس الفكر العربي الإسلامي بقيمه وراثته في ميادين اللغة والتاريخ والدين .

وقد حمل لواء هذه الدعوة في أول الأمر كاتبان غربيان هما جو بينو ورينان ، وتقوم

النظرية على وجود فوارق طبيعية بين اللغات السامية والآرية « وقد أسرع النفوذ النرويجي والمخطط الاستعماري يعمق هذه النظرية ويوسع نطاقها ويبني عليها فكرة اختلاف العقل والفكر وتميز الرجل الأبيض الآري الذي حل لواء الحضارة، وترى هذه النظرية أن هناك اختلافات جوهرية : جسمانية وذهنية بين الأجناس البشرية وبين الآريين والساميين بالذات. وقد اتصل هذا بمحاولة لتفسير التاريخ تفسيراً يقوم على أساس محتوم هو انتقاص كل سامي ورفع كل ما هو آري « واتصل هذا بالأدب العربي « فجرى البحث عن شخصيات ليست عربية أساساً لمحاولة إبراز النظرية من خلالها .

وقد أشار الكونت دي جو بينو الفرنسي عام ١٨٥٨ أنه مادام هناك شعوب عليا ومادام قانون الطبيعة يعطى الغلبة للآري المتفوق فإن من حقه أن تكون له السيطرة وأن يقبض بيده على مقدرات العالم . ورينان أول من قرر بأن الجنس السامي أدنى من الجنس الآري ، ويقول ليون غوتيه تليذ رينان أن العقلية السامية وبالتالي العقلية العربية هي عقلية مفرقة في مقابل العقلية الآرية وهي عقلية مجمعة أو موحدة « وأن الفكر الآري عقلاني تفسيري وأن الفكر السامي غيبي معجزى .

* * *

ولا تطيل في تصور تطور هذه النظرية فليس هذا مكانها ، وإنما نحن نعرض لها هنا فيما يتصل بالفكر العربي الإسلامي ، ولقد أثبتت الأبحاث المنصفة أن هذه النظرية لم تكن في الواقع نظرية علمية وإنما كانت نظرية سياسية أريد بها تثبيت قوائم الاستعمار عن طريق الفت في عضد المومنين في آسيا وأفريقيا ومحاولة تحطيم مهنوتهم العسكرية في مجال الفزوة الثقافي والفكري الذي أطلق عليه « حركة التغريب » .

ولقد عورضت هذه النظرية معارضة علمية من كثير من الباحثين الغربيين أنفسهم ، وآخر ما كتب في هذا كتاب : نحن الأوروبيون (we europeans) الذي كتبه جوليان هكسلي ١٠ هادون وقد استعرض نظرية الجنس والسلالة « وعارضها بالنظرية الحديثة الخاصة بالوراثة البيولوجية وظروف تطبيقها على الإنسان وما يكتنف تكوين الأمم من العوامل « وخلص إلى القول بأن نظرية الجنس والسلالة ليست سوى علم مزعوم تستمر

وراءه غايات سياسية . وقد أشار كثير من العلماء إلى أن حضارة مصر وفينيقية وبابل والصين هي من أعظم الحضارات التي شهدتها التاريخ، ومع ذلك فإن الأجناس الآرية لا علاقة لها بها . وشهد الكتاب بأن الحضارة التي أنشأها من يسمون بالشعوب السامية أعظم أثرها وأطول عمرا من الحضارة التي أنشأها ما يسمى بالأجناس الآرية ، وضرب المثل أيضا بأن بلاد السويد والترويج والتي يعد أهلها المثل الأعلى للجنس الآري لم ينشئوا حضارة ما ، وأن الحضارة الحديثة قد قامت دعائمها في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وشعوبها ليسوا من الجنس الآري بل إن بعض العلماء قد ذهب إلى أبعد من ذلك فقرر أن وجود جنس آري بدائي موضع شك عدد كبير من العلماء ، وأن الأمر في هذه النظرية يرجع في الأغلب إلى ما وجد من مشابهات بين اللغات الهندية واللغات الأوربية قبل نحو مائة وخمسين عاما . وقد أكد العلماء على أن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل والنسل ، وأن اللغات قد تنتقل من أمة إلى أمة دون أن تكون منهما علائق نسلية .

والرأى الآن أن « البيئة الحضارية » لا السلالة هي الأساس ، وأن الوراثة العرقية أو وراثة الدم لا تؤثر في الاستعداد العام أو الذكاء الفطري وأن العبرة بالبيئة ، فقد ثبت أن وحدة الموروثات في التوائم التي خرجت من بويضة واحدة وبالتالي التي لها استعدادات عقلية واحدة ، لا تستلزم وحدة النتائج في اختبارات الذكاء ، في حين أن وحدة ظروف البيئة تحقق ذلك . ومن هنا وجد أن كثيراً من عباقرة ومفكرى الإسلام قد انحدروا من أصول غير عربية . وأن الأمم التي دخلت في الإسلام لم تظل هي نفسها كما كانت من قبل ، فقد تحولت بفعل البيئة الجديدة والفكر الجديد إلى قوم جدد^(١) .

ومن هنا كانت العبرة بالبيئة لا بالدم فإن من أقام في بيئة معينة وعاش حياة مجتمعها وتكلم لغتها وأحس إحساسها كان منها باللغة والمكان والإحساس وهي في مجموعها روابط أشد أصالة من روابط الدم ، وبذلك استحال أن تكون الأنساب اللغوية أنساباً للأمم التي تتكلم بها وأن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل أو النسل . وقد أسماها (جان فينو)

(١) الدكتور محمد هبة الرحمن مرحبا (مجلة العربي) تشرين الأول ١٩٦٠ .

نخرافات ومزاعم باطلة وقال (دينكير - Donicker) في كتابه « الأقوام والمروق » إنه لا يوجد جنس — أى عرق — أرى ، وأن كل ما هنالك عبارة عن فصيلة لغات آرية والرأى مجمع على أن عقلية الإنسان ونفسيته من محصلات حياته الاجتماعية لامن موروثات دمه المادية وبالنسبة لابن الرومى أو بشار ، فقد نشأ كلا منهما فى بيئة عربية ، وابن الرومى لم يكن يعرف اللغة اليونانية وكذلك أبوه ، وقد تكونت عبقريتهما من عوامل البيئة وعناصر الشخصية^(١) .

وأن تاريخ آدات الأمم الأوربية لا تخلو من ذكر أدياء وشعراء وعظام منحدرين من أنسال أجنبية عن الأمة التى نشأوا بها ومع ذلك لا يقدم مفكروا تلك الأمم على إرجاع مزاياهم إلى نوع الدم الذى يجرى فى عروقهم .

أما اتصاف العقلية الآرية بالبعد عن الخيال والنزوع إلى الواقع المحسوس ، فقد كذبه ما عرف من شعراء الفرس من علو فى الخيال ، وقد أورد ساطع الحصرى نموذجا لتلك فى مدحهم الملوك بأنهم يستطيعون اقتلاع النجوم من السماء ليرصعوا بها سيوفهم .

أما اتهام العقل السامى بالنيبائيات ، فقد كذبه كل الأدلة ، وأن ما عرف عن ابن الهيثم وابن حزم وجابر بن حيان وغيرهم من منهج علمى — بهر الفكر الغربى حتى اليوم — يرد هذا القول ، وقد أدلى أرنست رينان بشهادة منصفة فى هذا المجال فقال : « أن للساميين عقلية عملية رياضية تنفى الأساطير والنيبائيات » .

* * *

ويقول ساطع الحصرى فى دراسة له^(٢) فى هذا المجال : إن فكرة الجنس الآرى تولدت من اكتساب بعض التشابه بين اللغات الهندية واللغات الآرية فى أوائل القرن الماضى فقدقارن (شله جل - Cehlaogal) عام ١٨٠٨ اللغة السانسكريتية باللغة الألمانية فوجد بعض المشابهات فى أصولها فاستدل من هذه القرابة اللغوية على وجود قرابة نسلية

(١) الدكتور عمر فروخ — ك/ ابن الرومى .

(٢) مجلة المنبرية والتطير (بغداد) ١٩٢٨ م .

بين الأقوام الهندية والأقوام الجرمانية وأوجد بذلك فكرة العرق الهندو جرمانى .
استدلوا على وجود قرابة نسلية ليس بين الأقوام الهندية وبين الأقوام الجرمانية
مخسب . بل بينها وبين سائر الأقوام الآرية ثم اختاروا كلمة (آريان) المذكورة في الكتاب
المقدس القديمة وانتشرت النظرية بتأثير بعض العوامل السياسية التي وجدت لها ملائمة
لأهوائها من جهة أخرى .

لكن الفكرة لم تأيد قط بالتدقيقات العلمية الحقيقية ، وإنما برهنت التدقيقات الواقعة على
أن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل والنسل . وأن اللغات قد تنتقل من أمة إلى أمة
عن غير أن يكون بها علائق نسلية . فالفرض القائل بقرابة تلك الأمم من حيث النسل والدم
إنما هو فرض ، وأنه لا يستند على أسس علمية . وقال (ده نيكر) : في كتابه الأقوام
والأجناس : أنه لا يوجد جنس - أى عرق - آرى وأن كل ما هنالك إنما هو فصيلة لغات
آرية وربما حضارة آرية .

وقال (مه ييه) في كتابه لغات العالم : كثيرا ما تتكلم عن أقوام رومانية وجنس
سلافي ونموذج آرى ، ولكن هذه التسميات عارية عن معان واضحة صحيحة ، وقال (ماكس
مولر) : « إن العالم الأنثولوجى الذى يبحث عن عرق آرى ودم آرى ويعيون آريه وشعر
آرى ، يرتكب هرطقة لا تقل سخافتها عن سخافة العالم اللغوى الذى يجرؤ على التسكلم
عن قاموس مستطيل الرأى أو نحو قصير الرأى .

وقال (ماير) : إن الجنس الآرى من مخترعات اللغويين .

وجملة القول أن الحضارة العربية التى أنشأها العقل الموصوف بالسامى قد امتدت من
الأندلس إلى الصين وكان لها طابعها المميز فى كل مجالات الإنشاء والبناء والعلوم ، وقد
انصهرت فيها خلاصات الثقافات وعصارات الحضارات الهندية والمسيحية واليونانية
والرومانية وحولتها إلى كيائها وصهرتها في بوتقتها ، وأنشأت حضارة عرفت بالإيجابية
والبناء ، وكانت آثارها واضحة في جامعات القاهرة وبغداد وقرطبة وكانت هى الأساس الأول
الذى قامت عليه النهضة فى أوربا .

× الفراعنة والفينيقيون روافد عربية .

وفي مجال « تزييف الحقائق » الذي رسمه الغزو الأجنبي للفكر العربي الإسلامي محاولة فرض نظرية « التأكيد على إقليمية الفكر » تحت اسم حضارات وثقافات قديمة ، مستهدفة ربط بعض أجزاء الأمة بها كالفرعونية والفينيقية والبربرية ، وقد جرى في هذا التياز كثير من غفلة منهم أو جهلا بالحقائق ، دون أن ينتبهوا إلى ما تهدف إليه هذه الدعوات . غير أن الحقائق لم تلبث أن انكشفت عن أن كل هذه التيارات ليست إلا روافد من نهر الأمة العربية الكبير .

١ - وفي أكثر من دراسة لباحثين في التاريخ والآثار تأيد الرأي القائل بأن الفراعنة عرب ، وأن كثيرا من علماء الألمان يشاركونهم أحمد كمال (باشا) الأثرى المصرى الأول ، وأحمد زكي (باشا) الملقب بشيخ العروبة . على أن المصريين جاءوا إما من برزخ السويس أو من جهة باب المندب ، وأن أهل مصر أصلا من عرب الشمال (الحجاز ونجد وبادية الشام) ويرى بروكس الألمانى وإيرى ولوث ولبين التزويجى أن عرب الجنوب جاءوا عن طريق اليمن . وزيد أحمد كمال باشاعلى ذلك بأن اللغات المصرية والإفريقية هى من أصل عربى ويقول « فاللغة المصرية ما هى إلا لغة قبائل الأعناء التى سكنت مصر وما جاورها من الأقاليم ، هى أصل اللغة العربية بلا مرأ » وقد أرجع كل كلمات اللغة المصرية القديمة إلى اللغة العربية وأكد نظرية مجيء المصريين الأقدمين من بلاد العرب من باب المندب فالحبشة فالسودان فمصر . وقال فى النهاية أن المنصرين المصرى والعربى يرجعان إلى أصل واحد ولغة واحدة .

وأشار جبر ضومط فى كتابه « فلسفة اللغة العربية » إلى رأى أحمد كمال باشا وقال أن الباحث العالم أظهر لنا معنى الاتحاد بين اللغة العربية واللغة المصرية القديمة وألف قاموساً كبيراً أورد فيه ألوفا من الكلمات المبروغلييفية الموافقة للغة العربية المصرية فى الغالب ، إما موافقة تامة أو موافقة بضرب من التحريف أو القلب والإبدال المعهود مثله فى اللغتين ، وقال إن أحمد كمال يرى أن العربية أصل للغة المصرية القديمة المدونة بالعلم المبروغليفي « ومن لوازم هذا أن أحباب المدنية كانوا من العرب .

والمعروف أن أحمد كمال باشا وهو أول أثرى مصرى قد ألف قاموسا فى ٢٢ مجلدا ضخما قضى فى تأليفه ربع قرن ، وما زال مخطوطا لدى نجله الدكتور محرم كمال عالم الآثار الكبير ، وجملته قوله أن أغلب اللغة التى استعملها قدماء المصريين عربية الأصل لفظا ومعنى ، فضلا عن أنها شبيهة بالعربية التى نستعملها اليوم وأن لغة المصريين القدماء هى لغة جزيرة العرب لا تختلف إحداها عن الأخرى إلا بالإمالات وبعض المترادفات فهما لهجتان فى لغة واحدة .

وجمة القول فى هذا أن المصريين جنسا من العرب ولقهم جزء من اللغة العربية .

٢ - أما « الفينيقيّة » فهى دعوى كالفراعنة تماما ، استعملها الفوز الثقافى الغربى لتزييق وحدة الفكر العربى الإسلامى ، وقد كشفت أبحاث التاريخ والآثار معا على أن الفينيقيين عرب ، وأن فينيقيا لفظ يونانى معناه النخلة وضعه الأغارقة بعد أن زاروا هذه المنطقة الممتدة من أنطاكية شمالا إلى غزة جنوبا ، فقد هتفوا عندما شاهدوا « النخلة » : « فينيكيا » وتناول شعرائهم وكتابهم هذا الاسم فتداولوه ، وذكره هوميروس فى شعره وهيرودت فى كتاباته وبطليموس الجغرافى الفلكى فى أبحاثه .

وجملة القول فى هذا أن جماعة من عرب البحرين قحطانية الأصل هاجروا فى الخليج الفارسى قبل المسيح بألف سنة ، فأقاموا قريبا من مدينة بابل - على رواية أحمد زكى باشا - ثم ساحوا إلى الشمال إلى شاطئ بحر الشام فأسسوا طرابلس وبيروت وصور وصيدا وعكا وحيفا . وقد وجد الباحثون فعلا تشابها كاملا بين حضارة البحرين وحضارة لبنان وفلسطين مما أكد أن الحضارتين مرتبطتين برباط وثيق .

وقد ذكر هيرودت « المؤرخ » صراحة وبصيغة التوكيد أن الفينيقيين جاءوا من الخليج الفارسى واستقروا فى ساحل الشام ، وذكر استرابون « الأثرى » أن قبور البحرين مشابهة لأحداث الفينيقيين وبذلك تجمع مراجعات على التاريخ والآثار على أن اللبنانيين قحطانيون عربا من أهل الجزيرة العربية أصلا .

٣ - وبالنسبة للبربرى أغلب المؤرخين على رأى القائل بأن البربر فى عمومهم أمة عينية عارية قحطانية نزحوا من الجزيرة العربية إلى السودان والغرب والأندلس وجزائر

البحر المتوسط ، وأن هذه الأمة العاربة القحطانية قامت بأول فتح عربي للمغرب ، ونشرت العمران بالدم العربي الفتح في ديار المغرب وسجلت لأول مرة ونهايا عقد ملكية المغرب للعروبة على حد تعبير (عثمان السكالك) في كتابه البربر ، حيث يرى أن النسابة للبربر (من ابن حزم إلى ابن خلدون) لا يعملون للبربر عرقا في غير حمير ، وأن البربر بكرهون جدا إلى اليوم أن يقال إنهم بربر ويسمون أنفسهم (أمازيغ) أى أشراف . وقد رد كثير من الباحثين العرب والاجانب المنصفين الرأى القائل بأن البربر من أصل لاتيني ، وقالوا إنه لم يبق عليه دليل يؤبه له من العلم أو التاريخ .

ويقول المؤرخ « حسن السامح » من كتاب المغرب « إن الذين يدرسون اللغة البربرية يشهدون لها ، بأنه لا مجال للشك في انتسابها إلى الأرومة السامية التي لا تجمع البربر والعرب جمعا لغويا فقط ، بل تجمع بينهما جنسيا وسلاليا وأن اللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كأختها العربية وهى من اللغات السامية المعبر عنها في تاريخ اللغات (Pratosemitique) وهى تتشابه مع العربية في كثير من المفردات وأصل الاشتقاق ومخارج الحروف ، وقد لقحت هذه اللغة مرة أخرى بالقحطانية بعد جلاء يهود خير عن ضواحي يثرب وإقامتهم بشمال أفريقيا ، كما نتجت قبل ذلك بالعربية قبل الميلاد بمخسة قرون أى عام ٤٨٠ ق . م حيث هاجرت قبائل كنعانية عربية إلى بلاد أفريقيا » .

ومن هنا تبدو هذه الدعوات الثلاث وقد انتهت أمام الحقائق التاريخية التي تؤكد وحدة الفكر العربي الإسلامى بوحدة هذه الروافد مع نهر الأمة العربية الكبير .

-
- الفرائنة عرب عرباء : أحمد زى باشا - ١٣ أكتوبر ١٩٢٩ المقطم .
 - الفينيقيون ومفاخرهم : المقطوف مارس ١٨٨٨ .
 - جر ضومط : المنار م ١٥ .
 - (كتاب) البربر : عثمان السكالك :

موضوعات البحث

صفحة

الكتاب الأول : الفكر العربي (مقوماته ومعطياته)	١٧
معطيات الفكر	٢٥
الكتاب الثاني : الفكر العربي (مقوماته ومعطياته)	٢٣
الوثنية الاغريقية	٣٧
الترعة الرومانية	٣٩
المسيحية الغربية	٤٠
أساس الفكر العربي	٤٩
المادية التاريخية	٥٠
نظرية العدم (الوجودية)	٥٤
مادية السلوك والتربية	٥٨
نظرية الجنس	٦٠
مفاهيم الفكر العربي	٦٣
اليهودية والفكر الإنساني	٧٢
الكتاب الثالث : التغريب والشعوبية	٨١
(١) تغريب الشرق	٨٣
(٢) حركة التغريب	٨٩
(٣) الفكر العربي : محاولة تغريب مقوماته	٩٤
(٤) بين الثقافة والمعرفة	٢٠٢
(٥) بين التسامح والتمصب	١٠٧
(٦) محاولات التغريب	١١٢
(٧) الشعوبية الفكرية الحديثة	١٢٣

صفحة

١٣١	الكتاب الرابع : نحن والحضارة الغربية
١٤٥	الكتاب الخامس : (نحن والفكر الغربي)
١٤٨	١ - الثقافة
١٥٥	٢ - الدين
١٧٤	٣ - التراث
١٨٧	٤ - التاريخ
٢٠٤	٥ - اللغة
٢١٨	٦ - الأدب
٢٢٤	٧ - (القومية) العروبة والإسلام
٢٢٩	٨ - نظرية الأجناس

ثبت المراجع

- حوسوعة مقارنة الأديان (٤ مجلدات) الدكتور أحمد شلبي
 كتب غيرت العالم
 هؤلاء علموني سلامه موسى
 آراء فلسفية في أزمة العصر
 الماسونية الدكتور أحمد زكي أبو شادي
 المادية الجدلية وفلسفة الماركسية
 الإسلام والنصرانية محمد عبده
 الصهيونية والماسونية
 الخطر اليهودي وبروتوكولات صهيون محمد خليفة التونسي
 آراء وأحداث في الوطنية والقومية ساطع الحصري
 إسرائيليات (كتاب الهلال) أحمد بهاء الدين
 الفكر العربي ومكانه في التاريخ ديلاس أوليري
 في سبيل البعث ميشيل عفلق
 المسيحية والقومية العربية
 الاقليمية : جذورها وبذورها ساطع الحصري
 اتجاه الموجات العربية في جزيرة العرب عبد الدين الخطيب
 فلسفة القومية أحمد خاكي
 أضواء على التاريخ الإسلامي فتحي عثمان
 فلسفة التاريخ غوستاف لوبون
 أثر الشرق في الغرب الدكتور فؤاد حسين على
 المجتمع العربي في العصور الوسطى ادوار ولیم لين
 الطاقة الإنسانية أحمد حسين
 فلسفة الحضارة ألبرت اسفيتسر
 نظرات في الثقافة هاري شايرو
 الإسلام اليوم وغدا (مجموعة من العلماء)

التربية والأخلاق	يعقوب قام
آراء في التربية والتعليم	ساطع الحصري
العلم والديموقراطية	همايون كبير
المجتمع الإسلامي	الدكتور أحمد شلبي
الاستعمار	الأمير مصطفى الشهابي
الإسلام والقومية العربية (مجموعة أبحاث)	الدكتور أحمد الحوفي
ديموقراطية جديدة	أحمد جمال الدين
الدين والميثاق	أحمد الشراصي
مصير الأديان في النظام الشيوعي	سامي عاشور
بين الديانات والحضارات	طه المدور
نشأة الدين	علي سامي النشار
من هنا نبداً	خالد محمد خالد
أيدلوجيه عربية جديدة	مصطفى السحرى
تقويم الفكر الدينى	محمود الشرقاوى
تاريخ الإنسانية	أحمد حسين
الصراع الفكري في البلاد المستعمرة	مالك بن نبي
الاسلام بين الانصاف والجحود	محمد عبد الغنى حسن
الإسلام في التاريخ الحديث	ولنور كابوتل سميث
ما هي القومية	ساطع الحصري
دراسات إسلامية (مجموعة أبحاث)	باشراف نقولا زيادة
هذا العصر المنفجر	قسطنطين زريق
الإسلام من خلال مبادئه	علال الفاسي
الشرق الفنان	دكتور زكي نجيب محمود
عبقريّة العرب في العلم والفلسفة	دكتور عمر فروخ

الدوريات : مجلة الزهراء : عب الدين الخطيب (م من ١ - ٥)

مجلة المنار : رشيد رضا (٣٢ مجلد)

مجلة دعوة الحق (المغرب)